الصليبيون

واسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية
(القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)

دكتور

أسامة زكي زيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



الهيئة العامة المصرية للكتاب

فرع الاسكندرية

١٩٨٠



الصليبيون

واسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية

(القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى)

دكتور
أسامه زكي زيد
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية - جامعة طنطا

تقديم

دكتور جوزيف نسيم يوسف
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الاسكندرية

١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً

صدق الله العظيم

محتويات الكتاب

	رقم الصفحة
تقـــديم الكتاب	١ - ١١
مقـدمـة المؤلف	١٣ - ٤٢

تصدير

عرض وتحليل لمصادر الكتاب

المصادر الاوروبية المعاصرة ـ المصادر العربية المعاصرة

المراجع الثانوية الأوروبية ـ المراجع الثانوية العربية

الفصـــل الأول

الطائفة الاسماعيلية

نشأتها ونظمها وقلاعها وشيوخها	٤٤ - ١٠٤

نشأة المذهب الشيعى وفرقـه ـ ظهور الطائفـة الاسماعيلية ـ سفر ابن الصبـاح إلى مصر فى عهـد الخليفـة المستنصر بالله ـ تكوين أول دولة اسماعيلية فى فارس ـ انقسام الطائفـــة ـ نظم الاسماعيلية ومراتب الدعوة ـ جنـة الحشيشية ـ اسلوب الفداوية فى الاغتيالات ـ وسائل دعايتهم ـ طرق اجتذاب الناس لاعتناق المذهب ـ عقائد الاسماعيلية ـ تعدد اسمائهم ـ قلاع الدعوة ببلاد الشام ـ شيخ الجبل فى المصادر الاوروبية والعربيـــة ، وأهميه الدور الذى قام به فى الصراع الصليبى الاسلامى .

رقم الصفحة

الفصل الثانى

اوروبا والشرق الادنى

فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) ١٠٥ – ١٦٨

القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى : العباسيون فى بغداد ، الفاطميون فى مصر ، السلاجقة فى آسيا الصغرى – الحرب الصليبية الأولى وأثرها – أحوال اللاتين فى الشرق وحروب القرن الثانى عشر الصليبية – أحوال الغرب الأوروبى – الامبراطورية البيزنطية – ظهور الحشيشية فى الشام – اتصالهم بالملك رضوان – استيلاؤهم على أفاميــة ، ثم تسليمهم هذا الحصن إلى الصليبيين – كراهية الملك رضوان للاسماعيلية – مذبحــة حلب ، والقضاء على الاسماعيلية فيها سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م – استيلاء الاسماعيلية على شيزر وبانياس – مذبحة دمشق سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م – اتصال الاسماعيلية بالصليبيين لتسليمهم بانياس – اغتيال تاج الملوك بورى – راشد الدين سنان أول شيخ جبل فى الشام .

الفصل الثالث

موقف الحشيشية من المسلمين السنيين ١٦٩ – ٢١٥

الخطوط العريضة لسياسة اسماعيلية الشام حيال كل من الصليبيين والسنيين – استيلاء نور الدين محمود على مصر وأهمية ذلك – نهاية المذهب الشيعي بمصر وموقف سنان –

رقم الصفحة

مؤامرة عمارة اليمنى ـ اتصال المتآمرين بالصليبيين وزعيم الحشيشية فى الشام ـ قضاء صلاح الدين على المؤامرة ـ موقف اسماعيلية الشام من بعض القادة المسلمين وأثر ذلك على الصليبيين ـ اغتيال مودود وآقسنقر ـ الاسماعيلية ونور الدين محمود ـ تحليل مواقف كل من الصليبيين والاسماعيلية وصلاح الدين حيال الآخر .

الفصل الرابع

موقف الحشيشية من القوى الصليبية فى الشام ٢١٧ - ٢٦١

الخطوط العريضة لسياسة الصليبيين حيال الحشيشية فى الشام ـ الفداوية يغتالون زعماء الصليبيين: مقتل ريموند الثانى صاحب طرابلس ـ مقتل كونراد دى مونتفرات صاحب صور ـ مقتل ريموند بن بوهيموند الرابع صاحب انطاكية وطرابلس ـ مقتل فيليب دى مونفورت صاحب صور ـ محاولة اغتيال الملك ادوارد الأول ملك انجلترا ـ تحالف الاسماعيلية مع الصليبيين لمواجهة نور الدين محمود ـ سفارة سنان إلى الملك عمورى الأول ـ اغتيال فرسان المعبد للرسول الاسماعيلى وآثاره ـ مناقشة موضوع تعلق شيخ الجبل بالديانة المسيحية ـ زيارة هنرى صاحب شامبانيا لقلاع الدعوة ودلالتها ـ أوجه الشبه بين كل من الجاليات التجارية الابطالية والجماعات الرهبانية العسكرية من ناحية وبين اسماعيلية الشام من ناحية أخرى .

رقم الصفحة

الفصل الخامس

تقييم العلاقات الصليبية الاسماعيلية ٢٦٣ - ٢٨٧

اختلاط تاريخ اسماعيلية الشام بتاريخ كل من الصليبيين والسنيين وأثر ذلك — تخوف كل من الفرنجة والسنيين من الحشيشية ونتائجه — تحليل المواقف والسياسات التي اتخذتها الأطراف المتصارعة، ومدى الالتزام بها عند التطبيق العملي — أثر الخلاف المذهبي بين المسلمين على الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة، ومدى ما حققه الفرنجة من وراء ذلك — مصير الاتصالات الصليبية الاسماعيلية — الموقف لو لم يظهر الحشيشية على مسرح الأحداث وقتذاك — الموقف لو ظهرت طائفة الاسماعيلية دون وجود صراع صليبي اسلامي — زوال دولة الحشيشية في الشام وأثره على الصراع الصليبي الإسلامي — أسباب فشل اسماعيلية الشام في تحقيق أهدافهم في المنطقة — أهمية المصادر الأدبية في الكشف عن طبيعة العلاقات الصليبية الاسماعيلية .

الخاتمة ٢٨٩ - ٣١٢

أهم الاستنتاجات التي أمكن التوصل إليها — أهم المشاكل والقضايا التي عولجت في البحث — الجديد في الموضوع — العلاقات الصليبية الاسماعيلية في القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري) — نهاية اسماعيلية الشام على يد الظاهر بيبرس .

الملاحق ٣١٤ - ٣٢٤

الملحق رقم (١) :

استيلاء اسماعيلية الشام على حصن أفامية ، ثم أخذ الفرنجة له.

ملحق رقم (٢) :

زيارة الملك الصليبي هنرى صاحب شامبانيا للاراضي الاسماعيلية

ملحق رقم (٣) :

بعثة شيخ الجبل إلى الملك الصليبي عمورى الأول وتفاوضهما من أجل إعفاء اسماعيلية الشام من الجزية المفروضة عليهم .

المصادر والمراجع ٣٢٦ - ٣٥١

بيان بالمختصرات الوارد ذكرها في حواشي الرسالة - مجموعات الحروب الصليبية - المخطوطات العربية - المصادر الأصلية الاوروبية - المصادر الأصلية العربية - المراجع الثانوية الأوروبية - المراجع الثانوية العربية والمعربة - دوائر المعارف .

الخرائط واللوحات

خريطة رقم (١) :

قلاع الدعوة بالشام في القرن الثاني عشر الميلادى ٩٤

خريطة رقم (٢) :

شمال الشام فى القرن الثانى عشر الميلادي ١١٨

خريطة رقم (٣) :

جنوب الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى ١٢٠

خريطة رقم (٤) :

غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر الميلادى ١٢٧

لوحـــة رقم (١) :

منظر لشيوخ الجبـل ٦٧

لوحـــة رقم (٢) :

منظر للمبنى القديم لقلعة المرقب ٩٧

لوحـــة رقم (٣) :

منظر قديم لقلعة مصياف ٢٠٨

تقـــديم

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية باحثا من الطراز الأول ، هـو الدكتور أسامه زكى زيد ، مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية التربية بجامعة طنطا . وهو أحد أبناء كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . تخرج من قسم التاريخ بها في يونيو عام ١٩٦٧ . ثم التحق بالسنة التمهيدية للماجستير (شعبـة العصور الوسطى) فى العام الجامعى ١٩٦٨/١٩٦٩ ، حيث نجح بتقدير « جيد جدا» . وحصل سنة ١٩٧٤ على درجة الماجستير فى الآداب فى حقل التاريخ الوسيط بتقدير « جيد جدا » ، فى موضوع « العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) » . وواصل دراسته الأكاديمية إلى أن حصل على درجة الدكتوراه فى تاريخ العصـور الوسطى عام ١٩٧٧ بمرتبة « الشرف الأولى » ، فى موضوع « بارونية صيدا وعلاقاتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية » .

مما سبق يتضح أن الدكتور أسامه زيد أمضى قرابة خمسة عشر عـــاما متصلة فى البحث والتحصيل إلى أن حصل على درجة الدكتوراه . وقد عرفته خلالها عن قرب شابا ممتازا علما وخلقا ، عندما تتلمذ على فى مرحلة الليسانس ، وأثناء إشرافى على رسالتيه للماجستير والدكتـوراه . وكان طـوال سنى دراسته يتميز بتفوقه الواضح ، ونشاطه العلمى ، ومثابرته الدؤوبة على العلم والتحصيل ، فضلا عن الحاسه التاريخية الأصيلة التى يتمتع بهـا ، والتى تبـدو واضحة فى هذه الدراسة الجادة عن العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام فى فترة من أدق فترات الصراع الصليبى الإسلامى فوق رقعة الشرق الادنى .

وهذه الدراسة تنقسم إلى فصول خمسة ، تسبقها مقدمة وعـرض تحليـلى

لأم مصادر البحث ومراجعة ، وفى نهايتها خاتمة فقائمة المصادر والمراجع التى استقى منها الباحث مادته العلمية . وفى المقدمة كشف عن أهميــة الموضوع باعتباره مرحلة هامة رئيسية من مراحل الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط . ثم أعقبها بعرض تحليلى مقارن لأهم مصادر البحث ومراجعة ، من عربية وأجنبية ، خطية ومطبوعة . ووقف أمام كل مصدر موقف الناقد ، فأشار إلى أهميته ، وقيمته التـاريخية ، ومـدى ما أفاده منه ، والجديد فيه . وتوصل إلى نتائج محددة تكشف عن عمق فى الفهم وإصالة فى التفكير .

أما الفصل الأول الذى جعل عنوانه « الطائفة الاسماعيلية : ونشأتهـا ونظمها وقلاعها وشيوخها » ، فقد إستعرض فيه أحوال طائفة الاسماعيليـة فى بلاد الشام كمدخل طبيعى للموضوع . وتناول عدة نقاط هامة ، من بينها قلاع الدعوة ، والآراء التى ثارت حول تسمية اسماعيليـة الشام بالحشيشيـة ، ومختلف التسميات التى وردت فى المصادر الأجنبية من لاتينية وفرنسية قديمـة وغيرها عن هذه الطائفة وشخصية مقدمها أو شيخهـا باعتبـاره الأداة المحركة للمجتمع الاسماعيلى فى الشام ، متخذا من المنهج التاريخى السليم أسـلوبا له . وقد توصل إلى آراء وأفكار تتميز بقيمتها التاريخية الواضحة ، وتساعد على فهم وتفسير كثير من مشاكل البحث . أما الفصل الثـانى وعنـوانه « أوروبا والشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) » ، فيعتبر الأساس المتين الذي تزتكز عليه العلاقات التى قامت بين الصليبيين الغربيين وبين اسماعيلية الشام ومقدمهم شيخ الجبل . وفيه إستعرض الباحث أحوال الشرق والغرب خلال الفترة الزمنية موضـوع البحث ، من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، مع الاشارة إلى مختلف القوى التى أسهمت

بطريق مباشرة أو غير مباشر في توجيه مسار الأحداث آنذاك ، مما يعين على تفهم حقيقة العلاقات الصليبية الاسماعيلية ، وما هيتها ، وموقف كل طرف من طرفي الصراع حيال الآخر . وكان طبيعيا أن يشير الباحث إلى قوة ثالثة هامة كانت طرفا مؤثرا في هذا الصراع ، ونعني بها العالم السنى . إذا إختلط تاريخ اسماعيلية الشام إختلاطا شديدا بتاريخ كل من الصليبين والسنيين ، بحيث لايمكن الفصل بين هذه القوى الثلاث عند الحديث عن العلاقات الصليبية الاسماعيلية ، بسبب تشابك الظروف وتداخلها وتعقدها ، وبسبب الاختلاط والتلاحم الشديدين في العلاقات بين هذه الأطراف الثلاثة ، الأمر الذى ترك بصماته على سير مجرى الأحداث بمنطقة الشرق الأدنى وقتها .

وفي الفصل الثالث من الكتاب وعنوانه « موقف الحشيشية من المسلمين السنيين » ، عالج الباحث سياسة اسماعيلية الشام حيال السنيين ، وحدد خطوطها العريضة ، والمراحل التى مرت بها إلى أن وصلت إلى طور النضج والكمال ، مبينا أن الحشيشية كانوا يلونون سياستهم حيال طرفي الصراع باللون الذى يتناسب مع مصلحتهم فحسب . وقد عالج في هذا الفصل عدة قضايا هامة بطريقة موضوعية ، ومن بينها الأسباب الكامنة وراء مقتل إثنين من رواد حركة اليقظة الاسلامية في بواكير القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) على يد نداوية الشام ، وهما مودود واقسنقره البرسقى صاحبي الموصل ، والنتائج التى ترتب على ذلك ، وأثرها على العلاقات الصليبية الاسماعيلية . وحتى تستكمل هذه الدراسة كافة مقوماتها ، فقد عالج في الفصل الرابع وعنوانه « موقف الحشيشية من القوى الصليبية في الشام » ، الجانب الآخر من الموضوع . فاستعرض سياسة الصليبيين حيال الاسماعيلية بكل دقائقها وتفاصيلها ، واستعرض خطوطها العريضة

والمراحل التي مرت بها ، مبينا أن كلا من الصليبيين والحشيشية كان يعمل على إستغلال الآخر لمصلحته الشخصية ، رغم ما كان يجمع بينهما من هدف مشترك وهو العمل على إزالة القوى السنية من الميدان حتى يسهل عليها تحقيق مصالحها الذاتية . ومن بين القضايا الهامة التي ناقشها الباحث في هذا الفصل قضية إغتيال بعض القادة الصليبيين على يد الفداوية ، ودوافع ذلك، وأثرها على العلاقات الصليبية الاسماعيلية . كما عقد دراسة مقترنة بين طائفة الاسماعيلية وبين الجماعات المسيحية الرهبانية العسكرية كالداوية والاسبتارية ، وبينهما وبين الجاليات الايطالية التجارية كالبنادقة والبيازنة والجنوية ، مبينا أوجه الشبه والخلاف بينها . وتوصل إلى الكثير من الأفكار الجديدة التي تحترم الموضوع .

وفي الفصل الخامس والأخير وعنوانه «تقييم العلاقات الصليبية الاسماعيلية» ألقى الباحث نظرة عريضة شاملة على الموضوع من كل جوانبه وزواياه . وناقش العديد من المسائل الهامة التي زودته بنتائج لها وزنها . ومن بينها الكمية المصادر الأدبية العريضة ، من شعر ونثره ، في توضيح طبيعة العلاقات الصليبية الاسماعيلية ، مع تقييم موضوعي دقيق لهذه العلاقات من وجهتي النظر الاسلامية والمسيحية ، استنادا على المصادر والأصول من عربية وغير عربية . وفي تحليل علمي جامع مانع شرح مختلف المواقف والسياسات التي اتخذتها الأطراف المتصارعة . حيال بعضها البعض ، مع بيان مدى الالتزام بها عند التطبيق العملي ، وركز في خاتمة الكتاب على أهم الاستنتاجات التي توصل اليها وأهم المشاكل والقضايا التي عالجها ، والجديد في الموضوع . وأوضح أن العلاقات التي قامت بين الصليبيين والاسماعيليين كانت سياسية في المرتبة الأولى، وإنها إتخذت الشكل العدائي أحيانا ، والشكل السلمي في بعض الأحايين ،

وانها لم تؤثر جذريا على مجريات الامور والاحوال فى منطقة الشرق الادنى فى ذلك الحين .

وخلاصة القول أن الدكتور أسامه زيد تصدى بشجاعة وجدية ، وفى صبر واناة ، لموضوع صعب وشائك ومعقد وجديد . فهو لم يدرس من قبل دراسة علمية متكاملة تلم بكل جوانبه وتلقى الضوء على كل خباياه . وعلى هذا يعتبر الكتاب الذى بين أيدينا أول دراسة علمية مستقلة متكاملة فى هـــذا الموضوع الحيوى الهام ، استمد مادتها من منابعها وأصولها العربية والاجنبية ، على قدم المساواة ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة . ثم أنه يميط اللثام عن فترة هامة غامضة فى تاريخ الصراع الصليبى الاسلامى ، ويعتبر فى ذات الوقت إضافية لها وزنها إلى مكتبة التاريخ الوسيط بصفة عامة ومكتبة الحروب الصليبية على وجه الخصوص .

دكتور جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية فى ١٤ سبتمبر ١٩٨٠ أستاذ تاريخ العصـــور الوسطى

كلية الآداب ـــ جامعة الاسكندرية

مقدمة المؤلف

شهدت العصور الوسطى التى اقتطعت من تاريخ البشرية حوالي عشرة قرون من الزمان حركات هامة وظواهر خطيرة لعل أعمقها وأبعدها أثرا هى الحركة التى تعارف المؤرخون على تسميتها باسم « الحروب الصليبية » التى قام بها الغرب الاوروبى ضد العالم الإسلامى بقصد الاستيلاء على الاراضى المقدسة . والواقع أن هذه الحروب التى أكتوى العالم الإسلامى بنارها طوال ثلاثة قرون انما كانت تمثل دورا رئيسيا من أدوار الصراع العتيق بين شقى العالم ، ذلك الصراع الذى امتلأ به تاريخ الانسانية منذ القدم حتى يومنا هذا .

وموضوع هذا الكتاب هو احدى الحلقات المذكورة ، وقد جعلنا عنوانه « العلاقات بين الصليبيين والاسماعيلية الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) » . واخترنا هذا الموضوع لخلو المكتبة العربية من دراسة مستقلة قائمة بذاتها تتناول احداثه بالتفصيل والتحليل والتعليل ، ولأنه لم يلق العناية الكافية من المورخين القدامى والمحدثين . فضلا عن عدم تناول أي بحث علمى لوجهتى النظر الاسلامية والغربية حيال هذه العلاقات المتشابكة المعقدة . وأن ما كتب في هذا الموضوع فى مختلف المراجع العربية والاجنبية لا يزيد عن صفحات قليلة أو نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك ، لاتشفى غلة الباحث ولا تصلح اساسا لدراسة علمية دقيقة محققة . ولعل ذلك يرجع الى من كتب من المؤرخين المسلمين عن هذا الموضوع لم يكن همهم أن يضعوا تاريخا مصورا لهذه الطائفة وعلاقاتها بمختلف القوى الموجودة وقتذاك ، بل انصرفوا الى التدوين العام لما يجرى من وقائع وأحداث سنة بعد أخرى على غرار نظام الحوليات المعروف .

وفضلا عما تقدم ، فقد تبين لنا أثناء قراءتنا للاوضاع السائدة فى بلاد الشام خلال الفترة الممتدة من القرن السادس حتى العقد الأخير من القرن السابع

الهجرى (١١٠٠ - ١٢٧٥م) أن تاريخ اسماعيلية الشام كان مختلطا اختلاطا شديدا بتاريخ كل من الصليبيين والسنيين بحيث لا يمكن الفصل بين هذه القوى الثلاث ونحن نتناول العلاقات الصليبية الاسماعيلية . كما تبين أن فداوية الشام أضحوا قوة سياسية لا يستهان بها ، وبات أمراء المسلمين والفرنج يخافون بطشهم ، ويحسبون حسابهم . لقد كانت سياستهم تقوم على الفتك بمن يعترضهم فى سبيل تحقيق غاياتهم الشخصية ، كما كانوا يتقبلون فى خدمة الاعـــداء والأصدقاء حسبما تمليه عليهم مصالحهم بصرف النظر عن أي اعتبار آخر . كما أن تاريخهم حافل بالارهاب السياسى والاغتيالات المنظمة ضد الزعماء السنيين وكبار رجال الافرنج على السواء . ومن هنا بدأنا فى جمع المادة العلمية من بطون المصادر والمراجع من عربية وأجنبية ، خطية ومطبوعة .

وكان لزاما علينا أثنـــاء تناول الموضوع أن تتبع أحداثه وتطوراته فى جوف الأصول الأوروبية والعربية على السواء ، وأن نناقش مختلف الروايات والنصوص المتضاربة ، مع عقد المقارنات والموازنات التاريخية بينها حتى نخرج منها بالحقيقة التاريخية البحتة التى هى فوق كل شىء وأسمى من كل اعتبار . وقد واجهتنا الكثير من القضايا والمسائل التى أدلينا فيها برأينا محاولين تفسيرها التفسير السليم ، مع بيان أسبابها ومسبباتها وما تترتب عليها من نتائج وآثار . ولكن ، لسوء الحظ ، لم تسعفنا منابع البحث ، وبخاصة العربية منها ، بفيض من المعلومات يحيط اللثام عما غمض . لقد ضنت علينا بالكثير من المعلومات ، بينما سكت بعضها سكوتا مطبقا حيال الكثير من الوقائع والاحداث الأمر الذى أثار بعض الصعاب أمامنا . وكان علينا أن نبحث فى الأصول الاجنبية ، التى تعبر عن هـــذه الأحداث من وجهة نظر غربية بحتة ، علنا نعثر فيها على ما يسد الفجوات التى أغفلتها المصادر الاسلامية . كما كان علينا أن نتناول

المادة الواردة في المصادر الاجنبية بشيء من التردد والحذر ، مع مقارنتها بغيرها بغية الوصول الى الحقيقة التاريخية التي يتمخض عنها البحث التاريخي السديد .

ولعل اغفال المصادر الإسلامية السنية لكثير من واقع هذه الفترة وأحداثها يعود الى الصراع المذهبي بين الشيعة والسنة ، الذى فتت العالم الإسلامي وقتذاك وأنهكه وأضعف قواه أمام العدو الصليبي الدخيل . وقد انعكس ذلك على كتابات كثير من المؤرخين لتبعيتهم لدولة من الدول أو طائفة من الطوائف ، فظهر عدم التناسق والتحيز في كتاباتهم . وأهمل البعض ذكر الحقائق المتعلقة بالدويلات المعادية ، كما قام البعض الاخر باخفاء المؤلفات التاريخية والتستر عليها لظروف سياسية أو مذهبية . والنتيجة أن تلك المؤلفات لم يقدر لها البقاء وضاع الكثير منها وما بقي لم يعطنا الصورة كاملة . ولم يعد من السهل التعرف على تاريخ هذه الدويلات والطوائف الهامة خلال تلك الشذرات القليلة المبعثرة التي وردت في ثنايا قليل من الكتب . ولكن المادة التي استقيناها لم تكن بالقدر الكافي ، ولم تساعد على تكوين فكرة واضحة متكاملة عن تاريخ العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام . ومن ثم كان علينا بذل المزيد من الجهد لملء هذه الثغرات في العلاقات بين الطرفين الصليبي والاسماعيلي بالرجوع الى مختلف المصادر والأصول من عربية وغير عربية ، معاصرة ومتأخرة زمنيا .

هذا ، وترجع أهمية العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام إلى أنها تلقي مزيدا من الضوء على فترة هامة ودقيقة في تاريخ الحركة الصليبية نفسها بصفة عامة وفي تاريخ الشام آنذاك بصفة خاصة . كما أنها تساعد على ايضاح الاثر الذى نجم عن الانشقاق المذهبي الذى نشب وقتذاك بين الشيعة والسنة مما

أدى فى وقت من الاوقات الى تصدع الجبهة الإسلامية وعدم قدرتها على الوقوف ضد القوى الصليبية المتدفقة . ولعل أبلغ دليل على ذلك أن نجاح الحملة الصليبية الأولى فى ختام القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) فى تحقيق العديد من الانتصارات فى فترة زمنية قصيرة ، كان بسبب الضعف والانقسام السياسى والمذهبى بين المسلمين آنذاك .

وقد قسمنا هذه الدراسة إلى فصول خمسة . الفصل الأول وعنوانه « الطائفة الاسماعيلية . نشأتها ، نظمها وقلاعها وشيوخها » وقد احتوى على أصل المذهب الشيعى وفرقه حيث كانت الطائفة الاسماعيلية احدى الفرق الهامة التى تمخضت عن هذا المذهب . ثم انتقلنا الى الكلام عن نشأة هذه الطائفة فى بلاد الشام ونظمها وقلاعها وتعدد أسمائها وتسمياتها كما وردت فى المصادر العربية والاجنبية كمدخل طبيعى لموضوع البحث . ثم تعرضنا للحديث عن شخصية شيخ الجبل والاصل الذى استمدت منه هذه التسمية من واقع ما جاء فى الاصول اللاتينية والفرنسية القديمة ، فضلا عن المصادر العربية .

أما الفصل الثانى وعنوانه « أوروبا والشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) » فقد تضمن أحوال هاتين المنطقتين ليكون خلفية لموضوع البحث . وأن القاء نظرة شاملة على الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى كل من الشرق والغرب وقتذاك تساعد على فهم الجو الذى مهد لنجاح دور الاسماعيلية بالشام من ناحية ، وعدم قدرة الصليبيين فى مقاومة سياسة الاغتيالية التى انتهجتها هذه الطائفة تجاههم بالشكل المجدى من ناحية أخرى وذلك بسبب انشغال الغرب الأوربى بمشاكله الخارجية والداخلية التى صرفته عن تأييد الصليبيين فى الشرق تأييدا قويا فعالا ، الامر الذى انعكس بدوره على مدى مقاومة الصليبيين للاسماعيلية .

ثم أن هذه الدراسة التمهيدية المركزة تساعد على فهم وتفسير مختلف التيارات التى بدت على مسرح الأحداث ، وموقف كل طرف من الاطراف المصارعة حيال الآخر .

وإلى جانب ما تقدم ، فقد تضمن هـــذا الفصل مرحلة انتقال طائفة الاسماعيلية إلى الشام وسيطرتها على قـلاع الدعوة بفضل عطف وتأييد بعض حكام المنطقة السنيين وأنهينا الفصل بالحديث عن أول زعيم للاسماعيلية بالشام الذى استطاع بجرأة وشجاعة أن يعلن لأول مرة فى تاريخ الطائفـة انفصاله عن شيخ الجبـل الموجود فى « الموت » انفصالا تاما مع عـدم تبعيته له متخذا من تسمية « شيخ الجبل » لقباله ، ونعنى بذلك راشد الدين سنان .

أما بالنسبة للفصل الثالث وعنوانه «موقف الحشيشية من المسلمين السنيين» فقد أشرنا فيه إلى سياسة طائفة اسمـاعيلية الشام تجاه الصليبيين واستلزم ذلك الاشارة إلى السنيين باعتبارهم طرفا أساسيا فى الصراع الدائر فى المنطقة . كما كشفنا عن العلاقات المتشابكة بين الاطراف الثلاثة فى الفترة موضوع البحث، وهم الصليبيون واسماعيلية الشام والسنيين، الأمر الذي أدى إلى استفادة الصليبيين من بعض المواقف النزاعية التى نشبت بين السنيين من جهـة والاسماعيلية بالشام من جهـة أخرى . فمثلا كان اغتيال الفداوية لبعض كبار القادة السنيين أمثـال مودود وآقسنقر البرسقى فرصة كبيرة لم يغفل الصليبيون عن انتهازها فى تحقيق أهدافهم الصليبية والعمل على زيادة نفوذهم فى المنطقة . كما كان لمحاولات الاغتيال التى تعرض لها صلاح الدين من قبل الفداوية ، ثم تفرغ السلطان الايوبى للانتقام من هذه الجمـاعة كان لكل هـذا أثره فى اعادة خطوات الوحدة الإسلامية التى كان يهدف صلاح الدين إلى تحقيقها ، والتى كانت قـد بدت بوادرها الأولى مع بـدايات القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثانى عشر الميلادى) .

والنتيجة أن هذه الأحداث شغلت السلطان قليلا عن السير بالاقاقه الإسلامية في طريقها المرسوم ، كما اتاحت الفرصة للصليبيين لتحريض الاسماعيلية للوقوف معهم ضد القوى السنية في المنطقة ، أو بكلمة أخرى لاستغلال هذا النزاع المذهبي لتحقيق مصالحهم بضرب قوة بأخرى ومناصرة أمير على آخر ، واتخاذ سياسة متقلبة غير مستقرة تتأجج بين العداء والصفاء بين الفريقين المتصارعين .

وفي الفصل الرابع وعنوانه « موقف الحشيشية من القوى الصليبية في الشام انتقلنا إلى الحديث عن الجانب الاخر من الموضوع وهو سياسة الصليبيين تجاه اسماعيلية الشام ، ثم محاولات الفداوية اغتيال كبار قادة الفرنجة مثل ريموند الثاني صاحب طرابلس سنة ١١٥٢م ، وكونراد دي مونتفرات صاحب صور وملك بيت المقدس سنة ١١٩٢م . ثم أشرنا اشارة سريعة إلى محاولات الاغتيال التي تعرض لها الصليبيون خلال القرن الثالث عشر الميلادي استكمالا لسلسلة الحديث عن هذه الاغتيالات التي تمت في القرن الثاني عشر الميلادي ، وتعزيزا وتفسيرا لسياسة فداوية الشام حيال الفرنج . وكان من ضحايا الفداوية في القرن الثالث عشر الميلادي ريموند بن بوهيموند الرابع الذي اغتيل سنة ١٢١٢م ، وفيليب دي مونتفورت صاحب صور الذي قتل على أيديهم سنة ١٢٧٠م ، وأخيرا « المحاولة الفاشلة لاغتيال الملك ادوارد الأول ملك انجلترا سنة ١٢٧١م . وبعد ذلك تعرضنا للاتصالات السلمية التي تمت بين هذه الجماعة والصليبيين ، فأشرنا إلى الاتصال الذي تم بين راشد الدين سنان والملك عوري من أجل دخول الاسماعيلية في طاعة الملك الصليبي مقابل الغاء الجزية المفروضة عليهم من قبل جماعة فرسان الداوية . وأشرنا كذلك إلى زيارة الكونت هنري صاحب شامبانيا للاراضي الاسماعيلية تدعيما لاواصر الروابط بين الطرفين ،

وتأكيدا لسياسة كل منهما حيال الاخر من ناحية ، ومواقفهما المشتركة حيال الاخر من ناحية ، ومواقفهما المشتركة حيال المسلمين السنيين من ناحية أخرى .

ونظرا لما كان للجماعتين الرهبانيتين العسكريتين الداوية والاسبتارية من ناحية ، وكذلك الجاليات الايطالية من ناحية أخرى من دور كبير فى سير الحملات الصليبية المختلفة والتأثير على مختلف المواقف والسياسات ، ونظرا لما كان بين هذه الجماعات واسماعيلية الشام من أوجه شبه - فقد خصصنا لذلك دراسة مقارنة بينها ختمنا بها هذا الفصل ، وتوصلنا إلى نتائج محددة ساعدت على تفسير مواقف وسياسات مختلف الأطراف المتصارعة .

أما الفصل الخامس والأخير من هذا المؤلف وعنوانه « تقييم العلاقات الصليبية الاسماعيلية » ، فقد تناولنا فيه العديد من القضايا والمسائل الهامة ومن بينها محاولة تقييم العلاقات بين الفريقين من وجهتي النظر المسيحية والإسلامية ، وكذلك أهمية المصادر الأدبية العربية فى توضيح هذه العلاقات. اذ كشفت عن أسباب اختلاط تاريخ اسماعيلية الشام بتاريخ كل من الصليبيين والسنيين مع بيان نتائجه والاثار المترتبة عليه . كذلك عالجنا مدى تخوف الفرنج والسنيين من الفداوية وخناجرهم ، مع تحليل وتعليل مختلف المواقف والسياسات التى اتخذتها الاطراف المتصارعة والتي كان الشرق الأدنى مسرحا لها . واختتمنا الفصل الخامس بعرض عدة تساؤلات تفرض نفسها ملحة فى طلب الاجابة عنها ، ومنها على سبيل المثال مدى ما حققته سياسة الحشيشية حيال الصليبيين وماذا يعنى زوال دولتهم فى أخريات القرن السابع الهجرى (أواخر القرن الثالث عشر الميلادى) بالنسبة للصراع الصليبى الإسلامى ، وما إلى ذلك من قضايا رأينا أن نطرحها محاولين الاجابة عنها .

وأنهينا المؤلف بخاتمة تعرضنا فيها لاستمرار الاتصالات بين اسماعيلية الشام الصليبيين خلال القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ، والتي كانت أساسا — في شكل سفارات متبادلة بين شيخ الجبل الاسماعيلى والملك لويس التاسع ملك فرنسا أثناء اقامته فى سورية ، مع بيان أهم النتائج والاستنتاجات التي أمكن التوصل اليها من وراء هذه الدراسة . ولكن مما يؤسف له أننا عندما رجعنا إلى المصادر العربية ، المعاصرة والمتأخرة زمنيا ، من مخطوطة ومطبوعة ، لم نعثر على أية وثائق عن هذه السفارات المتبادلة بين الاسماعيلية والصليبيين . ومن المرجح أن يكون المؤرخون السنيون مثل ابن واصل وسبط بن الجوزى وابو شامة وغيرهم قد غفلوا عن عمد أمرها لما كان بينهم و بين الشيعة من تناحر وعداء بغضاء ولانهم كانوا ينظرون إلى هذه الجماعة الشيعية نظرة ريبة وتوجس . كما أننا لم نستطع أن نحصل على معلومات تفصيلية عنها سوى ماسجله جوانفيل في مذكراته عن القديس لويس ، وأشارة سريعة فى كتاب المؤرخ اللاتينى روتلان لا تعدو بضعة أسطر . وبعد ذلك أشرنا إلى طبيعة العلاقات بين اسماعيلية الشام والظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكي الذى تمكن من القضاء عليهم سنة ١٢٧٣م / ٦٧١ هـ بحيث لم يصبحوا سوى شراذم مبعثرة في شتى أنحاء العالم .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن العلاقات التى كانت قائمة بين الصليبيين واسماعيلية الشام لا تعدو أكثر من اتصالات سياسية اتخذت الشكل العدائى أحيانا والشكل السلمى فى بعض الاحايين . فلم نعثر أثناء بحثنا فى بطون المصادر والمراجع على ما يفيد وجود أى نوع آخر من العلاقات بين الطرفين سواء كانت اقتصادية أو ثقافية أو غيرها . ولعل ذلك مرجعه أن هذه الطائفة الاسماعيلية لم تستند على أسس وأركان الدولة بالمعنى المفهوم من هذا

الاصطلاح ، ولم يكن معترفا بها بالنسبة للعالم الخارجى المعروف حينذاك . فلم تكن فى نظر الدول القائمة أكثر من فرقة هدامة تسعى من أجل تحقيق أهدافها ومصالحها فحسب ، وتعمل على نشر مذهبها واحلاله محل المذهب السنى بشتى السبل والوسائل مما أتاح فرصا ذهبية للعدو الصليبى الدخيل استغلها لتحقيق أطماعه . هذا وأن كانت الدول وحكامها وقتها قد عملت لها حسابا ، فلم يكن ذلك إلا خشية من نظامها القائم على الارهاب والاغتيال والفتك .

وقد فرض علينا البحث تزويده بعدد من الخرائط واللوحات الايضاحية واحدى هذه الخرائط قلاع الدعوة بالشام وخريطتان عن شمال الشام وجنوب وخريطة رابعة عن الغرب الأوروبى خلال الفترة موضوع البحث بينما تمثل احدى اللوحات شيخ الجبل كما تصوره الغربيون . واللوحتان الباقيتان لبعض قلاع الدعوة . وقد استعنا فى اعداد هذه الخرائط واللوحات بعدد من مؤلفات المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم ستيفنس رانسيمان وبول لاكروا والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، والدكتور جوزيف نسيم يوسف .

وقد ذيلنا الكتاب بثلاثة ملاحق ترتبط بالبحث ارتباطا وثيقا ، أولها عن مخطوطة عربية لم تنشر بعد ، وثانيها عن مصدر فرنسي قديم لم ينقل إلى اللغات الحديثة . وثالثها عن مصدر لاتينى معروف . وكلها تتعرض لمسائل وقضايا هامة عالجناها فى صلب الموضوع . ورأينا أن نثبت النصوص المتعلقة بها فى الملاحق الثلاثة بدقائقها وتفاصيلها ، لما تضمنه من معلومات قيمة تعرضناها فى صلب الموضوع . وبآخر البحث قائمة بأسماء المصادر والمراجع من عربية وأجنبية ، خطية ومطبوعة ، وهى التى اعتمدنا عليها واستقينا منها مادتنا التاريخية.

د. اسامه زكي زيد

تصدير

عرض وتحليل لمصادر الكتاب

- المصادر الاوروبية المعاصرة
- المصادر العربية المعاصرة
- المراجع الثانوية الاوروبية
- المراجع الثانوية العربية

يكتنف تاريخ العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام أثنـــاء العدوان الصليبي على العالم الاسلامي بعامة ، وخلال القرن الثاني عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) بخاصة ، كثير من الغموض واللبس والابهام ، فضلا عن وجود العديد من الفجوات التي أهملتها المصادر التاريخية . ويرجع السبب في ذلك أنه لا توجد للحشيشية كتب مستقلة منفصلة على نسق الحوليات التي سجلها مؤرخوا المسلمين السنيين في مصر وفي غيرها من البلدان فقد اندثر الجانب الأكبر من كتبهم وتآليفهم ولم يعد له وجود . ولعل ذلك يرجع إلى العصور التالية التي قضت على ما يمت للشيعة بصلة . فضلا عن سياسة السرية والتكتم التي اتبعها الاسماعيلية بالشام بالنسبة لاتصالاتهم وعلاقاتهم بجيرانهم من صليبيين وسنيين الأمر الذى لم يسمح بتسجيلها في مؤلفات مدونة حرصا على سريتها وعدم افتضاحها . وعلى هذا فكل ما هنالك نتف وشذرات مبعثرة في شتى الأصول والمراجع من عربية وغير عربية لاتشفى غليل الباحث في هذه الناحية ثم أنه يشوب هذه المعلومات المتناثرة هنا وهناك التناقض والابهام ، وبها فجوات عديدة لاتسمح بسرد منظم متصل لتاريخ العلاقات الصليبية الاسماعيلية خلال الفترة موضوع البحث . وان كان هذا لا يمنع من القول بأن المصادر العربية والأجنبية التي رجعنا اليها والتي لايزال بعضها بلغته الاصلية التي دون بها ، اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، قد أفادتنا فائدة كبرى في سد الفجوات الناقصة في المصادر العربية بحيث يبدو التناسق والانسجام في الرسالة على امتدادها .

وأهم هذه المصادر التي اعتمدنا عليها وأفدنا منها كتاب وليم الصورى [1]

---

(١) ولد وليم الصورى في بيت المقدس حوالي سنة ١١٣٠م . وكان يتقن كثيرا =

المعروف باسم « الأعمال التي انجزت في بلاد ما وراء البحر » . وقد وضعه المؤلف أصلا باللغة اللاتينية تحت اسم « Historia Rerum in partihus Transmarinis Gastarun » ويتميز هذا المصدر المعاصر بأهميته الفائقة فيما نحن بصدده إذ يعتبر صاحبه مؤرخا معاصرا للاحداث الهامة المتصلة بالعلاقات الصليبية الاسماعيلية فى القرن الثانى عشر الميلادى . وقد أمدنا بكثير من المعلومات التى أغفلتها المصادر الاخرى سواء كانت عربية أم أجنبية ، مثل حادثة اغتيال فرسان الداوية لرسول شيخ الجبل الموفد إلى الملك الصليبي عمورى ، تلك الحادثة التى تركت أعمق الأثر على طبيعة العلاقات بين الصليبيين والاسماعيلية خلال الفترة موضوع البحث .

وهناك مصدر آخر هام يأتي بعد كتاب وليم الصورى هو حولية ميخائيل السريانى ويوجد مقتطفات منها فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية تحت اسم : « Extrait de la Chronipue de Syriem » ولكنه لم يكثر من الاشارة الي اسماعيلية الشام ودعوتهم وعلاقاتهم بالصليبيين خلال الفترة التي

— من اللغات مثل اللاتينية والفرنسية والعربية ، فضلا عن المامه بالفارسية والعبرية واليونانية . ولقد بدأ حياته بالعمل فى السلك الكنسى ، وكان تابعا لرئيس أساقفة صور . ودخل فى خدمة الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ — ١١٧٣ م) الذى عينه رئيسا لشمامسة كنيسة صور وكلفه بكتابة تاريخه وقام الاستاذ الدكتور عمر كمال توفيق بعمل دراسة تحليلية من هذا المؤرخ وكتاباته . لمزيد من التفاصيل انظر عمر كمال توفيق " المؤرخ وليم الصورى ، مقال بمجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية — المجلد ٢١ لسنة ١٩٦٧ ص ١٨١ — ٣٠٠ انظر كذلك :

Gaston Histoire de Institution Monarchiques dans le Royaume Latin de Jerusalem (1091 - 190) pp. 3 - 4 .

عاصرها ، فضلا عن أن اشاراته لهـذه العـلاقات كانت تتسم بالتركيز الشديد فمثلا عندما تعرض للمعركة التى تمت بين الحشيشية والصليبيين من جانب وبين القوى السنية بزعامة نور الدين محمود من جانب آخر والتى انتهت بانتصار السنيين لم يبرز لنا ملامح المعركة بشكل تفصيلى يشبع غليـل الباحث وانما اقتصر على ذكرها فى اشارات سريعة . كما أنه اتبع نفس الموقف عندما وصف المحاولة الفاشلة التى دبرت من جانب الفداوية لاغتيال صلاح الدين أثناء حصاره قلعة عزاز .

كذلك يعتبر تاريخ هرقل Eracles (١) من المصادر الرئيسية التى يعتمد عليها . فرغم أنه متأخر زمنيا عن الفترة موضوع البحث إلا أنه من الضرورى الرجوع اليه والإفادة منه باعتباره مصدر ثقة وردت فيه تفصيلات ومعلومات قيمة لم ترد فى كثير من المصادر الأخرى . فمثلا نراه يتناول حادثة اغتيال المركيز كونراد دي مونتفرات عام ١١٩٢ م / ٥٨٨ ه بأيدى اثنين من الفداوية فى شىء من التفصيل بينما مرت المصادر الأخرى مر الكرام على هذه الواقعة .

وهناك مصدر آخر اطلعنا عليه وهو تاريخ روتلان Rothelin وهو وان

---

(١) منشور باللغة الفرنسية القديمة فى « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية » وهو مكمل لتاريخ وليم الصورى ، ولم يعرف مؤرخه . ولقد قام أحد رجال الملك الفرنسى لويس التاسع فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بترجمة كتاب وليم الصورى وأضاف اليه ذيلا تناول الفترة الممتدة من سنة ١١٨٤ حتى سنة ١٢٧٧ م وسماها باسم « تاريخ هرقل » لأن أول كلمة افتتح بها الكتاب « الامبراطور هرقل » وللمزيد من التفاصيل انظر :

Runciman, A History of the Crusades, t.I,p. 477, III, p. 482,

كان متأخرا زمنيا الا أنه قد غطى حوادث الفترة الممتدة من سنة ١٢١٩ م الى سنة ١٢٦١ م ، وقد أفادنا ذلك كثيرا فى خاتمة الموضوع . ورغم انه كان معاصرا لبعض الأحداث التى تمس العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام خلال تلك الفترة الا أنه لم يتناولها بالتفصيل والتحليل ، بل اكتفى بذكر اشارات سريعة شديدة التركيز عنها . وقد لمسنا هذا أثناء تعرضه لسفارة شيخ الجبل الى القديس لويس التاسع سنة ١٢٥٠ م فلم يسهب فى ذكر تفاصيلها مثلما تعرض لها جوانفيل مثلا . وكلاهما كان معاصرا لتلك الفترة .

والى جانب المصادر التى أسلفنا اليها ، يوجد كتاب باسم «زهور التاريخ» Flowers of History للكاتب روجرز صاحب وندوفر Roger of Wendover (١) وقد تضمن سردا للحوادث الواقعة فيما بين عامى ٤٧٧ و ١٢٣٥م. ورغم انه تعرض للفترة موضوع البحث فى أسطر قليلة لاتشفى غلة الباحث إلا أن هذه الأسطر تتميز بقيمتها التاريخية التى لاتنكر فضلا عن أنه أمدنا بصورة خطاب هام مرسل من شيخ الجبل فى بلاد الشام إلى كل من أمبراطور ألمانيا ودوق النمسا يثبت فيه براءة الملك رتشارد قلب الاسد من

(١) ينسب الى مدينة وندوفر احدى مدن مقاطعة باكنجهام بانجلترا . وكان يشغل وظيفة مرتل فى أحد الأديره ، وأخذ يتنقل فى مناصب السلك الكنسي حتى وصل الي منصب رئيس دير بلفدار الملحق بدير سانت البينى Albeney ، وكان ذلك فى عصر الملك حنا ملك انجلترا (١١٩٩ ــ ١٢١٦ م) ، ومات روجر سنة ١٢٢٧م . وينقسم كتابه الي ثلاثة أقسام : الأول يبدأ بالخليقة ويستمر حتى سنة ٤٤٧ ، والثانى ينتهى بسنة ١٢٠٠ م ، والثالث ينتهي حوادثه بسنة ١٢٣٥ م أنظر:

Roger of Wendover, Flowers of History, t. 1, pp. V-VII,

تهمة التحريض على قتل المركيز اللاتيني كونراد دي مونتفرات . وإن كنا قد أخذنا ماجاء فى هذا الخطاب بشيء من الحذر ، لأنه المصدر الوحيد الذى أنفرد بذكر الواقعة المذكورة . فضلا عن أنه لم يرد فى أى مصدر أخر سواء كان أجنبياً أم عربيا معاصرا أم غير معاصر مايؤيد وجود الخطاب المشار اليه .

وهناك مصدر أخر هام أخذنا منه وهو كتاب جان دى جوانفيل (١) عن حملة القديس لويس التاسع على مصر والشام وهو مدون أصلا باللغة الفرنسية القديمة وقد قام الاستاذ الدكتور حسن حبشي بنقله إلى اللغة العربية ورغم أن هذا المصدر متأخر زمنيا عن الفترة موضوع البحث ، ورغم أننا لم نستفد منه إلا فى خاتمة الموضوع إلا أن له أهمية خاصة بأعتبار أن مؤلفه شاهد عيان للاتصالات التى تمت بين الصليبيين وأسماعيلية الشام أيام أقامة الملك لويس التاسع فى بلاد الشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) . ثم أنه تضمن معلومات هامة أفدنا منها كثيرا فيما يتعلق بعادات وتقاليد أسماعيلية الشام وطبيعة علاقاتهم بالصليبيين لم يرد ذكرها فى أي مصدر أخر .

ونضيف الي هذه المصادر كتاب هام للكاتب الانجليزى متى صاحب

---

(١) ولد حوالى عام ١٢٢٤ م ، وكان أحد فرسان الملك الفرنسى لويس التاسع أثناء حملته على مصر والشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى . وللمزيد من المعلومات عن جوانفيل وكتابه ، انظر جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على الشام ص ٢ - ١٦ ، حسن حبشي: القديس لويس - حملاته على مصر والشام ص ٤ - ٥

توجد مقتطفات منها فى « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الوثائق الارمينية » ورغم أنه لم يكثر من الاشارة الى اسماعيلية الشام ودعوتهم وعلاقاتهم بالصليبيين إلا أننا أحيانا نجده ينفرد برأى خاص له أهميته فى معالجة أحدى النقاط المتعلقة بالموضوع فنراه مثلا قد أرجع أغتيال مودود بأيدى الفداوية الى محاولة أغراء طغتكين أتابك دمشق لأحد المسجونين عنده وذلك مقابل أعطائه قدرا من المال ، فضلا عن العفو عنه مقابل أنقضاضه عليه . وقد تقبلنا هذا الرأى بشىء من التحفظ والحذر . ولاحظنا على هذا المؤرخ أنه لم يتعرض ، ولو فى لمحات سريعة ، لمراحل انتقال الاسماعيلية إلى الشام وبدء نشاطهم به وموقف كل من السنيين والصليبيين حيال هذه الطائفة وليس معنى هذا أننا نقلل من قيمة المصدر المذكور فهو يعد بالرغم من ذلك من المصادر الهامة .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام بعض المصادر الاجنبية الاخرى التى رجعنا اليها وأفدنا منها فى جوانب مختلفة من البحث يبدو أثرها جليا فى ثنايا الكتاب ، مثل مؤلف امبرواز Ambroise صاحب كتاب « حملة رتشارد قلب الأسد الصليبية » ويبدو أن عاطفته نحو جنسيته الانجليزية قد تغلبت على كتاباته ، فمثلا نراه يتجنب ذكر الاتهام الموجه الى الملك الانجليزى رتشارد فى التحريض على مقتل كونراد سنة ١١٩٢م / ٥٨٨ هـ ، ولم يتعرض له سواء بالنفى أو بالايجاب .

وهناك أيضا المؤلف المعروف باسم « حوليات الاراضى المقدسة » الذى تناول الفترة الممتدة من سنة ١٠٩٥م حتى سنة ١٢٩١ م وقد قام بنشره كل من رهرشت Rohricht ورينوه Rainaud ، وكذلك كتاب بروكاردوس

توجد مقتطفات منها فى « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الوثائق الارمينية »
ورغم أنه لم يكثر من الاشارة الى اسماعيلية الشام ودعوتهم وعلاقاتهم
بالصليبيين إلا أننا أحيانا نجده ينفرد برأى خاص له أهميته فى معالجة
أحدى النقاط المتعلقة بالموضوع فنراه مثلا قد أرجع أغتيال مودود بأيدي
الفداوية الى محاولة أغراء طغتكين أتابك دمشق لأحد المسجونين عنده وذلك
مقابل أعطائه قدرا من المال ، فضلا عن العفو عنه مقابل أنقضاضه عليه .
وقد تقبلنا هذا الرأى بشىء من التحفظ والحذر . ولاحظنا على هذا المؤرخ
أنه لم يتعرض ، ولو فى لمحات سريعة ، لمراحل انتقال الاسماعيلية إلى الشام
وبدء نشاطهم به وموقف كل من السنيين والصليبيين حيال هذه الطائفة وليس
معنى هذا أننا نقلل من قيمة المصدر المذكور فهو يعد بالرغم من ذلك من
المصادر الهامة .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام بعض المصادر الاجنبية الاخرى التى
رجعنا اليها وأفدنا منها فى جوانب مختلفة من البحث يبدو أثرها جليا فى ثنايا
الكتاب ، مثل مؤلف امبرواز Ambroise صاحب كتاب « حملة رتشارد قلب
الأسد الصليبية » ويبدو أن عاطفته نحو جنسيته الانجليزية قد تغلبت على
كتاباته ، فمثلا نراه يتجنب ذكر الاتهام الموجه الى الملك الانجليزى رتشارد
فى التحريض على مقتل كونراد سنة ١١٩٢م / ٥٨٨ هـ ، ولم يتعرض له سواء
بالنفى أو بالايجاب .

وهناك أيضا المؤلف المعروف باسم « حوليات الاراضى المقدسة » الذى
تناول الفترة الممتدة من سنة ١٠٩٥م حتى سنة ١٢٩١ م وقد قام بنشره كل من
رهرشت Rohricht ورينوه Rainaud ، وكذلك كتاب بروكاردوس

Brocardus المسمى « Directorium ad Passagium Faciendum » وهيثوم الارميني Hethoum صاحب كتاب «الجدول الزمني» Table Chronologique ويضاف إلى ما تقدم كتاب فيلكس فابري (١) Felix Fabri المعنون The Book of wondering الذي ينتهي بحوادث سنة ١٤٨٣ . والى جانب فيلكس فابري يوجد عدد اخر من الرحالة اللاتين الذين زاروا المنطقة ودونوا مشاهداتهم وملاحظاتهم في كتب ومؤلفات لاتزال باقية الى اليوم تزود الباحث بقدر لابأس به من المعلومات التي تتصل بموضوع البحث . ومن هؤلاء بيركارد من جبل صهيون (٢) Burchard of Mount Sion وماريتوسانوتو (٣)

---

(١) هو أحد أفراد جماعة الدومنيكان ، عاش في القرن الخامس عشر الميلادي وذهب الى الاراضي المقدسة مرتين آخرهما فيما بين عامي ١٤٨٠ ـ ١٤٨٣ م . وكان قد وضع كتابه سنة ١٤٨٤ م وفاء لوعد كان قد اتخذه على نفسه أمام أحد أصدقائه . وللمزيد من التفاصيل انظر :

Fabri, The Book of Wondering, t. I, part I p I.

(٢) الماني الاصل عاش في القرن الثالث عشر الميلادي . وزار مصر وسورية ودون مشاهداته عام ١٢٨٠ م . ويرى البعض أنه مكث حوالي عشرة سنوات في الاراضي المقدسة ، والحقيقة أنه لم يمكث سوى سنتين ، انظر عن ذلك:

Burchard, A Description of the Holy Land, pp, III-IV.

(٣) يطلق عليه أحيانا مارينو سانودو Marino Saund وهو ينتمي الى احدى العائلات الشريفة في البندقية وقد سجل مشاهداته اعتبارا من أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حتى سنة ١٣٢١ م وذلك بعد زيارته المشرق.

Marino Sanuto, Secrets for the Crusades to Help them to Recover the Holy Land, pp. III-IV.

Marino Sanuto والرحالة البنـدقى ماركو بولو (١) الذى زار الشام بين عامى ١١٧٠ – ١٢٧١م وقد تعرض لنظم الاسماعيلية وأشار الى الجنة التى ابتدعها الحسن بن الصباح ، وكيفية اغراء الفداوية والسيطرة عليهم بحيث يجعلهم كبيرهم أو مقدمهم يتنافسون من أجل طاعته والعمل على مرضاته .

وثمة مسألة جديرة بالتسجيل عند استعراض الأصول الاوروبية المعاصرة واللاحقة على الفترة موضوع البحث ، هى أن المؤرخين المسيحيين مـن لاتين وأرمن وغيرهم كانوا على المام لا بأس به بأحوال العالم الاسلامى آنذاك . بل لقد انفرد بعضهم أحيانا بذكر أحداث غفلت عن ذكرها المراجع العربية على الرغم من أهميتها بالنسبة للعلاقات الصليبية الاسماعيلية ومـن ذلك محاولة اتصال راشد الدين سنان بالملك عمـورى من أجـل تدعيم روابط الصلة بين الطرفين تحقيقا لمصالحها المشتركة ضد العـالم السنى ، وكذلك خطابات شيخ الجبل إلى ملوك أوروبا ودوق النمسا من أجل تبرئة الملك الانجليزى رتشارد قلب الأسد من تهمة التحريض على اغتيال كونراد دى مونتفرات ، والسفارات المتبادلة بين لويس التاسع وشيخ الجبل ، وما الى ذلك من بيانات ومعلومات تخدم ناحية من نواحى البحث وتسد الكثير من الفجوات والثغرات فيه .

وليس معنى هذا أن المصادر العربية من معاصرة وغير معاصرة تعتبر ثانوية بالنسبة لنا . لمن الانصاف القول بأن فيها مادة ممتازة فيما يتعلق بأحوال الشرق الأدنى الاسلامى آنذاك وتطور العلاقات بين اسماعيلية الشام والمسلمين

(١) ولد سنة ١٢٥٤ م في البندقية وهو ينتمى الى احدي العائلات الشريفة بها . وكان منذ صغره شغوفا بحب المغامرات وقد زار عدة بلاد ودون مشاهداته عنها فى رحلاته وللمزيد من التفاصيل انظر :

Traveles of Marco – Polo, pp. VII-XIII.

السنيين من ناحية و بين كل من الصليبيين وأسماعيلية الشام والسنيين من ناحية أخرى . وقد استعنا على بحث هذه النواحى بعدد غير قليل من المخطوطات التى لم تر النور حتى الآن . هذا عدا المصادر الاخرى المطبوعة .

وجدير بالذكر أنه رغم تعدد المصادر العربية التى تحدثت عن موضوع البحث سواء كان ذلك فى لمحات سريعة أو بشيء من التفصيل ، الا أننا فى كثير من الاحيان لم نخرج منها الا بصورة واحدة تكاد لاتتغير هى الصورة التى رسمها المصدر الاصلى الذى نقلت عنه باقى المصادر الاخرى ولعل السبب فى ذلك مادرج عليه المؤرخون العرب من أخذ الواحد منهم عمن سبقه أخذا قد يكون حرفيا فى كثير من الأحيان . وإن كان هذا مما يؤخذ على تلك المصادر إلا أنها كانت ذات فائدة كبرى فيما يتعلق بحفظ كثير من النصوص الهامة التى لم يعثر عليها فى مصادرها الاصلية . فكثير ماوردت فى بعض هذه المصادر المتأخرة زمنيا عن الفترة موضوع البحث معلومات وشذرات متناثرة هنا وهناك لم ترد فى المصادر الأصلية نفسها . ولعلها تكون قد نقلت عن كتب قديمة اندثرت فحفظتها لنا هذه المصادر من الضياع .

وإلى جانب هذا ، فقد لاحظنا قلة الحقائق والمعلومات التى وردت فى المصادر والمراجع العربية ، ولعل السبب فى ذلك فضلا عن عملية النقل عن السابقين ، يرجع الى تكتم الإسماعيلية عن نواياهم وأغراضهم وحرصهم التام على ألا يبدو من سلوكهم مايدل على حقيقة تلك النوايا والأغراض . ولهذا لم يجد الدارسون والباحثون المحدثون بدا من أن يقتصروا فى كتاباتهم على ذلك السلوك الظاهرى دون أن يحاولوا تفسيره وبيان السر فيه .

ومن أهم مخطوطات القرن الثانى عشر الميلادى التى رجعنا اليها ، مؤلفات

عماد الدين محمد بن حامد الاصفهاني (١) . ومن أهم مصنفاته في التاريخ « البستان الجامع لتواريخ أهل زمان » ، وهو عبارة عن كتاب موجز في التاريخ العام لم ينشر بعد تنتهي حوادثه بسنة وفاته ولم يتعرض هذا المؤلف لأحوال الاسماعيلية بالشام إلا في سطور قليلة ، مثل مؤامرة عمارة اليمنى ضد السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر عقب قضائه على الدولة الفاطمية ، ثم محاولة اغتيال السلطان على أيدي الفداوية أثناء حصاره عزاز وكان وصفه في كلتا الحادثتين شديد الاقتضاب ومع ذلك أفدنا من أجزاء كثيرة من المخطوط ، وبخاصة عند استعراض الأحوال السائدة على مسرح الأحداث خلال الفترة موضوع البحث . أما الكتاب الثاني وهو « نصرة الفطرة وعصرة الفطرة » وهو نسخة مصورة لم تنشر بعد . ورغم أنه اقتصر على تاريخ السلاجقة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، إلا أنه لم يتعرض للاحتكاكات التي تمت بينهم وبين طائفة الاسماعيلية سواء كانوا في قلعة الموت قبل انتقال نشاطهم الى الشام أو في قلاع الدعوة بالشام أيام مجدهم في عهد الملك رضوان . وكان كل ما أشار اليه عن أخبار هذه الطائفة هو محاولة اغتيال الوزير السلجوقي نظام الملك على يد الفداوية . أما الكتاب الثالث فهو

---

(١) ولد سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م . دخل في خدمة نور الدين محمود في ديوان الانشاء وإذ مات نور الدين سافر الى حلب . وعندما بلغه وصول صلاح الدين دمشق وأخذها عاد الى الشام وصلاح الدين على حلب فمدحه ولزم ركابه الى أن استكتبه ومال اليه وطالعه على سره وكان يضاهي الوزراء . وبعدما توفى صلاح الدين اختلت أحواله ولم يجد في وجهه بابا مفتوحا فلزم بيته الى أن توفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م انظر : الصفدي الوافي بالوفيات ص ١٣٢ — ١٤٠ ، العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبيح ص ١٧ — ٣٧ .

« الفتح القسى فى الفتح القدسى » وهو منشور وقام بتحقيقه محمد محمود صبيح وبالنسبة للمؤلف الرابع له فهو « تاريخ دولة آل سلجوق » وهو عمل مطبوع ولا نجد من خلال سطوره إلا تعريفا عاما للطائفة الاسماعيلية دون التعرض لعلاقاتها مع الأطراف المعنية التى كانت موجودة وقتذاك . ومن بين ما نشر من مراجع هذا العهد « الملل والنحل » للشهرشتانى (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) وهو كتاب عظيم الفائدة خدم موضوع البحث عند التعرض لنشأة طائفة اسماعيلية الشام فى الفصل الأول من هذا البحث ، و « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ /١١٦٠م) وهو يعتبر مرجعا أصليا فى تاريخ الشرق الادنى منذ بداية القرن السادس الهجرى ، ويمتد الكتاب حتى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م متخذا من مدينة دمشق محورا للحوادث . وقد القى أبن القلانس الضوء على تاريخ اسماعيلية الشام ولكن دون أسهاب إذ إقتصر على لمحات سريعة مركزة وربما لو طالت به الحياة لاوضح لنا تفاصيل كثيرة عن طبيعة العلاقات التى تمت بين الصليبيين و اسماعيلية الشام ، الأمر الذى يسمح بالقاء المزيد من الضوء على العديد من قضايا البحث ومشاكله .

وهناك أيضا كتاب « الاعتبار » لابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م)الذى كان على صلة وثيقة بمختلف القوى فى الشرق الأدنى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكنه مع ذلك لم يذكر شيئا عن المدى الذى وصلت الية العلاقات السيئة بين صلاح الدين واسماعيلية الشام بزعامة مقدمهم سنان . وقد قصر كتابه على ذكرياته ومشاهداته فى الشام خلال تلك الفترة من الزمن وبخاصة فى النواحي الحربية والاجتماعية . والى جانب هذا الكتاب يوجد كتاب « تلبيس أبليس » لابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٢م) وهو مؤرخ آخر غير صاحب كتاب « مرآة الزمان » .

ومن بين المخطوطات التى ترجع الى القرن الثالث عشر الميلادى (القـرن السابع الهجرى) والتى استعنا بها مخطوطة « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » و « بغية الطلب فى تاريخ حلب » لابن العديم (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) وهما نسختان مصورتان لم ينشر منها سوى الجزء الأول من المخطـوطة الأولى . ولقد أفـدنا من المخطـوطة الأولى فيما يتعلق بالأحداث التاريخية التى توضح العلاقة بين الاسماعيلية والسنيين فى ذلك الوقت باعتبارهم طرفا معاديا للقـوى الصليبية الموجودة فى المنطقة . ومن بين مانشر من مراجع هذا العهد كتاب « الكامل فى التاريخ » لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٤ م)[1] . وقد تعرض للحوادث الخاصة باسماعيلية الشام من خلال تدوينه العام للحـوادث التاريخية على امتداد الكتاب . ولو كان زودنا بتفصيلات عديدة عن أخبار هذه الطائفة لكشف الكثير من خبايا البحث . فهو لايذكر إلا قشور الحوادث . دون الخوض فى تفاصيلها . فضلا عن أنه كان متحاملا بعض الشىء على صلاح الدين فنراه يوجه اليه أصابع الاتهام فى تحريض الفـداوية على اغتيال كل من المركيز كونراد دى مونتفرات وريتشارد قلب الأسد ولكننا تقبلنا هذا الرأى بشىء من الحيطة والحذر لأن ذلك يتنافى مع سياسة صلاح الدين وأخـلاقه فضلا عن ان المصادر والمراجع الأخرى قد أوضحت لنـا بـأن السلطـان صلاح الدين لم يسر بأغتيال المركيز لأن مجرد وجود العـداء بين الملك

---

(١) هو أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب بعز الدين والمعروف بابن الاثير، ولد سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م فى الجزيرة ، ونشأ بها ثم سار الى الموصل واستقر بها وكان اماما فى حفظ القرآن والحديث وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وتـوفى ٦٣٠ هـ / ١٢٢٤ م سن ٧٥ سنة أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

رتشارد قلب الأسد والمركيز كان يعمل على أضعاف شأن الصليبين وتفكك قواهم الأمر الذى يسهل عليه الاستفادة من وراء ذلك وتوجيه الضربة للفرنج ويتضح ذلك جليا عند تعرضنا لتلك الحادثة فى الفصل الرابع من هذا المكان .

وإلى جانب ابن الأثير ، يقف ابن شداد (١) (ت ٦٣٢ ﻫ / ١٢٣٦ م) صاحب كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ونلاحظ أن مؤلفه مختصر للغاية ولم يتوسع فيه فى ذكر أية تفصيلات لأي حادثة تتعلق بالفترة موضوع البحث ، بل أكتفى بالمرور على أحداث تلك الفترة مراً سريعا دون الخوض فى تفاصيلها . ونجد مثلا لذلك فى حادثة وثوب الاسماعيلية على السلطان صلاح الدين أثناء حصاره حلب وعزاز وكنا نتوقع أن يقف أمامها وقفة طويلة ولكنه أكتفى بذكرها دون أن يخوض فى تفاصيل موقف الصليبين حيالها ، وعما إذا كانت لهم يداً فى التحريض على مقتله من عدمه . ونراه يكتفى أيضاً بملء الصفحات الأولى من الكتاب بالكلام عن أخلاق السلطان وتدينه وشخصيته وما إلى ذلك من بيانات . وقد قسم ابن شداد كتابه إلى قسمين : الأول يختص بمولد السلطان ونشأته وخصائصه وأوصافه وأخلاقه . والثانى تناول فيه تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحاته وجهاده ضد الفرنج وتواريخ ذلك إلى آخر حياته .

---

(١) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الاسدى المعروف بابن شداد الملقب بهاء الدين الفقيه الشافعى . ولد فى الموصل سنة ٥٣٩ ﻫ / ١١٤٥ م ونشأ نشأة دينية ، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م وولاه قاضيا عليها سنة ٥٩١ﻫ /١١٩٥ م وتوفى سنة ٦٣٢ ﻫ / ١٢٣٦ م ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٢٦ - ٥٣٦ .

أما سبط بن الجوزى (١) (ت ٦٥٢ هـ / ١٢٥٧ م) صاحب كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيـان » فقد قامت حكومة الهند بنشر الجزء الثامـــن ورغـم أن هـــذا المؤرخ يعتبر ناقـلا عمن سبقوه من المؤرخين ، ورغم أن درايته بالأحـداث التى كانت واقعة على مسرح الاحـداث وقتذاك ، إلا انه كان بخيلا فى عرض الحقائق ونوع العـــلاقات التى ربطت بين الصليبيين والاسماعيلية الشام. فلم يتعرض مثلا للسفارات المتبادلة بين الملك لويس وشيخ الجبل الأسماعيلى رغم أنه كان معاصراً له .

وهنـاك أيضا كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » للمؤرخ أبى شامة (٢) . (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) . وقد أمتاز هـذا الكتاب بـأنه تضمن الكثير من المقتطفات الكاملة لكتـاب « كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين

---

(١) هو سبط شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاوغلى ، ولد سنة ٥٢٨ هـ / ١١٨٦ م فى بغداد وكان أبوه عبدا تركيا . ودرس فى مسقط رأسه وأصبح مدرسا وكاتبا بدمشق وتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٥٧ م . وكتابه يبدأ من الخليقة وينتهى بسنة ١٢٥٦ م انظر : ابن تغرى بردي : المنهل الصاق والمستوفى بعد الوافى جـ٥ ورقة ٥٩١ ، جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على الشام ص ٣٤ حاشية ١ .

(٢) هو عبد الرحمن بن ابراهيم بن عثمان بن محمد المقدسى والمعروف بأبى شامه لوجود شامه على حاجبه الايسر . ولد بدمشق سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م وتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م زار بيت المقدس سـنة ٦٢٤ هـ وله عدة مؤلفات أهمها «الروضتين فى أخبار الدولتين و « الذيل على الروضتين » وقد نشره الاستاذ عزت العطـار تحت اسم « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » انظر الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٥٢٧ — ٥٢٨ ؛ السبكى : طبقات الشافعيـة جـ ٥ ص ٦١ — ٦٢ .

لابن أبي طي الذي فقد ولم يصلنا . رلولاهـا لما تمكنـا من الوقوف على آرائه وتفسيرها وتحليلها بعد الموازنة والمقارنه بينهـا وبين الآراء التي وردت في المصادر الأخرى ، وخاصة أن النص الأصلي مفقود ولم يعثر عليه حتى الان . ففي الوقت الذي أورد أبي شامة حصار صـلاح الدين لمصياف ثم أنسحابه من أمام أسوارها نتيجه لشفاعة خاله شهاب الدين محمود لديه نراه يذكر نقـلا عن ابن أبي طي أن الدواعي التي جعلت صلاح الدين يعقـد صلحها مع شيخ الجبل راشد الدين سنان هو تخوفه من هياج الفرنج في الشام الاعلى وهو بعيد عنه . وممـا هو جدير بالذكر أن أبا شامه يتهم ابن أبي طي بأنه متحيز للشيعة ومتعصب ضد نور الدين محمود السنى . والواقع أن كلام ابن أبي طي لا يستشف منه هـذا المعنى وإلا لكان قد تعصب ضد صلاح الدين أيضا وهو الذى قضى على المذهب الشيعى في مصر بقضائه على الخلافة الفاطمية بها ، كما أحرق المكتبة الاسماعيلية وشرد الاسماعيليون الموجودون بالقـاهرة . ولقد أشار أبو شامه في مواضع كثيرة من الكتـاب في شيء من التفصيل إلى عـلاقة السلطان بالحشيشة ومدى الكرة الذى كانت تكنه له هذه الطائفة ومدى أستغلال الصليبيين لذلك الموقف .

ولا يمكننا أستعراض المصـادر العربية دون ذكر ابن خـلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) [١] وكتابه « وفيات الأعيان » فهو من المصادر

---

(١) هو أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد المعروف بأبي خلكان . ولد سنة ٦١٨ هـ/١٢٢١ م ، تفقه بالموصل وتولى قضاء الشام سبع سنوات ثم عزل عنها ولـكنه عاد الى ذات المنصب بعد سبع سنوات أخرى ، ولمزيد من التفاصيل انظر الكتبي : فوات الوفيات جـ ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، مقدمة وفيات الاعيان جـ ١ ص ٤ ـ ١٦

الهامة التى رجعنا اليها وقد جاء فى ثناياه ترجمة سيرة بعض رجال القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) . والمعروف أنه أعتمد فى ذلك على ما كتبه الاخرين من قبله أو ما سمعه هو بنفسه ممن عاصر تلك الاحداث ، ومن أهمهم نور الدين محمود . إذ أفادنا فى إيضاح بعض الجوانب الغامضة في العلاقات التى نشأت بينه وبين زعيم الاسماعيلية بالشام راشد الدين سنان ومما يذكر أن تلك المعلومات التى ذودنا بها غفلت عن ذكرها كثير من المصادر الأخرى سواء كانت معاصرة أو متأخرة زمنيا ، ونذكر على سبيل المثال خطابات التهديد التى تناولها كل من صلاح الدين وسنان والتى تعرضنا لها بالتفصيل فى ثنايا الكتاب ومع ذلك فقد بخل علينا ابن خلكان عندما مر مر الكرام على الكثير من الوقائع والاحداث التى تعتبر أساسية فى صلب العلاقات الصليبية الاسماعيلية . فمثلا لم يتعرض لتلك الحملة التى وقف فيها كل من أسماعيلية الشام بزعامة أبى الوفا والصليبيين بقيادة ريموند الاول صاحب طرابلس ضد نور الدين محمود والتى أنتصر فيها الاخير بعد أن قضى على أعدائه . ووقف ابن خلكان نفس الموقف عندما تحدث عن سيرة صلاح الدين فرغم وجود الكرة الشديد بين هذا السلطان وراشد الدين سنان ومحاولة الاخير التخلص منه مرتين ، إلا أنه لم يكلف نفسه حتى بالاشارة إلى ذلك خاصة وأن مثل هذه المحاولة تعتبر صفحة هامة في تاريخ صلاح الدين . والدليل على ذلك أنه لم يتعرض لترجمة راشد الدين سنان الذى ذاع صيته وأشتهر أسمه ولم يكن مؤرخو العصر يجهلونه وكانوا

يعرفون تماما الدور الذى قام به فى تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة ، وفى التاريخ الاسلامى الوسيط بصفة خاصة .

ونختتم هذه المجموعة من المؤرخين العرب بابن واصل (١) المتوفى فى أخريات القرن السابع الهجرى (أواخر القرن الثالث عشر الميلادى) . وقد ورد فى ثنايا كتابه المنشور تحت اسم « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » وقائع واحداث هامة عن تاريخ أسرة ايوبية الشام وكذلك الصلة التى كانت قائمة بينها وبين السنيين والآثار التى ترتبت على ذلك بالنسبة للصليبيين وقد أمتاز هذا الكتاب بأنه تاريخ كامل لدولة بنى أيوب فى مصر والشام ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن ابن واصل مر مروراً سريعاً على الكثير من الاحداث التى كان يجب أن يقف عندها لاهميتها التاريخية بالنسبة للاتصالات الصليبية الاسماعيلية فى المنطقة ، خاصة وأنه تعرض لوقائع وأحداث أقل أهمية . وكنا نتوقع أن يفيض فى تفاصيل ظروف حصار السلطان صلاح الدين لقلعة مصياف ولكنه أغفلها دون سبب واضح .

---

(١) هو جمال الدين أبو عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضى حماه . ولد عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وطاف فى بلدان الشرق الادنى الكبرى وعواصمه وخاصة دمشق وبيت المقدس وحلب وبغداد ومكة والقاهرة . وتم نشر كتابه «مفرج الكروب» فى خمسة أجزاء قام بتحقيق الثلاثة أجزاء الاولى منه الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيال وقد انتهى فيه الى حوادث سنة ٦١٥ هـ . أما الجزءان اللذان ينتهيان بحوادث سنة ٦٤٥ هـ فقد حققها الدكتور حسنين محمد ربيع تحت اشراف الاستاذ سعيد عبد الفتاح عاشور . وتولت نشرها دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٢ و ١٩٧٧ على التوالى . وللمزيد من التفاصيل انظر : جمال الدين الشيال فى مقدمة كتاب مفرج الكروب جـ١ ص ٤ وما بعدها .

ومن أهم مؤلفات القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) التي ينبغى الاشارة اليها في هذا المقام والتي خدمت جانبا من البحث أو زاوية من زواياه كتابا « كنز الدرر وجامع الغرر » و « در التيجان وغرر تواريخ الازمان » لابن ايبك (ت ٧٤٠ ھ / ١٣٣١م) . وأن كان الكتاب الاول قد أحتوى على سرد الحوادث التاريخية على غرار نظام الحوليات المعروف ، الا أن الكتاب ثانى قد بدأ يذكر الانبياء منذ الخليقة وانتهى حتى سنة ٧١٠ھ. ويلاحظ أن ركز تماما الكاتب على مقاييس النيل طوال السنوات التي تعرض لذكر حوادثها . فضلا عن أنه اقتصر على ذكر ملوك الدولتين الفاطمية والايوبية في مصر فحسب . كما أن كتاباته كلها لا تتخذ الصورة التفصيلية عند ذكر الاحداث ، وإنما أكتفى بذكر الحادثه فقط دون التوسع فى سرد تفاصيلها . فمثلا عندما تعرض لموضوع هجوم الاسماعيلية على صلاح الدين إثناء حصاره عزاز لم يذكر سوى أن هذا السلطان قد جرح بخناجر الفداوية وأنه نجا من الموت باعجوبة .

وهناك أيضا كتاب « نهاية الارب فى فنون الادب » للنويرى (ت ٧٣٢ ھ / ١٣٣٢ م) وهو أولى الموسوعات التى ظهرت فى عصر المماليك والتى تعرضت لمختلف العلوم والاداب والفنون وقد بدأ المؤلف كتابه بالطريقه التقليدية و سرد الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة . وتعرض خلال سرده لاحداث القرن الثانى عشر الميلادى إلى بعض أحوال أسماعيلية الشام والصلات التى كانت بينهم وبين الصليبيين . ومن بين ما نشر من مراجع هذا القرن كتاب « ذيل مرآة الزمان في تاريخ الاعيان » لليونينى (ت ٧٢٦ ھ / ١٣٢٦ م) وقد أستفدنا منه عند تعرضنا لعلاقات الظاهر بيبرس باسماعيلية الشام وتأييدهم له ضد القوى الصليبية في الشام فقد عالج هذه الناحية بشيء من

التفصيل وإلى جانب كتاب « ذيل مرآة الزمان » هناك مؤلفات أخرى وهامة مثل « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، و « العبر فى أخبار من غبر » للذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٦٨ م) ، « تتمه المختصر فى أخبار البشر » لابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٢٦٨ م) والكتاب الاخير يعتبر تكملة للسلسلة التاريخية التى بدأ حلقاتها أبو الفدا فى كتابه المشار اليه . وجدير بالذكر أن كليهما أكتفى بسرد مضمون الحوادث التاريخية دون التوسع فيها ، فضلا عن أنهما لم يأتيا بجديد عمن سبقهما من الكتاب والمؤرخين .

وإلى جانب هذه المؤلفات، هناك أيضا كتاب «الوافى بالوفيات» للصفدى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) ، و « فــوات الوفيات » للكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) وهما لم ينشرا بعد ، و « طبقـات الشافعية الكبري » للسبكى (ت ٨٧١ هـ / ١٣٧٠ م) و « البداية والنهاية فى التاريخ » لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ٧٣ ١ م) .

وهناك مؤرخ له أهمية كبرى بالنسبة لموضوع البحث وهو أبو فراس صاحب كتاب « فصل من اللفظ الشريف لمناقب راشد الدين » وقد قام بنشره المستشرق جويارد . ومن الملاحظ أن هذا المؤلف استعرض مناقب هذا الزعيم الاسماعيلى فحسب . وقد ألصق به كثير من القصص والأساطير الخيالية التى تمجده وهذا يدل دلالة واضحة على مدى تحيزه له . ومما لاشك فيه أن هناك جوانب أخرى فى حياة راشد الدين لم ترد فى كتاب أبى فراس بينما أغفلتها المصادر الأخرى أو مرت عليها مر الكرام . وأن الطريقة التى عالج بها أبو فراس موضوعه تجعل ماورد فى مؤلفه من معلومات أقرب إلى الاساطير

منها إلى الحقيقة التاريخية بحيث يتعين علينا تناولها بحيطة وحذر لاستخلاص المادة التاريخية منها .

أما بالنسبة لمؤلفات القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) فرغم أنها بعيدة زمنيا عن فترتنا إلا أننا أفدنا منها من عدة نواح . ونذكر على سبيل المثال مخطوطة « الجوهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين » لابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) ، و « عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان » للعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، و « فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » لابن بهادر (غير معروف تاريخ وفاته) ، و « الدر الثمين فى سيرة نور الدين » لابن قاضى شهبه (ت ٨٠٤ هـ / ١٤٦٩ م) وهو كتاب عظيم الفائدة وبخاصة فيما يتعلق بأحوال الفترة التى عاصرت وجود الاسماعيلية بالشام . ورغم أن هذا المؤلف تخصص فى جمع سيرة نور الدين إلا أنه لم يشر ولو مرة واحدة إلى وجود أية علاقة بينه وبين اسماعيلية الشام بصفة عامة وبين شيخهم راشد الدين بصفة خاصة ـ وهو الذى كان معاصرا له ـ ، ولو أن ابن خلكان سد هذه الفجوة فى كتابه « وفيات الاعيان » كما سبق أن أوضحنا حقيقة أن الصلات التى كانت قائمة بين القطبين لم تكن بارزة بالمعنى المفهوم إلا أننا كنا ننتظر منه أن يتناولها فى مؤلفه . ونضيف إلى هذه المخطوطات كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)[١] وهو من الكتب العامة المطبوعة ، وكتب « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين

---

(١) هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، ولد سنة ١٣٣٢م وتوفى سنة ١٤٨٦ م وارتبط صيته بمقدمته . وللمزيد من التفاصيل انظر يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ص ١٠١ ـ ١١٣ .

الخلفا » و « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، و « المواعـظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » للمقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، وقد غـدا أولها من المراجع الرئيسية فى عصر الفاطميين ، والثانى فى عصر الايوبيين والمماليك .
يضاف إلى ما تقدم كتاب « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ، و « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) وأولهما كتاب خاص بالتراجم وثانيهما لتاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى ومن الملاحظ أن هذا المؤرخ أغفـل حقائق كثيرة وخاصة ماحدث لصلاح الدين فى الشام أثناء حصار حلب عقب وفاة نور الدين محمود والمتاعب التى لاقاها من قبل طائفة الحشيشية . ويرجع هذا إلى أحـد عاملين أولهما أما أن المؤرخ قصد ذلك ، وثانيهما أن المصادر التى نقل عنها لم تشر إلى هذه الحادثة . وفى رأينا أن الاحتمال الأخير غـير مقبول لأن المؤرخين الذين نقـل عنهم بن تغرى بردى مثل بن الاثـير وأبا شامه قـد أفاضا فى سرد هذه الحوادث ، بينما تجاهلها هو ، ولانجد لذلك مبررا حقيقيا معقولا .

وفضلا عن هذا لم يتعرض هذا المؤرخ إلى حادثة هامه فى تاريـخ الدولة الايوبية بشيء من التفصيل وهى مؤامرة عمارة اليمنى من أجـل القضاء على صلاح الدين واعادة المذهب الشيعى والدولة الفاطمية إلى مصر . ولـما كان لهذه المؤامرة من آثر بسبب اشتراك ثلاثة أطراف كبرى فيها وهى الصليبيين والحشيشة وكبار أعيان الشيعة الموجـودين فى مصر فى ذلك الوقت ، كان عليه أن يسجلها فى كتابه خاصة وأن هذا المرجـع قد أختص بذكر ملوك مصر والقاهرة . وهناك أيضا كتاب « الدر المنتخب فى تاريخ حلب » لابن الشحنة (ت ٨٩٦ هـ / ١٤٨٥ م) . ومن المـؤلفـات الأخرى التى كتبت فى

فترات أخرى « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » وهو مخطوطه لمؤرخ مجهول . وقد اقتصر صاحبها على ذكر حوادث بنى أيوب ، ورغم ذلك أغفل سرد تفصيلات كثير من الحوادث الهامة التى كانت تستحق الوقـوف أمامها بالتعليل والتبرير . فمثلا عندما أشار المؤرخ إلى محاولة اغتيال السلطان أثناء محاصرته حلب وعزاز ثم محاولته الانتقام من الاسماعيلية بحصار مصياف ، نراه يمر مر الكرام على هذه الوقائـــع ولا يزيد ماجاء عنها فى كتابه عما ورد فى مؤلفات غيره ، بل يكاد يكون أقلهم . وهناك أيضا مخطوطة « العسجد المسبوك فى سيرة الخلفاء والملوك » للخزرجى الانصارى (غير معروف تاريخ وفاته) » و « عيون الاخبار » لابن أبى سرور (ت ١٠٠٧ هـ / ١٦٠٩ م) وهما لم ينشرا بعد ، و « تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات (١) (ت ٨٠٧ هـ / ١٥٠١ م) ، و « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » للعماد الحنبـلى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) :

وبين الكتب العربية الأخرى التى اعتمدنا عليها بعـض الاعتماد ، كتب تاريخية سابقة لموضوع البحث مثل « الفرق بين الفرق » البغدادى (ت ٤٢٠ هـ / ١٢٩٠ م) ، و « كشف أسرار الباطنية » للحمادى اليمنى . وكتب جغرافية

---

(١) رجعنا الى الجزء المنشور منه ابتداء من حوادث سنة ٥٦٣ هـ حتى عام ٦١٥ هـ (١١٦٨ — ١٢٠٩ م) وقد نشره الدكتور حسن محمد الشماع وساعدت جامعة البصره على طبعه . وصدر تحت عنوان « تاريخ ابن الفرات » والمجلد الرابع الجزء الأول يمتد من سنة ٥٦٣ هـ الى سنة ٥٨٦ هـ وقد طبع سنة ١٩٦٧ ، والجزء الثانى ويحوى الفترة من سنة ٥٨٧ هـ حتى سنة ٥٩٩ هـ وقـد طبع سنة ١٩٦٩ ، ويبدأ الجزء الأول من المجلد الخامس بحوادث سنة ٦٠٠ هـ ويمتد حتى سنة ٦١٥ هـ وطبع سنة ١٩٧٠ . انظر عن ابن الفرات : المنهل الصافى جـ ٥ ورقة ٣٠ — ٣١ .

مثل كتاب « المسالك والممالك » للاصطخرى (١) (عاش فى القرن الرابع الهجرى - القرن العاشر الميلادى) وكتاب « المسالك والممالك » والمفاوز والمهالك » لابن حوقل(٢) (عاش فى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى)، ورحلة ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)، وكتاب « معجم البلدان » لياقوت الرومى الحموى(٣) (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)، وكتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » و « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزوينى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م)، وكتاب « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » للانصارى الدمشقى (ت ٧٨٧ هـ / ١٣٢٦ م)، وكتاب « تقويم البلدان » لابى الفداء (ت ٧٢٢ هـ / ١٣٣١ م). وإلى جانب هذا يوجد كتاب « مراصد الاطلاع » ولم يستدل على اسم صاحبه، وكتاب رحلة بن بطوطة (٤) (ت ٧٧٩ هـ

---

(١) اسمه الحقيقى الشيخ ابو اسحاق وقد عرف بالاصطخرى نسبة لاصطخر المكان الذى ولد فيه . وغير معروف تاريخ وفاته . ولمزيد من التفاصيل انظر يسرى الجوهرى الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ص ٨٧ .

(٢) عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، وقد قضى ثلاثون عاما فى ترحال دائم واحتوى كتابه على كثير من المعلومات الشيقة الدقيقة القائمة على الدراسة الحقلية، انظر يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ص٨٩ - ٩٩.

(٣) ولد فى اليونان سنة ١١٧٩ م واشتراه أحد التجار المسلمين وأخذه معه الى بغداد حيث نشأ هناك واشتغل بالتجارة الى أن اعتق سنة ١١٩٩ م . وقد أمضى معظم حياته فى ترحال دائم فى الشرق الاوسط وخاصة منطقة الخليج العربى . وكتابه يعد موسوعة كبيرة فى الأدب والتاريخ والجغرافية ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٤) ولد فى طنجة سنة ١٣٢٥ م ويعتبر أهم شخصية جغرافية خلال القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) . وقد قضى ما يقرب من ٢٨ عاما فى ترحال دائم . لمزيد من التفاصيل أنظر يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ص ١٠٤ — ١٠٥ .

/ ١٣٧٧ م ٬ وقد حصلنا منه على فوائد عظيمة فى دراستنا للنواحى التاريخية والجغرافية والاقتصادية التى تمت بصلة إلى موضوعنا .

هذا عن المصادر الاصلية المعاصرة لفترة موضوع البحث والمتأخرة عندا زمنيا ، من عربية وغير عربية ، خطية ومطبوعة . أما عن المراجع الثانوية فهى تنقسم بدورها إلى قسمين أجنبية وعربية . ولاشك أن مراجع المحدثين من أهل الغرب والشرق على السواء أصبحت تسدفجوة كبيرة فى تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة وفى تاريخ العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام على وجه الخصوص وفيما يتعلق بالمراجع الأجنبية يعتبر كتابا ستيفنسن رانسيمان S· Runeiman[1] ورينيه جروسيه R, Grousset من أفضل ماظهر فى تاريخ الحركة الصليبية وقد وردت فيهما أشارات لابأس بها عن العلاقات الصليبية الاسماعيلية فى القرن الثانى عشر الميلادى . وغيرهما نجد مؤلفات ستون Setton ، وميشو Michaud ورينهولد رهرشت R, R‥richt . هذا بالاضافة إلى ماكتبه وليم ستيفنسن W. Stevenson وارشر وكنجز فورد Archer & Kingsford ، وهارولد لامب H. Lamb وكالثروب Calthrop ، وكامبل Campbell ، وشالندون Chl‥ndon ومبورج Maimbourg ولويس بريبه L. bréhier ولودلو Ludlow ويورجا Irega ، كينج King وستانلى لانبول S. Lane - Poole . هذا فضلا عن مؤلفات برنارد لويس B. Iewis وماكس فان برشم Max Van Berchem وجريارد Guyard ودفريمري Defrémery وهم من ضمن المؤرخين المحدثين المتخصصين فى الكتابة عن تاريخ اسماعيلية الشام وإلى جانب هؤلاء نجد

---

(١) نقل هذا الكتاب الى العربية للدكتور السيد الباز العرينى تحت اسم « تاريخ الحروب الصليبية » وهو يقع فى ثلاثة أجزاء طبع بيروت ١٩٦٧ — ١٩٦٩ .

كوندر Conder وبول لاكروا Lacroix وبيزانت Besant وبراون Browne ودوسو Dussaud وجوستاف شلومبيرجيه Schlumberger وهنرى تريس H. Treece وودهاوس Woodhouse وقد أخذنا من هذه المجموعة الأخيرة من الكتب فائدة كبرى تبدو واضحة فى ثنايا البحث وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الصليبية الاسماعيلية والمراحل التى مرت بها هذه الطائفة أثناء نقل نشاطها إلى الشام في القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) .

أما بالنسبة للكتب التى استعنا بها فى عرض أحوال الغرب الأوربى فى الفترة موضوع البحث نذكر منها مؤلفات آدمز Adams وديفيز Davis وأومان Oman وتريفيليان بالنسبة لتاريخ انجلترا ، وميشليه Miciklet وبترز Peters وتاوت Tout بالنسبة لأحوال فرنسا ، باراكلوف Parraclaugh ولويس Lewis وستبس Stubbs بالنسبة لأحوال ألمانيا ، وشاب مان Chapman بالنسبة لاسبانيا ، وأوستروجوروسكى Ostrogorsky وفازيليف Vasilive بالنسبة لأحوال الدولة البيزنطية ، ومايكوك Maycock وتاوت ، وبل Bell وهاردويك Hardwik ، وبريس Bryce بالنسبة لأحوال البابوية والامبراطورية والصراع الطويل بينهما . هذا بجانب بعض الكتب العامة التى تعرضت لأحوال أوروبا مثل مؤلفات بروك Brook وايرEyre ، وفانك برنتانو Funck-Brentano وهنرى هالام H. Hallam وكلود جنكنز C. Jenkins ولاندون Iandone وميشيل Michels ، وكارل ستيفنس C. Stephénspn وتومبسون Thompson وبجانب هذا فقد كانت المادة التى أمدتنا بها دوائر المعارف المختلفة وكذلك مجموعة كامبريدج فى تاريخ العصور الوسطى عظيمة وقيمة خلصنا منها ببعض الفائدة .

ونختم الحديث عن مصادر البحث ومراجعة بالمراجع العربية التى أصبحت الآن عامرة بالعديد من المؤلفات العلمية القيمة التى تتناول تاريخ العدوان الصليبي على العالم الاسلامى أو فصلا من فصوله ، والتى زودتنا بالكثير من المعلومات والأفكار التى تتصل بموضوع البحث . ويتصدرهذه المؤلفات مؤلف الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور المسمى « الحركة الصليبية ـ صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى » وهو يقع فى جزئين و « الناصر صلاح الدين » و « العصر المماليكى فى مصر والشام » و « الظاهر بيبرس » و « أوروبا العصور الوسطى » ويقع فى جزئين وكذلك مؤلفات الأستاد الدكتور عمر كمال توفيق منها كتاب « مملكة بيت المقدس الصليبية » ، وكذلك مؤلفات الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف مثل « العرب والروم واللاتين » ، « العدوان الصليبي على الشام » . ويضاف إلى ذلك مؤلفات الاستاذ الدكتور عبدالعزيز سالم مثل « طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى » ، و « دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامي » وكذلك كتاب الاستاذ الدكتور حسن حبشى « الحرب الصليبية الأولى » ، « نور الدين محمود والصليبيون » ، ومؤلفات الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم مثل « تاريخ الدولة الفاطمية » ، « تاريخ الاسلام السياسى » ومؤلفات فيليب حتى وعلى رأسها « تاريخ سورية ولبنان فلسطين » ، « تاريخ العرب » . وكتاب « منتخبات اسماعيلية » لعادل العوا ، وكتاب « تاريخ الدعوة الاسماعيلية » للدكتور مصطفى غالب خمس رسائل اسماعيلية » ، « سنان وصلاح الدين » لعارف تامر ، « تاريخ الجمعيات السرية ، و « تراجم اسلامية » لمحمد عبد الله عنان ، « دوله النزارية » و « عبيد الله المهدى » لطه شرف ، و « طائفة الاسماعيلية » للدكتور محمد كامل حسين ، و كتاب « الاعلام الاسماعيلية للدكتور مصطفى غالب . فضلا

فى بعض أعداد مجلة كلية الاداب ، بجامعة الاسكندرية ، ومجـلة المشرق اللبنانية فقـد وردت بها دراسات هامة عن أحـوال طائفة اسماعيلية الشـام . ولا ننسى فضل كتاب « تاريخ الشعوب الاسلامية » لكارل بروكلمان هذا بجانب العـديد من الكتب التى افـدنا منها بطريق مباشر أثناء تنـاول قضايا البحث ومشاكله .

هذا عرض نقدى تحليـلى لمصادر البحث ومنابعه ، من شرقيـة وغربية ، عربية أوروبية ، خطية ومطبوعه . واستطعنا أن نوضح تاريخ العلاقات التى كانت قائمة بين الصليبيين واسماعيلية الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) وخلصنا من ذلك إلى أن طائفة اسماعيلية الشام كانت تعمل لمصلحتها فحسب دون النظر إلى مصلحـة أى من الصليبيين أو السنيين ، كما كـانت تتقلب فى خـدمة الأعداء والأصدقاء من أجـل الوصول إلى هدفها المنشود وهو التوسع والاستقرار من أجل الابقاء على المذهب الشيعى وتدعيم أركانه والقضاء على المذهب السنى .

الفصل الأول

الطائفة الاسماعيلية : نشأتها ونظمها وقلاعها وشيوخها
نشأة المذهب الشيعى وأهم فرقه ـ ظهور الطائفة الاسماعيلية ـ سفر ابن الصباح إلى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ـ تكوين أول دولة اسماعيلية فى فارس ـ انقسام الطائفة ـ نظم الاسماعيلية ومراتب الدعوة ـ جنة الحشيشية ـ أسلوب الاسماعيلية فى الاغتيالات ـ وسائل دعايتهم ـ طرق اجتذاب الناس لاعتناق المذهب ـ عقائد الاسماعيلية ـ تعدد اسمائهم ـ قلاع الدعوة ببلاد الشام ـ شيخ الجبل فى المصادر العربية والأجنبية وأهمية الدور الذى قام به فى الصراع الصليبي الاسلامى .

موضوع الكتاب هو حلقة هامه من حلقات الصراع الصليبي الاسلامى ، وقد جعلنا عنوانه « الصليبيون واسماعيليه الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادى ــ القرن السادس الهجرى) » . فمع بداية هذا القرن كان الصليبيون قد أسسوا امارتهم فى الاراضى المقدسة مستغلين الخلف والانقسام بين المسلمين فى الشرق الأدنى الاسلامى سياسيا ومذهبيا ومع نهايته كان المسلمون قد أفاقوا واتحدوا ليوجهوا الضربات القوية المتلاحقة إلى معاقل اللاتين فى الشام وفى أثنائه كان أهل الغرب اللاتينى والافرنج الذين استقروا فى الشرق يعملون بكل السبل والوسائل لتثبيت كيانهم فى المعاقل والقلاع التى أقاموا بها . ولم يتوان اللاتين عن اتخاذ أى خطورة لتدعيم وجودهم فى الأرض المقدسة . وكان من الطبيعى أن يستغلوا الخلاف المذهبى بين المسلمين من شيعة وسنه ، وأن يستفيدوا من العداء التقليدى المستحكم بينهما لصالح القضية الصليبية . وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الخلاف وذلك العداء إلى اتاحة الفرصة لاتصالات وعلاقات تتشابك فيها ثلاثة أطراف هى : اللاتين والسنيون والشيعة وكان كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة يتصرف وفقا لما تمليه عليه مصالحه وهكذا شهدت منطقة الشرق الادنى الاسلامى خلال القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) صراعا سياسيا واتصالات دبلوماسية تشابكت فيها هذه القوى الثلاثة وتداخلت فى بعضها تداخلا شديدا فضلا عن الاحتكاك الدامى بينها .

ولكى نفهم طبيعة هذه العلاقات أسبابها والنتائج والآثار التى ترتبت عليها يحسن أن نمهد لذلك بدراسة مركزة عن ظهور طائفة الاسماعيلية فى بلاد الشام ونظمها وقلاعها ، وهى الطائفة الشيعية التى أصبحت طرفا أساسيا من الاطراف الثلاثة سالفة الذكر ولا يمكن ونحن نؤرخ للحركة الصليبية أن

تقفل هذه الطائفة والدور الذى قامت به .

لقد شعر المسلمون بعد وفاة رسول الله (ﷺ) سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م بحرج الموقف وبحاجتهم الماسة إلى رجل يقوم بأعباء الخلافة ويتعهد أمور المسلمين . وقد عرضت عندئذ ثلاثة آراء حول اختيار الخليفة . فرأى البعض تخصيص الخلافة لبنى هاشم وخاصة أمير المؤمنين على بن أبى طالب لسبقه إلى الاسلام ولقرابته من رسول الله ولاستئثاره بصفات كثيرة لا تتوافر فى غيره من سائر الصحابة ورأى البعض الآخر تخصيص الخلافة بالبيت القرشى استنادا إلى قول النبي « الأئمة من قريش » . أما الفريق الثالث وهم من الانصار فقد رأوا أنهم أحق بالخلافة لما كان لهم من فضل فى تأييد ونصرة الرسول [1] . ولقد انتهى الخلاف وهدأت الثورة بتولية أبى بكر الخلافة ، ثم انتقلت من بعده إلى عمر بن الخطاب ، ولكنها تفاقمت فى عهد عثمان بن عفان وانتهت بمقتله وبخلافة على بن أبى طالب . والتف أصحاب الرأى الأول المؤيد لخلافة على عقب وفاة الرسول مباشرة — حوله وساعدوه على نيل الخلافة فيما بعد ، والوقوف معه ضد منافسه العنيد فى الخلافة معاوية بن أبى سفيان ، وقد أطلق على هؤلاء اسم الشيعة .

وبناء على ذلك فالشيعة هم الذين شايعوا عليا بن أبى طالب منذ وفاة الرسول وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصية أما علنا أو جهرا ، واعتقدوا أن الامامه لا تخرج عنه وعن بنيه إلا بظلم من غيره (٢) .

---

(١) السيد محمد صادق محمد الصدر : الشيعة ص ١٢ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ٢٦ .

وعلى الرغم من ذلك فقد اختلفت آراء الباحثين حول تحديد البداية الزمنية للشيعة ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — يرى البعض أنها ترجع إلى فترة الرسالة فى حياة الرسول حيث التأم شمل جماعة من الصحابة تفضل عليا على غيره من الصحابة وتتخذه رئيسا (١) .

٢ — يرجع الرأى الثانى للبداية الزمنية للشيعة إلى الموقف الذى نشأ أثر وفاة الرسول حيث التف حول علي جماعة مؤيدة له ولخلافته (٢) .

٣ — يرى البعض الثالث أن هذه البداية ترجع إلى الثورة على عثمان رضى الله عنه

٤ — يرى أصحاب هذا الرأى أن البداية الزمنية للشيعة انما ترجع إلى الموقف الذى نتج عن مقتل عثمان . إذ خالف طلحة والزبير فى الأمر علي، وأبيا إلا الطلب بدم عثمان ، وقد قصدهما علي ليقاتلهما ، وتسمي حينئذ من أتبعه على أمره « الشيعه » ، وكان عليا يدعوهم بلفظة « شيعتي » (٣) .

وبالاضافة إلى الآراء السابقة ، فمن المعروف أن كلمة « الشيعة » قد استعملها معاوية بن أبى سفيان مع اتباعه ، وذلك حينما قال لبشر بن أبى أرطاه حين وجهه إلى اليمن : « أمعن حتى تأتى صنعاء فان لنا بها شيعة » (٤)

---

(١) كامل مصطفى الشيبى : الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ص ٢٠ .

(٢) كامل مصطفى الشيبى المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) يحي هاشم حسن فرغلى : نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٤) كامل مصطفى الشيبى : الفكر الشيعى ص ٢٧ .

فهل معنى ذلك أن لفظة « الشيعــة » قصد بها أيضا مـن تشيع لمعـاوية ؟

على أية حال ، يرى الباحث وسط هذا الخلاف حول التحديد الزمني للفظة « الشيعة » أن هـذه اللفظة عرفت في حيـاة الرسول بل وقبـل ذلك ، وكان يطلـق حينذاك على كل مـن يتشيـع حول الرســول أو حـول أى شخص ما أنه من شيعته . ولكن بعد وفاة الرسول أضفى على هـذا اللفظ مفهوم آخر ينصب على كل من التف حول على بن أبى طالب ، واتخاذه أماما نسجت حوله عقائد الشيعة التي تكاملت فيما بعد .

وعلى ذلك يمكن القول أنه منذ ذلك الوقت أصبح لفظ « الشيعة » يتضمن مفهومين أحـدهما المفهوم العام ، والثانى مقصور على اتبــاع على بن أبى طالب وبناء على ذلك يتضح أنه ليس كل شيعى علوى ولكن كل علوى شيعــى .

هـذا ، وقد انقسمت الشيعة إلى أربع فرق أساسية هى : الزيدية ، والاثنا عشرية ، والكيسانية ، والاسماعيلية ، وقـد تفرعت عن كل منها فرق أخرى عــديدة .

أما الزيدية فهم القائلون بامامــة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان زيد يجيز أمامة أبى بكر وعمر رغم أن عليا كان أفضل الصحابة عليهم . إلا أن الامامة فوضت إلى الشيخين لأن المصلحة العامة قد اقتضت ذلك لتسكين ثائرة الفتنة ، وكان مذهبهم فى الامامة أنها تجوز فى أى من أولاد على من فاطمة رضى الله عنها سواء كانوا من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين

يشترط أن يكون عالما زاهـدا شجاعا وسخيا (١) . وقد تفرعت عن الزيدية فرق كثيرة .

أما الامامة الاثنا عشرية فهم الذين يتبرأون مدة خلافة أبى بكر وعمر ويطعنون فى أمامتها لانها لم يقدما عليا ويبايعاه (٢) . وهم القائلون بامامة اثنى عشر أماما أولهم على كرم الله وجهه ثم الحسن (ت٥٠ﻫ/٦٧٢م) ، ثم الحسين (ت٦١ﻫ/ ٦٨٠ م) ، ثم على زين العابدين (ت ٩٤ﻫ ٧١٢م) ثم محمـد الباقر (ت١١٣ﻫ/٧٣١م) ، ثم أبى عبـد الله جعفر الصادق (ت١٤٨ ﻫ/٧٦٥م) ثم اختلفوا بعـد ذلك فتستمر الامامة من بعد جعفر الصادق إلى موسى الـكاظم (ت١٨٣ﻫ/٧٩٩م) ، ثم على الهـادي (ت٢٥٤ﻫ/٨٦٨م) ، ثم أبى محمـد العسكرى (ت٢٦٠ﻫ/٨٧٣م) ، ثم محمد المهدى المنتظر . وتلقب هذه الفرقة بالاثنى عشرية حينا لقولهم بامامة اثنى عشر أماما وبالموسوية حينا آخر لقولهم بانتقال الخلافة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم (٣) . والفرقة الثالثة وهى الكيسانية فتنتسب إلى شخص يدعى كيسان وقـد قيل هو المختار بن أبى عبيد الثقفى (المقتول عام (٦٨ﻫ/ ٦٨٦م)) ، وسمى كيسانا لأن أباه أباعبيد ابن مسعود الثقفي — وكان من كبار الصحابة ومحبا لعلى — ذهب بولده إليه

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ص ١٣٧ — ١٤٠، القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٢٧ ، عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٢٧ ، محمد مجاهد مصباح : محاضرات فى تاريخ الفرق الاسلامية ص ٤٧ .

(٢) عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص٢٧ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى : ج١٣ ص٢٢٨ ، محمد مجاهد مصباح: محاضرات فى تاريخ الفرق الاسلامية ص ٥١ .

وهو صغير ، ووضعه بين يديه فمسح على رأسه وقال (كيس .. كيس) فلزمه هذا الاسم [١] . وقيل أيضا أن كيسان الذي تنتسب اليه الكيسانية هو مولى أمير المؤمنين على بن أبى طالب أو هو تلميذ محمد بن الحنفية [٢] . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فتقول الكيسانية بامامه محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه ، وأن الحسن والحسين انما خرجا باذن محمد ، ولو خرجا بغير أذنه هلكا وضلا ، وأن من خالف محمد بن الحنفية كافر مشرك [٣] .

والفرقة الرابعة هى التى تعرف باسم الاسماعيلية وقد لعبت دورا كبيرا فى التاريخ ، وكانت أنشط طوائف الشيعة فى بث مبادىء الخروج والهدم . ولا يقصد بالهدم من المبادىء إلا ماترى أنه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية غير أنها تحولت فيما بعد إلى أداة لهدم جميع المعتقدات الدينية والنظم السياسية [٤] . واستمدت هذه الفرقة أصولها المذهبية من الاصول الشيعية التى وجدت قبل ظهور طائفة الاسماعيلية نفسها [٥] .

وقد نشأت طائفة الاسماعيلية هذه رسميا فرعا قائما بذاته من الشيعة بعد وفاة اسماعيل بن جعفر الصادق [٦] . إذ نادى البعض باحقية اسماعيل بن جعفر

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٨ .

(٢) الشهرستانى . الملل والنحل جـ ١ ص ٣١ .

(٣) يحى هاشم فرغلى : نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص ١١١ .

(٤) عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٣١ .

(٥) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٢ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية : مادة اسماعيلية طبعة ١٩٧٢ جـ ١ ص ٣٨٣ ، محمد عبد العال : دولة بني أيوب في اليمن « رسالة ماجستير لم تطبع » ص ١٤ انظر كذلك : Ency. Brit., t. XII, p. 683.

الصادق وبابنائه من بعده بالولاية . وعرف هؤلاء بالاسماعيلية أو السبعية لأن اسماعيل فى نظرهم هو الامام السابع ، ومن هؤلاء ظهر عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب (١) .

ولقد استند الاسماعيلية فى احقيد بالامامة إلى بعض الأقوال الصادرة عن أبيه ـ جعفر الصادق ، وغير معروف مدى صحتها ، وربما تكون بدعة من نسج خيال طائفة الاسماعيلية تدعيما لما تنادي به فيرى أنصار اسماعيل أن الامام جعفر الصادق قد نص على امامته من بعده حيث قال « لوجاء كم أحد بدماغي ابنى هذا أي اسماعيل فلا تشكو أنه امام بعدى » وقال أيضا « هذا هو الامام بعدي فما أخذتموه عنه فهو عنى » كذلك قيل فى هذا الصدد أن الامام جعفر الصادق كان قد أوصى بالامامة إلى ابنه الاكبر اسماعيل ثم نحاه عنها وأوصى بها إلى ابنه الكاظم وانقسمت الآراء فى السبب فيما فعل ، فيرى أنصار الرأى الأول أنه قد نمى إلى علم جعفر الصادق أن اسماعيل يشرب الخمر ولذا تراجع عن الوصاية له بالامامة بينما يرى أصحاب الرأى الثانى أن اسماعيل قد مات فى حياة أبيه (٢) .

وقد تعددت الآراء فيما يتعلق بموت اسماعيل بن جعفر الصادق فى حياة أبية إذ قال البعض بصحة واقعة الموت وأن النص لا يرجع قهقرى ، والفائدة فى النص

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٩ — ٣١ ، حسن ابراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٩ ـ ٣٠ ، مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ٨٣ ، لويس شيخو : جولة فى الدولة العلوية ص ٤٩٣ .

(٢) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ٨٤ .

بقاء الامامة فى أعقاب المنصوص علية غيره فالامام بعد اسماعيل هو ابنه محمد(١) ويرى البعض الآخر أن اسماعيل لم يمت إلا أن أباه قد أظهر موته خشية من خلفاء بنى العباس ، فعقد محضرا شهد عليه عامل الخليفة بالمدينة ـ والذى كان قد اعتنق الاسماعيلية (٢) . وقد تضاربت الآراء بهذا الخصوص . ويخلص الدكتور مصطفى غالب فى كتابه « تاريخ الدعوة الاسماعيلية » برأى لعله أقرب إلى الحقيقة ويتمشى مع ما يتقبله العقل والأحداث التاريخية . فيرى أنه لما شعر الامام جعفر الصادق بالاخطار التى تهدد حياة ابنه اسماعيل بعد أن نص عليه وأصبح وليا للعهد ، أمره أن يستتر ، وكان ذلك سنة ١٤٥هـ / ٧٦ م خشية نقمة العباسيين . وتدبر الأمر بأن كتب محضرا بوفاته شهد عليه عامل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ـ الذى كان بدوره اسماعيليا ، وعلى الفور توجه اسماعيل إلى سلمية(٣) ومنها إلى دمشق ، وظل يتنقل سرا بين اتباعه حتى توفى سنة

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٧٩ ، محمد مجاهد مصباح : محاضرات فى تاريخ الفرق الاسلامية ص ٥٢ .

(٢) يستند هذا الرأى على دعامتين ، الأولى أن محمد الاخ الاصغر لاسماعيل ابن جعفر الصادق كان صغيرا فى ذلك الوقت وقد مضى الى السرير الذى كان مسجيا عليه ورفع الغطاء فابصره وقد فتح عينيه فعاد محمد فزعا الى أبيه وقال : عاش أخى ... عاش أخى ، قال والده أن أولاد الرسل هكذا يكون حالهم فى الآخرة ، أما الدعامة الثانية فانه نمى الى علم الخليفة العباسى ابى جعفر المنصور بظهور اسماعيل فى البصرة فرسل فى طلب جعفر الصادق ليستقصى الخبر فاحضر الامام حينذاك سجل الوفيات واطلع الخليفة على شهادة عامله والتى تؤكد وفاة اسماعيل . انظر الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٣٣١ ، مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ٨٥ .

(٣) سلمية بلد بها بساتين كثيرة ، بناها عبد الله بن صالح بن على بن عبد الله

١٢٨هـ / ٧٢٥ م . وخلاصة القول أن الامامة ظلت باقية فى عقبة بعد أن نص على امامته سواء كانت وفاته فى حياة أبيه أم بعده .

هذا عرض سريع مركز لنشأة المذهب الشيعى وأهم فرقة ، وبخاصة طائفة الاسماعيلية التى لعب فرعها فى الشام دوراخطيرا أثناء الصراع الصليبى الاسلامى وحول ظهور هذه الطائفة فى بلاد الشام يتحدث مؤرخ لاتينى من مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى «السادس الهجرى » وهو ليم الصورى فيقول : أنه كان يقطن فى صور وضواحيها جماعة يبلغ عددهم ٦٠٫٠٠٠ نسمة أو أكثر، وكانوا يمتلكون عشر حصون فى هذه المنطقة، ويحكمهم سيد يطلق عليه اسم « شيخ » ولم يكن الوصول إلى هذا المنصب عن طريق الارث وانما كان بالاختيار . وكان هؤلاء القوم يرتبطون بهذا الرجل برباط الخضوع والطاعة العمياء لكل أمر يصدر اليهم منه ، وكان زعيمهم يكرس كل جهده من أجل الوصول بجماعته إلى أرقى درجات الكمال ، وقد اطلق على هؤلاء الرجال اسم « الحشيشية » ويستطرد نفس المؤرخ قائلا أنه لايدرى المصدر الذى اشتقت منه هذه التسمية (١) .

= ابن عباس بن عبد المطلب ، والغالب على سكانها بنو هاشم وهى على طرف البادية خصبة ورخية ، وتبعد عن حماه ٣٤ كيلو مترا ، وتقع فى سهل خصيب على ارتفاع ١٥٠٠ م فوق من سطح البحر ، انظر الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٦١ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٦٥ .

(١) Guillaume de Tyr, Historia Renum in Partibus Transmarinis Gestarum, Cf. R. H. C. - H. Occ., t I, pp. 895 - 896, Maimbourg, Histoire des Croisades, t. II, p. 291, L'Abbé de Vertot, Histoire de L'Ordre des Chevaliers, t. I, p. 188.

وسوف نتعرض بالتفصيل شرح هذه الكلمة فيما بعد .

وللتعرف على تاريخ هذه الطائفة ومدى الفزع الذى سببه للعالم المعروف وقتذاك والدور الذى قامت به أثناء الصراع الصليبى الأسلامى خلال القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) يحسن التعرض لتاريخ ظهورها وتأسيس أول دولة لها .

تمكنت الخلافة الفاطمية فى المغرب من أن تمد سلطانها إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٠٩م متخذة منها المركز الرئيسى للخلافة ، كما نتج عن امتداد هذه الدعوة الشيعية أيضا إلى فارس والعراق فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ظهور فرقة شيعية جديدة تنتمى إلى الإمامة الاسماعيلية أخذت تشق طريقها نحو السلطان والملك وقد اتجهت هذه الفرقة نحو الخلافة الفاطمية تستمد منها الالهام والعضد الروحى(١) .

وعرفت هذه الفرقة الجديدة فيما بعد فى مختلف الأمصار بأسماء مختلفة مثل الباطنية والمزدكية والتعليمية ، كما عرفت فى الشام أيام الصليبيين باسم الحشيشية والباطنية وهو أشهر ألقابها وأخصها(٢) . ولقد كان لهذه الفرقة شأن كبير فى

---

(١) محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية ص ٤٢ . انظر كذلك المراجع الاجنبية التالية :

Runciman, op. cit., t. II, P. 119, Berchem, épigraphie des Assassins de Syrie p. 453.

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ، ابن الجوزى : تلبيس ابليس ص ١٠٣ — ١٠٦ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ٢٤٥ ، الحمادى : كشف اسرار الباطنية ص ٨ ، انظر أيضا : برنارد لويس : أصول الاسماعيلية ص ٤٨ ، السيد الغزاوى : فرقة النزارية ص ٤ ، عمر أبو النصر : قلعة الموت ص ٧٦ .

ذلك الوقت برئاسة زعيمها الحسن بن الصباح(١) الذى اعتنق الدعوة الاسماعيلية وتعمق فى معرفة مبادئها والالمام بدقائقها .

وقد يعرف أبن الصباح فى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م أثناء جولته فى أقاليم الرى على عبد الملك بن عطاش رئيس الدعوة الاسماعيلية بأصبهان (٢) . وتتلمذ

---

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب جـ ٢٤ لوحة ٥٤٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٤٥ .

وهو حسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسن بن الصباح الحميرى ،ولد فى مدينة الري سنة ٤٤٤ هـ /١٠٥٢ م وتلقى العلم فى مدينة نيسابور على يد الموفق النيسابورى أحد علماء السنه المشهورين فى ذلك الوقت. ولم يكن تعليمه للمذهب السنى مقصودا لذاته وانما كان للتمويه حيث كان التشيع فى هذا الوقت وصمة وسبة . وقد التحق فى خدمة السلطان السلجوق ملكشاه ، وحاول أن يفسد العلاقات بينه وبين وزيره نظام الملك لكى يفوز برضاء السلطان ، ولكن لما شعر نظام الملك بذلك سعى من أجل طرده من القصر السلطانى . وأصبح منذ ذلك الوقت كل منهما يحمل للاخر كرها شديدا ، وقرر ابن الصباح الانتقام منه ، فكان أول عمل بعد تكوين دولته فى الموت ارسال أحد فداويته لاغتيال الوزير السلجوقي وكان ذلك فى العاشر من رمضان ٤٨٥ هـ/١٥ اكتوبر١٠٩٢م وكان هذا الوزير هو أول ضحية له . وقد مات ابن الصباح في ربيع الثانى ٥١٨ هـ / ابريل ١١٢٤ م انظر العماد الاصفهانى : نصرة الفترة وعصرة الفطرة لوحة ٦٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٠٣ ، طه شرف : دولة النزارية ص٢٨ ، سعد زغلول مجلة تراث الانسانية ـ المجلد التاسع ـ العدد الثانى سنة ١٩٧١ ص ١٩٤ ، انظر أيضا :
Michaud, History of the Crusades, t. III, pp. 118 - 119.

(٢) الري : مدينة من نواحى قزوين وكان بناؤها من الجص ولها سبعة أبواب مشهورة هى باب طارق يخرج منه الى الجبال وباب العراق وباب بلسان وباب كوهكين وباب سين وباب الجبل وباب هشام ، وقد بناها رازين خراسان سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥م فى خلافة

على يديه ، وسر به عبد الملك وجعله نائبا له في شئون الدعوة بعـــد أن لقنه أصول العقيدة الاسماعيلية . ثم اقـترح عليه السفـر إلى مصر ليحظى بحضرة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) فضلا عن التعمق فى أصول المذهب الاسماعيلى بدار الحكمة (١) .

ويرى ابن خلدون أن توجه ابن الصباح إلى مصر كان فرارا من نقمة أبى مسلم حاكم الرى الذى اتهمه ببث الدعوة الالحادية وتستره عـلى جماعة من الدعاه المصريين(٢) . ولكن ابن الصباح كان قد ذكر فى مذكراته أن عبدالملك ابن عطاش قـــد أوصاه بضرورة الذهاب الي مصر للتعرف عـلى المستنصر بتقديم الطاعة له (٣) .

على أيه حال ، وصل ابن الصباح إلى مصر سنة ٤٧١هـ/١٠٧٠م متنكرا في زي تاجر وقابل الخليفة المستنصر الذى أمره بالدعوة له ولإبنه نزار مــن

الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور . وهى كثيرة الخيرات وافرة الغلات واهلها سنيون شافعية . انظر الاصطخري : المسالك والممالك ص ٦١ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣٧١ ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(١) طه شرف : دولة النزارية ص ٣٨ ، محمد العزاوى : فرقة النزارية ص٢٢، عمر أبو النصر : قلعـــة الموت ص ١٠٤ ، عباس العقاد : فاطمة الزهراء ص ١١٠ . هذا وكانت دار الحكمة بمصر تعتبر مقرا ومركزا للدعاية الاسماعيلية الفاطمية وهى عبارة عن جامعة أدبية فلسفية وكان من أغراضها بث الدعوة الفاطمية فى انحاء العالم الاسلامى ، وقد أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م . انظر: عمر أبو النصر : قلعـــة الموت ص ٨١.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٤ .

(٣) Michaud, op. cit , t. III, p. 416

بعده ، وذلك طبقا لروايات المصادر السنية (١) . أما المصادر النزارية فقد نفت لقاء ابن الصباح مع الخليفة المستنصر . إذ يذكر الدكتور السيد محمد العزاوى نقلا عن الجوينى – المؤرخ الاسماعيلي – فيما أورده من سيره أبن الصباح من واقع مذكراته قوله «وبالرغم من أنى لم أحظ بحضره المستنصر كان واقفا على حالى وامتدحنى مرات» (٢) .

ولعل الرأى الأول المؤيد للقاء أبن الصباح بالخليفه المستنصر هو الصحيح إذ ما المانع من اتمام هذا اللقاء ، خاصة وأن من أهداف زيارته إلى مصر الالتقاء بالخليفة . ثم أنه لا يوجد مصدر سنى واحد كان أم شيعى يشك فى سفره ووصوله الى القاهرة . فضلا عن أنه كان من مصلحة الخليفة الالتقاء بابن الصباح والاجتماع به خاصة إذا عرفنا أن ابن أبن الصباح كان مؤسسا لفرقة شيعية جديدة ستتخذ منه ومن أولاده فيما بعد أئمة لها فمن الطبيعى أن يتم مثل هذا الاجتماع . ومما يدعم هذا الرأى أن طول إقامته بالقاهرة ، وهى ثمانية عشر شهرا لابد وأن تتيح له فرصة اللقاء .

أما عن نفى المصادر النزارية القاطع لحدوث هذا اللقاء ، فربما يكون مقبولا لو أنه كان صادرا من جهة المصار السنية التى من مصلحتها دائما

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٣٣٩ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٧٢ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٦ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ لوحة ٤٧٣ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ٢٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك – تحقيق محمد الشماع جـ ٤ ص ١٥١ .

(٢) السيد محمد العزاوى: فرقة النزارية ص٣٤ . وانظر أيضا كتاب برنارد لويس:
Lewis, Arabs in History, P 148.

التشويش على كل مايتعلق بالتاريخ الشيعي ولكن مجرد اتفاق هذه المصادر على حدوث هذا الاجتماع يعتبر كافيا للتصديق عليه .

أقام ابن الصباح في مصر عاما ونصف ، ولكن أثناء وجوده بها دب الخلاف بينه وبين الوزير الأفضل بسبب انحيازه إلى جانب نزار ، واستطاع الافضل الزج به فى سجن دمياط ثم فكر فى نفيه إلى المغرب حتى لا يكون مصدر خطر عليه . فأرسله على إحدى المراكب المتجهة هناك ، ولكن قامت عاصفة كادت تطيح بها وانتهى الامر بها الى الرسو على الشواطىء السورية مما سهل له الهرب إلى فارس . ومر أثناء رحلته من سورية الى فارس بحلب ثم بغداد ومنها الي قوهستان فاصبهان وكارامنية ناشرا دعوته اينما حل(1) وبعد وصوله إلى فارس دعا للمستنصر ولابنه نزار من بعده فسميت هذه الفرقة بالنزارية لهذا السبب .

ولقد استطاع ابن الصباح الاستيلاء على العديد من الحصون والقلاع ولعل أهمها هى قلعة الموت (1) التى اتخذها مركزا لنشر الدعوة . وثمة

Michaud, op. cit. Loc. cit. (1)

انظر أيضا طه شرف : دولة النزارية ص ٥٥ ، عبد الله عنان : تراجم اسلامية ص ٤٥ .

(٢) تقع فى احدى الوديان المنيعة فى الشمال الغربى من قزوين ، وقد قيل فى امر بنائها أن ملكا من ملوك الديلم ويسمى شمس الملوك كان كثير الصيد ، فأرسل عقابه وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة فأعجب به وأمر ببناء القلعة فى نفس المكان . وسماها « اله موت » ومعناها بالديلمى تعليم النسر . انظر الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٤٠ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ١٣١ ، القزوينى : آثار البلاد ص ٢٠٠ ، النويرى نهاية الارب ج ٢١ لوحة ٥٢٧ ، العينى : عقد الجمان ؛ ج ٢٠ لوحة ٥٢٦ ، دائرة المعارف الاسلامية : مادة الموت ـ المجلد الرابع (طبعة ١٩٧٢)ص٢٩

روايات عديدة حول سقوط هذه القلعة فى أيدى الباطنية ولكنها لاتختلف فيما بينها . ولعل الرواية التى تجمع عليها المؤرخون هى أنه بعد عودة الحسن ابن الصباح إلى فارس بدأ فى البحث عن إحدى القلاع الحصينه لتكون مركزا يبث منها الدعوة . فلما رأى قلعة الموت ومناعتها طمع فيها وبدأ يخطط من أجل الاستيلاء عليها ـ فأقام بالقرب منها وأخذ يدعوا أهل النواحى سرا لقبول دعوته ، وأظهر الزهد فتبعه أكثرهم ومن بينهم صاحب القلعة وهو علوى وكان دائما يجلس بجواره ويتبرك به . فلما تمكن ابن الصباح من موقفه دخل يوما القصر على العلوى وطلب منه الخروج وتركها ، فتبسم العلوى وظنه يمزح ، فأمر ابن الصباح بعض أصحابه باخراجه فأخرجوه ، وأعطاه مالا ، وملك القلعة فى رجب سنة ٤٨٣هـ / أكتوبر ١٠٩٠م(١) .ومن هذا ابتدأت نواة الدولة الجديدة التى استمرت قرنين من الزمان .

ولقد كان ظهور هذه الدولة ضربة موجهه إلى سلاطين السلاجقة لأنها أصبحت مصدر خطر بالنسبة لهم . فحاولوا إخضاعها ، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل وكان ذلك أيام السلطان ملكشاه وابنه السلطان سنجر (٢) .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل : جـ ١ ص ٢٤٠ ، ابن الاثير الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٣٦ راجع أيضا : عباس العقاد : فاطمة الزهراء ص ١١٣ ، عمر أبوالنصر : قلعة الموت ص ٥٥ ، السيد المزاوى : فرقة النزارية : ص ٩٠ ومن المراجع الأجنبية أنظر :

Ency. of World History, William Langer, p. 272, Archer, The Crusades, p. 245, Lewis, Arabs in History, p. 149.

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٤ لوحة ٥٤٢ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ لوحة ٥٢٣ أنظر أيضا :

Browne, Literary History of Persia, t. II, p 300, Runciman, op. cit, t. II, p. 120.

بدأت قوة الباطنية السياسية الفعلية بعد استيلائهم على قلعة الموت . وأول ما عرف من نشاطهم كان فى أيام السلطان السلجوقى ملكشاه فى بغداد ، حيث اجتمع ثمانيه عشرة منهم فى ساوة (١) بعد صلاة العيد ، فلما فطن بهم قبض عليهم وحبسهم ثم اطلقهم . ثم دعوا بعد ذلك مؤذنا من أهل ساوه كان مقيما بأصبهان ، ولما لم يجبهم إلى دعوتهم قتلوه حتى لا ينكشف أمرهم وكان هذا هو أول قتيل لهم (٢) .

ولم يلبث أن بدأ صراع مذهبي عنيف أدى إلى انشقاق الطائفة الاسماعيلية عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ / ٢٩ ديسمبر ١٠٩٤م ويعتبر هذا الصراع من أشد مامنيت به الخلافة الفاطمية طوال تاريخها ، وكانت له آثاره البعيدة المدى على الفترة موضوع البحث . فقد بادر وزير مصر الفاطمي الافضل عقب وفاة المستنصر بدخول القصر وأجلس أبا القاسم بن المستنصر على سرير الخلافة ولقبه بالمستعلى وكان عمره حينذاك سبعة عشر عاما ، ولكن لما علم نزار بذلك رفض مبايعته وقال « والله مابايعت من هو أصغر منى سنا وخط والــدى معى ولى عهده » ، ودارت مناوشات بين الافضل ونزار انتهت في مدينة الاسكندرية بالقبض

---

(١) هى مدينة تقع بين الرى وهمذان وأهلها سنية شافعية ، وتقرب منها مدينة اوه حيث بينهما فرسخان وأهلها شيعة امامية ، وكانت فى قديم الزمان على ساحل بحيرة فاضت عند مولد النبى محمد . انظر مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقــاع ـ نشر T.G.J. Juynboll جـ ٢ ص ٦ ، القزويني: اثار البلاد ص ٢٥٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٣٠ ، العينى : عقد الجمان جـ٢٣ لوحة ٥٢٢ .

على نزار وسجنه ، وقيل أنه بنى حوله حائطان إلى أن مات (١) . وتشير المصادر الاسماعيلية النزارية إلى أن نزار تمكن من الهرب سرا وإتجه إلى فارس حيث استقر بها وأسس الدولة النزارية هناك(٢) .

كيفما كان الأمر ، فقد رفض ابن الصباح الاعتراف بامامه المستعلى بل أخذ يدعو إلى نزار (٣) ومن هنا انشقت الطائفة الاسماعيلية إلى قسمين : الأول يضم الفريق الذى ينادى باحقية نزار فى الخلافة وقد سمي هؤلاء بالنزارية ، وهم أقل من الاسماعيلية عددا ، وقد نشروا فى أنحاء الشام وفارس وقوهستان وأتخذوا من قلعة الموت مركزا وعاصمة لهم (٤) ، أما القسم الثانى

---

(١) الاصفهانى: البستان الجامع لتواريخ أهل زمان لوحة ٩٩ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٦ لوحة ١٠٤ ، ابن أيبك : در التيجان وغرر تواريخ الأزمان ورقة ٤٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٢ ص ١٤٨ . ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٦ ، المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٥ ص ١٤٥ ، ابن ابى سرور : عيون الاخبار ونزهة الابصار لوحة ١٥١ ، جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٢١ .

(٢) تم العثور على مخطوط اسماعيلى فى بيت أحد مشايخ الاسماعيليين فى قلعة القدموس يسمى كتاب «الاخبار والآثار» للداعى المغربى : محمد ابى المكارم ، وهو يحكى أن نزار هرب متخفيا فى زى تاجر واتجه الى سجلماسه حيث مكث عند عمته بضع أشهر ثم اتجه الى الموت واستقر فيها وأخذ يعمل مع ابن الصباح على تأسيس الدولة النزارية هناك ولكن أصابه المرض فمات سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧ م بعد أن نص بولاية ابنه . انظر انظر مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ١٨٣ .

(٣) Encyc. Brit., t. II, p. 627.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٨ ، المقريزي : الخطط ج٢ =

فيضم أغلب الاسماعيلية وأتباعه هم المؤيدون لإمامه المستعلى بعد أبيه وأطلق عليهم اسم المستعلية نسبة إلى المستعلى بالله أو البهرة نسبة إلى إتخاذهم التجارة مهنة رئيسية لهم .

ومهما يكن ، فبعد أن نجح ابن الصباح فى تأسيس دولة الباطنية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) واتخذ من قلعة الموت عاصمة لهذه الدولة أخذ يبث منها الدعاه ويعمل على نشر الدعوة الاسماعيلية وتعزيزها وقد قدر لتلك الدولة أن تهز عروش الملوك والسلاطين ، كما كانت مصدر قلق وخطر للقوتين المتحاربتين فى منطقة الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) وهما الصليبيين والمسلمين . وكان أول مافعله ابن الصباح عقب تأسيس دولته هو وضع نظم خاصة بها اتسمت ببراعة فائقة فى الاعداد إذ نظم جماعته تنظيما كاملا أساسه مبدأين هما السرية التامة والطاعه العمياء[1]. وأن التعرف على هذه النظم وتلك العقائد سوف يلقى الكثير من الضوء على سياسة اسماعيلية الشام حيال الصليبيين والسنيين على السواء خلال الفترة موضوع البحث .

قسم الحسن جماعته الى مراتب ودرجات ، وجعل أصحاب هذه المراتب جميعا يتجهون إلى هدف واحد هو تقديس إمامهم المستور أو نائبه . كما أنه قصر مهمة حمل السلاح على جماعة واحدة ممن اشتهرت بالقوة الجسمانية ،

— ص ٢٧٧ ، عادل العوا : منتخبات اسماعيلية ص ح ط وانظر أيضا :
Setton, History ef the Crusades, t I, pp 10: - 102.

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٤٤١

وأعضاء هذه الجماعة هم الفداوية الذين يضحون في سبيل إمامهم ، ويعتبرون الاداة الفعالة للدولة . وفيما يلي عرض مركز لمراتب الدعـوة :

اولا : مرتبة شيخ الجبل

إبتدع الحسن بن الصباح هذا المنصب وظل يتمتع به هو وخلفاؤه من بعـده ، ورغم أنه كان يتمتع بكل ما كان للملوك والسلاطين ، فـلم يلقب نفسه بلقب ملك أو سلطان ، بل كان يفضل لقب « مولانا » أو « سيدنا » ولكن كان أكثر القابه شيوعا هو « شيـخ الجبل » وبخاصة خارج نطاق جماعتـه ومن قبل الصليبيين على وجه الخصوص(1) . ولا تدل هذه التسمية على كبر سن صاحبها ، بل نظرا لأنه كان يتخذ من الجبال مستقرا له ولاتباعه وكان شيخ الجبل يجمع بين يديه إدارة شئون الدعوة والدولة معا ، ويصدر تعاليمه إلى أتباعه في فارس والشام وغيرها من البلاد (2) . وقـد وصـل الاسماعيلية في طاعته وأمثال أوامره على حد قول ابن جبير « بحيث يأمر شيخ الجبل أحـدهم بالتردى من شاهـق جبل فيـتردى ويستعجـل في مرضاته » (3) .

---

(1) طه شرف : دولة النزارية . ص ٧٦ ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٤٧ ، ميخائيل شاروبيم : التآليف في مذهب أهل التوحيد ص ١٠ أنظر أيضا :

Michelet. History of France, t. 1, p. 282, L'ABBé de Vertat, Histoire de L'ordre des chevaliers, t. I, p. 130.

(2) طه شرف : دولة النزارية ص ٧٣ .

(3) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٣٤ .

ثانيا : مرتبة كبار الدعاة :

كان العالم الاسماعيلي ينقسم حينذاك إلى ثلاثة أقسام هي الشام وقوهستان واقليم رودبار جنوبي بحر قزوين . وكان على رأس كل واحد ممن هو أهل للثقة ومهمته نشر الدعوة الاسماعيلية في الجزء التابع له ويكون رئيسا للدعوة سياسيا ودينيا في اقليمه ويكون خاضعا خضوعا مباشرا للرئيس الأعلى في الموت ، ومن هؤلاء كان يختار شيخ الجبل[١] .

ثالثا : مرتبة الدعاة .

وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم وطاعتهم ويشترط فيهم أن يكونوا قادرين على نشر مبادىء الدعوة ويتبعون كبار الدعاه . وكانوا يتلقون تعاليمهم في الموت حيث المركز الرئيسي لتخريج هؤلاء الدعاة ، ومهمتهم دعوة الناس إلى مذهبهم وأرشادهم إلى طريقهم . وكانوا يستقرون مع كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة السابق ذكرها ، وكان يقع الاختيار على الموهوبين منهم لشغل مرتبة كبار الدعاة (٢) .

رابعا : الرفاق

تفقهت تلك الطبقة في أصول المذهب الاسماعيلي ، ورغم ذلك لم يؤدن لا قرارها

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥١ ، عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٤٧ ، سيد أمير على : تاريخ مختصر العرب ص ٢٧٤ .

(٢) Rapin, History of England, p. 252

انظر أيضا ، حسن ابراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٦٩ ، طه شرف : الدولة النزارية ص ٨١ .

بنشر الدعـوة وكل مهمتهم هي التفاني في المحافظة على جماعتهم ومذهبهم . ويمكنهم الوصول إلى مرتبة الدعاة بعـد إمتحانات وإختبارات طويلة الامد وشاقة (١) .

خامسا مرتبة الفداوية :

رأى الحسن بن الصباح أنه لن يستطع تحقيق أطـماعه ألا بانشاء مرتبة يصبح أفرادها أداة صماء في يديه يوجههـا حيثما شاء دون أن يسألوا أو يحاسبوا ويكرسون أنفسهم من أجل تحقيق رغباته . وكانت هذه هي طبقة الفداوية . وكان لا يشترط في الفـداوي التعمق في أصول المذهب ، أنما يشترط فيه التفاني في طاعة رئيسه حيث يضحي بنفسة في سبيـل ارضائه . ولقد وصف براون الفـداوية بأنهم ملائكة النقمة وأداة الانتقام الفعالة في أيدي رؤساء النزارية (٢) .

وجدير بالذكر أن المصادر الاسماعيلية لم تقدم أية تفصيلات عن كيفية اختيارهم وتدريبهم ، و يمكن الاستعانة في ذلك ببعـض الاشارات المبعثرة التي وجدت في الكتب الحديثة في هذا الشأن . إذ كان شيـخ الجبل يحضر الشباب صغيري السن من صفوة أبناء الجبال المحيطة ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين وممن تتوافر فيهم الشجاعة والقوة البدنية ، ويرسلهم إلى منازل الدعاة والمقدمين فيربون على مبادىء المخاطرة والتضحية واحتقار

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٠٢ انظر أيضا :
Browne , op. cit., t. II, p. 206.

(٢) Browne, op. cit. Loc. cit.

الحياة البشرية فضلا عن اقناعهم بالطاعة العمياء لأوامر زعيمهم (١) وكانوا يقومون بتمرينات شاقة وعنيفة ويدربون على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة فى التضحية (٢) ولقد عمل شيخ الجبل على تعليمهم لغات مختلفة فضلا عن مختلف العلوم الفلسفية واستعمال كافة أنواع الأسلحة والتدرب على الفروسية لخدمة الملوك عند اللزوم . (٣) وكانوا دائما ملثمين بحجاب لايمكن اختراقه ، وتلازمهم خناجرهم الحادة المسموحة التى كانوا ماهرين فى استخدامها (٤) .

و ن الفداويه يطيعون زعيمهم إلى درجة كبيرا جدا وكانوا يسافرون إلى أماكن بعيدة من أجل تنفيذ أى عملية اغتيال يطلب اليهم تنفيذها (٥) ومما

---

(١) Michaud, op. cit. t. III, p. 4?1, Marco-Polo, Travels p 75, Guyard, Un Grand Maitre des Assassins, p. 314.

وانظر أيضا : طه شرف : دولة النزارية ص ٨٩ ، عباس العقاد : فاطمة الزهراء ص ١١٦ ، عمر أبو النصر : قلعة الموت ص ١٢٣ .

راجع اللوحة رقم (١) ص ٦٧ وهى لاثنين من الفداوية أثناء تلقيها الاوامر من شيخ الجبل .

(٢) Setton, op. cit, t. I, p. 108, Encyof Islam, Art Fedawis t. II, p. 97, 19 7.

(٣) Felix Fabri, The Book of the wondering, Cf, Palestine Pilgrims' Text Society, t. II, P. 390.

(٤) Ambroise, The Crusade of Richard, P. ?38, Lndlow, The Age of the Crusades, P. 229, Besant and Palmer, The History of Jerusalem, P. ?6, Thatcher and Schwill, Europe in the Middle age, p. 94.

(٥) Burchard, Description of the Holy Land, CF. Palestine Pilgrims Textsociety, t. II, p. 105, Roger of Wendover, Flowers

لوحة رقم (١)



لوحة لاثنين من الداوية أثناء تلقيهما الأوامر من شيخ الجبل كما تخيلها المؤرخ بول لاكروا انظر:

P. Lacroix. Chevalerie et les Croisades, p 227.

لاشك فيه أن هذه الطاعة العمياء التي كان الفداوية يقدمونها لزعيمهم لابد وأن يكون هناك حافز يشجعهم عليها ، ويجعلهم يتهافتون ويتنافسون على أرضاء زعيمهم . وفيما يتعلق بأصل هذا الحافز قيل أنه بعد أن حصل بن الصباح على ممتلكات قلعة الموت وضمن استقراره في المنطقة عمل على شق قناة وملئها بالمياه وزرع حولها حـــدائق غناء بها أشهى الفواكه وأذكي الازهار والورود . وحرص أن تكون بها كل صفات الجنة ، فأنشأ بها القصور المختلفة الاحجام في أجزاء متعددة وزينها بالذهب والاواني الذهبية والفضية والبلورية وابتدع أنهارا من الخمر واللبن والعسل وأخرى من الماء النقي وأسكنها بنخبة من أجمل العذارى والظفاء اللائي يجدن فن الغناء والرقص والعزف على الآلات الموسيقية كما أسكنها أيضا بعض الغلمان الظرفاء وغير ذلك من المغريات التي جاءت في وصف جنة . وأوهم إتباعه بأنه قادرا على إدخالهم الجنة إذا ما نفذوا أوامره دون تردد أو مناقشة (١) .

وقد أيد الرحالة ماركوبولو البندقي (٦٥٢ – ٧٢٥هـ/١٢٥٤ – ١٣٢٤م) هذا الوصف حيث زار هـذه المنطقة فيما بين عامي ٦٧٠هـ ٦٧١هـ/١٢٧١ –

---

of History, t. II, P. 501, Treece, The Crusades, P. 136, Runciman, op. cit. t. II, p. 120.

Michaud, op cit t III, p. 422, Lamb, The Crusades, (١) p. 31, Conder The Latin Kingdom of Jerusalem, pp. 229 - 230.

لمزيد من التفصيلات انظر : ابن الجوزي: تلبيس أبليس ص ١١١ ، السيد العزاوي فرقة النزارية ص ١٣ ، عمر أبو النصر : قلعة الموت ص ١٢٠ .

١١٧٢م ـ أيام حكم شيخ الجبل علاء الدين ورأى هـذه الجنة بنفسه (١) : وأضاف بأنه لم يكن يسمح بدخول هـذه الحديقة إلا للفداوية وبأمر من شيخ الجبل نفسه ، وكان على مدخل الحديقة قلعة عظيمة صعبة المنال يتعذر اقتحامها وليس لها مدخلا آخر (٢) .

وقدم المؤرخ الفرنسي ميشو وصفا يظهر فيه عنصر المبالغة عن جنة الحشيشية فيذكر أنه يوجد عند مدخل هذه الجنة ثمانية أبواب تؤدي إلى عدد من الحوائط وفي كل حائط سبعون ألف روضة ذات رائحة زعفرانية ، وفي كل روضة يوجد سبعون ألف قصر ، وسبعون ألف رواق مصنوع من الياقوت الأصفر ، وفي كل رواق سبعون ألف صالون من الذهب ، وفي كل صالون سبعون ألف قبة من الكهرمان وسبعون ألف منضدة مصنوعة من الفضة وعلى كل منضدة يوجد سبعون ألف طبق شهي . فضلا عن وجود سبعين ألف ينبوع من اللبن والعسل الأبيض ، بالاضافة إلى خيم أرجوانية اللون يداخلها نساء جميلات (٣) .

. مما لاشك فيه أن هـــذا الوصف أقرب إلى الخيال والأساطير منه إلى الحقيقة التاريخية ، فضلا عن أن الامكانيات البشرية حينذاك تقف عاجزة أمام

---

(١) Marco-Polo, Travels, p. 7?, Beeant and Palmer, op. cit., p. 36?.

انظر أيضا ، ميخائيل شاروبيم : التاليد في مذهب أهل التوحيد ص ١١ .

(٢) Marco-Polo, Travels, p. 76.

وانظر أيضا فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) Michaud, op. cit., t. III, p. 4?9.

لتنفيذ مثل هذا الإبداع . ويبدو أنه وصف مجازى وكناية للتعبير عن جمال الدقة وحسن النظام الذى اشتهرت به هذه الطائفة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان شيخ الجبل يدعو عشرة أو أحد عشر من الفداوية لمائدة الطعام وبعد أن يتسامر معهم بعض الوقت يعطيهم مشروبا مخدرا ما لعله من نبات الحشيش مما جعل اسم الحشيشية يلتصق بتلك الطائفة الاسماعيلية فى التاريخ (١) . فاذا مافقدوا وعيهم يقوم بنقلهم إلى تلك الحدائق الغناء . وإذا عاد الفداوى منهم إلى رشده وجد نفسه فى أجمل الجنات ووجد كل الملذات التى يتمتع بها بحيث يكون على يقين بوجوده فى الجنة . وبعد انقضاء أربعة أيام أو خمسة على هذا الحال يعادون مرة أخرى وبنفس الطريقة أى طريقة التخدير إلى ذات المكان الذى كانوا فيه فى مجلس شيخ الجبل . وبعد العودة إلى وعيهم يجدون شيخ الجبل بجانبهم فيسألهم أين كانوا فيجيبون أمام الحاضرين من رجال البلاط بأنهم كانوا فى الجنة ، ويبدأون فى وصف ماشاهده تفصيليا . وعندئذ يخاطبهم زعيمهم قائلا : « إذا كرستم أنفسكم لطاعة أوامرى سوف تجدون السعادة فى انتظاركم وسوف يحملكم ملائكتى إلى الجنة للتمتع بها (٢) لكل هذا كان هؤلاء الفداوية يرحبون بالموت ، بل

---

(١) كثر النقاش حول هذه التسمية ومدى ارتباطها بطائفة الاسماعيلية وسنتعرض لذلك فى شىء من التفصيل فى الصفحات التالية .

(٢) Michaud, op cit., t. III, p. 422, Marco-Polo, op. cit, pp. 75-76, Campbell, The Crusades, p. 244, Lamb, op, cit, p. 249, Besant and Palmea, op, cit., p, 302, Conder, op, cit., p. 312 Guyard, op. cit., p. 342.

انظر أيضا : فيليب حتى: تاريخ العرب — ترجمة مبروك نافع ، الجلد الثانى ص ٧٥٠ —

لعل هذا يفسر سبب اقدامهم الجسور على اغتيال الشخصيات الصليبية والإسلامية أثناء الصراع الصليبي الاسلامي فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) بل وحتى انتهاء سطوتهم ودولتهم فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى) .

وفى الواقع رغم تأكيد الرحالة ماركو بولو كشاهد عيان لوجود جنة الحشيشة إلا أنه لا يوجد أى دليل يؤكد صحة ذلك . ويعلل الكاتب كرندر ذلك بقوله أنه يحتمل أن يكون هذا الوصف عبارة عن حلم يتراءى لهم نتيجة لتعاطيهم الحشيش (١) وهنا نتساءل عما إذا كان هذا الغرض أو الاحتمال ينسحب على فداوية شيخ الجبل ، وما هو التبرير الذى يمكن الرد به على رواية ماركو بولو كشاهد عيان لهذه الجنة ؟ ربما يكون الرحالة البندقى قد سمع هذا الكلام أثناء أسفاره وسجله فى رحلته المدونة حتى لقد يبدو لمن يقرأ كتاب رحلاته أنه قد رأى جنة الحشيشية رأى العين . ولعله كانت توجد بالفعل بساتين زاهرة يانعة تجرى فيها المياه وبداخلها كل ما تشتهيه النفس وقدم لها عنصر المبالغة بحيث أصبحت أقرب إلى الأساطير والخيال منها إلى الحقيقة . وهذه كلها مجرد احتمالات لا يوجد تحت أيدينا ماينفيها أو يؤكدها بصفة نهائية حاسمة (٢) .

أما الكاتب عباس محمود العقاد فهو يرى استبعاد وجود أصل لهذه الجنة

= ، طه شرف : دولة النزارية ص ٩٣ ـ ٩٤ ، عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٥٣ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٧٤ .

(١) Conder, op. cit., p 230.

(٢) Ency. Brit, t. II, P. 621

المزعومة لأنها لم ترد فى كلام أى مؤرخ اسلامى قديم ، كما أن المؤرخين العرب المحدثين لم يشيروا فى كتبهم إلى أى مصدر من المصادر الإسلامية التى تؤكد وجودها . ولو كانت هناك أى أشارة اليها فى أى مصدر من مصادر الشرق الإسلامى لكان الكتاب العرب المحدثون هم أولى بأبتداعها من الكتاب الغربيين ويرجع الكاتب أن هذه الجنة من نسج خيال الروايات الصليبية، لأن الصليبيين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى التقليل من شجاعة المسلمين فأنتهزوا فرصة تكوين هذه الدولة الاسماعيلية الجديدة بنظمها الغربية وأشاروا بأن أهلها يستميتون فى الجهاد لأنهم يوعدون بالجنة التى أنشأها لها زعيمهم (١) .

وإذا رجعنا إلى الرأى القائل بأن اقبال الفداوية على تدخين الحشيش يجعلهم فى وضع يغلب عليهم فيه الخيال على الحقيقة فيتصورون أشياء ومناظر ليس لها وجود ، نجد أن فكرة الجنة ليست مقبولة ، لأنه ليس من المعروف على مدخن الحشيش أن يحتفظوا بوعيهم ويفقده فى أن واحد وأن يلتبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس الذى يصور لهم جميعا وصفا واحدا للجنة ونعيمها فضلا عن أنه قد ثبت طبيا أن مدمن الحشيش لا يستطيع القيام بأعمال بطولية بل يستولى عليه الجبن والخوف ، وهذا ليس بصفات البداوية .

وحيث أنه لا يوجد دليل واحد يثبت وجودها ، فضلا عن انه لا توجد اية اشارة عنها ولو بين ثنايا السطور فى المصادر الاسلامية ، فاننا نميل إلى إلى الأخذ بتعليق الأستاذ العقاد ، وذلك من حيث عدم وجود الجنة وجودا ماديا ملموسا بالوصف الذى وصفت به . إلا أننا نرى أيضا احتمال وجود هذه الجنة

---

(١) عباس العقاد : فاطمة الزهراء ص ١١٥ – ١١٦ .

فى خيال بن الصباح الذى يكون قد تمكن من التأثير على اتباعه ذلك التأثير الذى يحدثه ماتسميه فى العصر الحديث « التنويم المغناطيسى » كأسلوب إساعده على تحقيق مآربة خاصة وأنه كان متفوقا فى الرياضيات وعلم الفلك والفسلفة فضلا عن براعته فى اتقان الحيل . فاذا ماوقع الفداوى تحت تأثير بن الصباح يقوم بشحن مخه بكل وصف للجنة الموجودة فى خياله ، فاذا استقيظ وعاد إلى وعيه يظل هذا الوصف عالقا فى ذهنه ويكون له بمثابة اليقين ينقلة إلى غيره من الفداوية وعلى هذا فإن اقناع الفداوى بوجود الجنة بالاضافة إلى ايمانه بضرورة طاعة الزعيم تنفيذا للعقيدة الاسماعيلية هما الحافزان له لتقديم الطاعة العمياء لشيخ الجبل وإذا افترضنا أن ابن الصباح وحده الذى كان له القدرة على استخدام أسلوب التأثير القوى أو مايمكن تسميته تجاوزا التنويم المغناطيسى دون باقى شيخ الجبل فمعنى هذا أنه لم يكن لجنة الحشيشة وجود عند الفداوية بعد موت بن الصباح. ولكن رغم كل هذا لم يفقد شيوخ الجبل الآخرين طاعة فداويهم لهم حيث من دعائم عقيدتهم الطاعة العمياء . وإما بالنسبة لالتصاق الجنة بالطائفة الاسماعيلية على مر السنيين بعد موت بن الصباح فقد كان ذلك استنادا إلى وجودها ـ حسب وصف الفداوية لها ـ فى عهده .

وكان للفداوية أسلوب فى الاغتيالات ، فعندما يصدر اليهم الأمر باغتيال أحد الأفراد ، يذهب إذ ذاك اربعة منهم كجواسيس على الضحية وبطريقتهم الخاصة يندمجون مع رجاله واقاربه حتى إذا ماواتتهم الفرصة ينقضون عليه دون التفكير فيماسيلحق بهم من إضرارمن قبل إتباع المجنى عليه (١) . وكانوا

---

(١) Ambroise, op. cit., p. 236.

دائما ملثمين يقتلون غريمهم على مرأى ومسمع من الناس سواء كان فى المسجد الجامع يوم الجمعة إذا كان ضحيتهم أحد الامراء المسلمين ، أو فى الكنائس يوم الأحد إذا كان ضحيتهم أحد الامراء المسيحيين امام آلاف المصلين أو فى السوق العامة فى وضح النهار (١) . فمثلا كان اغتيال الخليفة الفاطمى الآمر (٥٢٤هـ / ١١٣٣م) امام عامة الناس حيث وثب عليه الفداوية وقتلوه أثناء مروره فى موكب عظيم تحميه الجيوش (٢) . وكانوا يندسون وسط الزحام ويثبون على غريمهم فى الفرصة والوقت المناسبين . فاذا فشل أحد الفداوية فى قتل الضحية يأتى الآخر ، فاذا فشل ايضا يكون الثالث مستعدا لكى تكون طعنته هى القاتلة وكانوا يقدمون على ذلك رغم علمهم بأن احتمال نجاتهم من القبض عليهم احتمال ضئيل جدا (٣) .

وكان الفداوية يتدربون على دراسة ميول الضحية وعادتها وتقاليدها وبرنامجها اليومى دراسة دقيقة تمكنهم من انجاز مهمتهم على خير مايرام . كما كانوا يتدربون على فن التنكر والتخفى ، فكانوا دائما يتنكرون فى زى الصوفية امعانا فى التخفى ، إذ من الطبيعى إلا يتوقع أحد شرا من رجال الصوفية (٤)

---

(١) السيد العزاوى : فرقة النزارية ص ١٠٣ .

(٢) عادل العوا : منتخبات اسماعيلية ص ١٠٣ .

(٣) Browne, op. cit., t, II, p. 209 Lamb, op. cit., P. 30.

(٤) Brocardus, Direct Orium Ad Passagium Faciendum, Cf. R. H. C. - Doc Arm., t, II, p. 496, Cf. Lamb, op cit, Loc. cit.

وكذلك السيد العزاوى : فرقة النزارية ص ١١٤ . والصوفية هم جماعة من الزهاد والمتقشفين ظهروا ابان القرنين الأول والثانى الهجريين ، وقد عرف هؤلاء تارة باسم الزهاد وتارة أخرى باسم النساك ، ثم عرفوا منذ أواخر القرن الثانى الهجرى باسم —

بل لقد تنكر الفداوية فى زى النساء عندما اغتالوا جوهر وهو رجال السلطان سنجر السلجوقى سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٠م(١) . كما تنكروا أيضـــا فى زى الخدم – حاملى المياه – الجمالين وغيرهم . وفى أحـوال أخرى كان أحدهم يتربص للضحية وقـد استبطن خنجره المسموم متظاهرا أمام الناس بمظهر الفقير المعدم المتصوف أو الشيـخ المتعبد ثم يطعنه عند سنوح الفرصـه طعنة قاتلة فى قلبه (٢).

ومن أساليبهم فى القتل أيضا تمثيل احـدهم دور الرجل الكفيف الذي يجلس على باب الدروب ، فاذا أمر أحـــد السابلة سأله الكفيف أن يصنع به معروفا ويأخذ بيده ليوصله إلى باب الدرب فاذا فعـــل الرجل ينقض عليه الفداوى ويأخذه إلى دار خصصت لإجتماعات الفداوية فيجردونه من ملابسه وما يحمل من متاع ثم يقتلونه ويلقون بجثته فى بئر أعد لذلك . ولكن الناس فطنو إلى حيلتهم هذه فيما بعد وأخذوا حذرهم منهم (٣).

وإذا كنا قد تحدثنا عن خمسة مراتب من مراتب الدعوة هى مرتبة شيخ الجبل ومرتبة كبار الدعاه ومرتبة الدعاه ومرتبه الرفاق ومرتبة الفداوية ، فلا

=الصوفية . وقيل أنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يلبسون الصوف ، وقيل لأنهم دنوا بصفاء نفوسهم . ولقد بدأ التصوف عندما وجـــد المسلمون أنفسهم أمام حضارات مختلفة بعـد الفتوح الاسلامية فأمعن كثير منهم فى الأخذ بأسباب الدنيا ، وفى مقابل هذا عكف فريق من المسلمين على الزهد والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . انظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى ص ٣٠ .

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ٥٤ .

(٢) عمر ابو النصر : قلعة الموت ص ١٣٣ .

(٣) ميخائيل شاروبيم : التاليد فى مذهب أهل التوحيد ص ١٣ .

تزال هناك مرتبتان آخريان لهما دورهما المتوسط بهما همـــا مرتبة اللاصقين ومرتبة المستجيبين . واللاصقون هم الذين يأخـذون العهد على الناس دون أن يكونوا لهم حق نشر الدعوة ، كما انهـم المستودع الذى يرشح منه الفداويـة . ولذا فهم يقومون بتمرينات شاقة تؤهلهم للدخول فى مرتبة الفداوية (١) .

والمستجيبون هم العامة أو المؤمنون المبتدئون وعملهم الرئيس زعزعة عقائد الناس ممن يخالفونهم فى المذهب (٢).

ولقد أرسى ابن الصباح بهذا النظام دعائم دولته ، وظل هذا النظام طوال حكم النزارية وهو الاساس الذى سار عليه خلفاؤه من بعده حتى نهاية الدولة على ايدى المغول سنة ٦٥٤ / ١٢٥٦ م . وفضلا عن هـذا النظام فقد اتخذ ابن الصباح من علم الفلك وسيلة لتنظيم أمور الدعاية بالدولة بحيث اصبحت الدعاية عاملا أساسيا فى نجاح طائفة الاسماعيلية . إذ جعلوا العالم مثل السنة الزمنيـة . فكما أن السنة مقسمة إلى اثنى عشر شهرا فقد قسموا العالم إلى اثنى عشر قسما وسمـوا كل قسم « جزيرة » كما جعلوا على كل جزيرة داعية وهـو المسئول الأول عن الدعاية فيها وخلعوا عليه لقب داعي دعـــاة الجزيرة أو حجة الجزيرة (٣). وكما أن الشهر ثلاثون يوما فأوجب أن يكون لحجة الجزيرة ثلاثون مساعدا لمساعدته فى نشر الدعوة واطلق على كل منهم اسم « نقيب »

---

(١) طه شرف : دولة النزارية ص ٨١ انظر أيضا :

Browne, op. cit,, t. II, p. 206,

(٢) طه شرف المرجع السابق ص ٨٢ .

(٣) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص١٩ ، محمد كامل حسين : طائفة الاسماعلية ص ١٣٣ ، محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ص ١٥٩ ــ ١٦٠.

وجعلوا تحت اشراف كل نقيب أربعة وعشرون داعيا بحسب عـــدد ساعات اليوم منهم اثنى عشر ظاهرين نهـارا واثنى عشر منهم مختفين ليـلا . وبعملية حسابية تقريبية نجد أن الدعاة الذين بثهم الاسماعيلية فى العـالم كان حـوالى ٨٦٤٠ داعيا في وقت واحد ، وذلك خلاف عدد آخر من الدعاة الموجودين فى مركز الدعوة مع الامام (١).

وثمة طرق ووسائل عدة لاجتذاب الناس إلى اعتناق المذهب الاسماعيلى . إذ كان يقع على عاتق دعاة النهار فى الجزيرة مهمة احراج العلماء والفقهاء امام الناس وكأنهم تلاميذ يريدون العلم فيسألون العالم اسئلة دينية يعجز عن الرد عليهـا ، ويبدأون فى السخرية منه . وعند ذلك يسرع الناس اليهم لمعرفـــة الاجابة ، وكانوا يعمدون إلى تركهم مـــدة ثم يعـودوا اليهم مرة أخرى ويتظاهرون أمامهم بأنه يوجد أحد كبار العلماء الافذاذ يستطيع الاجابة عن هذه الاسئلة ، ولم يكن هذا العالم سوى أحد كبار دعاة الاسماعيلية. فيلاطف السائل ويبث الطمأنينة إلى قلبـه دون أن يبرز اليه صفة مذهبه أو شيئا من عقائده . ثم يبدأ بعد ذلك فى زعزعة عقيدته عن طريق تشكيكه فى احكام الدين تمهيدا لتغيرها واستبدالها بالعقيدة الاسماعيلية كما أنه يطرح أمامه كثيرا من الاسئلة حتى يوهم المدعو بأن هناك أسرار يجب معرفتهـــا(٢) ثم يتركه دون أن يسعفه بالاجابة عنها ، فاذا الح المدعو صارحه الداعى بضرورة أخـذ

---

(١) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص١٣٤ ، محمد عبد الفتاح عليان : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٢-١٣ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٣ ٢٧ .

العهد عليه ويحيله إلى داعى الليل الذى يتولى أمره ويأخـــذ عليه العهد (١).
ويمتاز المدعو فى هذه المرحلة بضعف الارادة ، وهو ما يساعد الداعى على أن يخطو به إلى مرحلة الكذب والتمويه ، فنراه يدعى ادعاءات كاذبة تزيد من تعلق المدعو بالمذهب ، ويحاول الداعى أيضا اقناع المستجيب بضرورة معرفة المعنى دون ظاهره لأنه الحقيقة (٢). ويبقى على الداعى بعد ذلك تثبيت المعلومات والحقائق التى ادلى بها للمدعو وتقريرها فى ذهنه ، فاذا ما انتهى من ذلك يبدأ المستجيب فى التوقف عن القيام بتكاليف الشريعة الإسلامية ، ويسمى ذلك خلعا أو سلخا ، وعلى ذلك فالخلع معناه اقصاء المدعوين عن حظيرة المذاهب السنية وإن لم يكن عن حظيرة الإسلام نفسه . وعند هذه المرحلة يصل المدعو لمقابـــلة داعى الدعاة الذى له الحق وحده فى تعليم الناس التأويلات الباطنية للقرآن والاحاديث (٣)

وإذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن نظم الدعوة الاسماعيلية التى كان لهـا اثرها الكبير فى الدور الذى قامت به هذه الطائفة اثناء الصراع الصليبى الإسلامى

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٦٣ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٧١ ، طه شرف : دولة النزارية ص ١١٢ — ١١٣ . ويتضمن العهد معنى واحد يدور حول ضرورة كتمان كل ما يملى عليه من أسرار الدعوة وعقائدها فضلا عن الطاعة التامة للامام ، والا يخن الله ولا وليه ، ولا يوالى أحدا من اعدائه وأوليائه على هذا العهد حتى لا يكون بريئا منه الله ورسله وملائكته وامامه . انظر القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

(٢) عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ص ١٧٣ .

(٣) مصطفى غالب : اعلام الاسماعيلية ص ٢٠ — ٢١ ، طـه شرف : المرجـــع السابق ص ١١٠ .

فى فـــترة موضوع البحث ، فلا أقل من أن نتعرض إلى عقائد تلك الطائفة ولو فى اسطر قليلة لانهـا هى الأخرى كان لهـــا تأثير كبير فى علاقتهـا مع الصليبيين .

اعتمدت الدعوة الاسماعيلية فى اعماقها على عقيدة القرآن الكريم بل وعلى كل عقيدة كانت تكشف حينذاك (١) وقـد اختلفت العقيدة الاسماعيلية فى كل قطر عن الآخر ، ولعـــل ذاك يرجع إلى الدعاة فى البلدان المختلفة . فرغم أنهم كانوا يستمدون التعاليم من مصدر واحد ، إلا أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم بحسب شخصية كل منهم ومقدار فهمه للعقيدة ، فضلا عن اختلاف المجتمعات الاسماعيلية نفسها ولـكن رغم هـذا ، فانه توجد اسس لاختلاف بشأنها فيما بينهم جميعا (٢). فالامامة أولى هذه الأسس والمحور الذى تدور عليه العقائد الاسماعيلية ، ويشترط انتقالهـا من الأب إلى الأبن . وإذا حـــدث وفاة الأمام عن ولى عهد صغير لايستطيع تحمل أعباء الامامة يتم اختيار أحد الأشخاص المقربين له ويعهد اليه بتلك المهمة حتى يكبر ولى العهد. وهـذا الشخص يطلق عليه الامام المستودع تمييزا له عن الامـام الحقيقى ، مع مراعاة عـدم حقه فى توريث الامامة لاحد (٣) وهذا ، وتشترك جميع أفراد الطائفة الاسماعيلية فى الايمان بمحمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وتسلسل بالنص فى اعقابه .

وكانت دعائم الدين عندهم الطهارة والزكاة والصلاة والحـج والصوم

---

(١) Methew d'Edesse. Cf R, H. C. - Doc Arm, t, I, p. 1 9.

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٤٨ — ١٥٠ .

(٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ١٤٠ .

والجهاد والولاية . ولقد ذهبوا إلى أن لكل شيء ظاهر محسوس تأويلا باطنيا لا يعرفه إلا الأئمة الذين يلقونه بدورهم إلى كبار الدعاة ولكن بالقدر البسيط . كما أنهم أوجبوا الاعتقاد بالظاهر أيضا . كذلك كانوا يعتقدون بأن الإنسان بعد موته تنتقل روحه إلى أعلى ، فإذا كان مؤمنا بالإمام اندمجت روحه مع الملائكة ودخل الجنة وإذا كان غير ذلك دخل النار (١). وكان من أكبر الكبائر عندهم أن يرمي أحدهم أهل بيت النبي (صلعم) لاسيما الأئمة بكبيرة أو ينسبها أحد اليهم أو يوالي لهم عدوا أو يعادي وليا(٢).

على اية حال ، ظلت الطائفة الأسماعيلية تحتفظ بنظمها وعقائدها ا مدة تقرب من قرنين من الزمان كانت خلالهما مصدرا خطيرا للانحلال وسببا في اثارة الفرقة والخصام والنزاع ببلاد الشام في عصر الحروب الصليبية بصفة عامة ، وفي القرن الثاني عشر الميلادي على وجه الخصوص .

وإذا كنا قد تحدثنا عن المذهب الشيعي وفرقه ، وهو الذي انبثقت منه طائفة الاسماعيلية بالشام التي لعبت دورا خطيرا في الصراع الصليبي الاسلامي خلال القرنين السادس والسابع من الهجرة (القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديان) ، فان الأمر يستلزم التوقف قليلا أمام طائفة الشام بالذات قبل تحليل موقفها من القوى المتصارعة على مسرح الاحداث في الشرق الأدنى الإسلامي . فنعرض بايجاز إلى تعدد اسمائها وأهم قلاعها في بلاد الشام وإلى زعيمها « شيخ الجبل » الذي وردت الإشارة اليه في المصادر المعاصرة للفترة موضوع البحث من عربية وغير عربية .

---

(١) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٤٣ .

عندما يتطلع الباحث لدراسة تاريخ طائفة الاسماعيلية وعلاقتها بالصليبيين في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) يصطدم بأسماء عديدة أطلقها عليها الكتاب والمؤرخين القدامى والمحدثون من أهل الشرق والغرب على السواء فمنها الباطنية ، والحشيشية ، والملاحدة ، والسبعية ، والتعليمية ، إلى غير ذلك من أسماء ومسميات عديدة أخرى . وكانت التسمية الأولى أكثرها شيوعا وأستعمالا (١) .

ونظرا لأن الاسماعيلية - كما أسلفنا - كانوا يعتقدون أن لكل شيء ظاهر محسوس تأويلا باطنيا لايعرفه إلا الأمام وكبار الدعاة ، وأن الشخص الذي يدركه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب ، فقد أدى بهم هذا إلى تأويل أحكام الشريعة الإسلامية . فجعلوا لكل نوع من أنواع العقاب باطنا ، ومن أجل هذا عرفت هذه الطائفة باسم الباطنية(٢) . وسمي أتباعها أيضا بالملاحدة لأن مذهبهم كله الحاد (٣) . أما سبب تسميتهم بالتعليمية لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأى وافساد تصرف العقول ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم ،

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٤ ، ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٢ - ١٠٥ ، العيني : عقد الجمان جـ ١٠ لوحة ٥٣٣ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ حلب ٢٦٥ ، برنارد لويس أصول الاسماعيلية ترجمة خليل جلو ص ٧٦ ، انظر أيضا : Michaud, op. cit, t. III, p. 419.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٢ ، القلقشندي صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٤٥ ، العيني : عقد الجمان جـ ٢ لوحة ٥٣٢ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٠٠ .

(٣) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٥٨ القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٤٥ .

وأنه لايدرك العلوم إلا بالتعليم (١) . وفضلا عن ذلك فقد أطلق عليهم اسم السبعية ، ولقد لقبوا كذلك لسببين أحدهما هو أعتقادهم أن دور الإمامة سبعة وأن الانتهاء إلى السابع هو آخر الأدوار ، والثانى لقولهم أن تدبير العالم السفلى منوط بالكواكب السبعة وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة والشمس وعطارد ثم القمر(٢) . وأما عن تسميتهم بالأسماعيلية فذلك نسبة إلى إسماعيل أبن جعفر الصادق وهذه التسمية هى الآن الأكثر شيوعا فى المراجع الأجنبية والعربية .

وفى الواقع لم يكن هناك أى خلاف فى الرأى حول سبب تسميتهم بالاسماء سالفة الذكر ، وإنما كان الخلاف حول مدى التصاق اسم الحشيشية بهم . وقد تساوى فى هذا الخلاف المؤرخون الشرقيون والغربيون على حد سواء ، ولم يصلوا إلى نتيجة قاطعة مقبولة بشأنه . فثمة فريق يقول أن هذه التسمية مشتقة من كلمة Hasaniyin نسبة إلى الحسن بن الصباح (٣) . بينما يرى البعض الآخر أنها مشتقة من لفظ al - Assassin « العساسين » أى يعني حراس الليل حيث كان أتباعه خلال أوقات السلم حامين المدن من اللصوص . ويذكر فريق ثالث من المؤرخين أنها مشتقة من كلمة شاهنشاه (٤) .

وهناك رأي لعله أقرب التفسيرات إلى المنطق وهو أن كلمة « حشاشين »

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ص ١٠٥ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٣) طه شرف : دولة النزارية ص ١٠١ .

(٤) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ١٩٣ وانظر أيضا :
Jawad Al Muscati, Hassan Ibn Sabbah, pp. 130 - 10?.

محرف من كلمة « حساسين » من فعل حس . وحس في اللغة العربية معناها قطع أو استأصل الرأس ولانستبعد أن تكون السين قد انقلبت إلى شين مثلما حدث في كثير من الكلمات فأصبحت حش كما يحدث في لغتنا الحالية . وتكون هذه الكلمة قد حرفت إلى أساسين عند الصليبيين [1] . وقد وردت في المصادر اللاتينية والفرنسية القديمة المتعلقة بالحركة الصليبية تحت هذه التسمية .

أما الرأى الأخير الذى قيل فى تفسير هذه الكلمة هي أنها ترجع إلى تعاطيهم الحشيش سواء كان ذلك من تلقاء أنفسهم ، أو تعاطيهم هذه المادة المخدرة بما فيهم الفداوية من قبل زعيمهم ، حيث كان يأتى بأوراق شجر العنب أو الحشيش ويجهزها فى أشكال مختلفة كأن تكون على شكل مربات أو باستيليا أو حلوى أو شراب مسكر [٢] هذا بينما يرى البعض الآخر أن هذا الرأى لا أساس له من الصحة والواقع [٣] .

ورغم أن التسمية مازالت حتى الآن محل جدل ونقاش بين المؤرخين المهتمين بهذه الناحية ، إلى اننا لانميل إلى الأخذ بالرأى القائل بأن زعيمهم كان يعطى اتباعه هذه المادة المخدرة سواء لمرتبة الفداوية أو لباقى أفراد مجتمعه ،

---

(١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على الشام ص ٢٥٣ ، طه شرف : دولة النزارية ص ١٠٢ .

(٢) Eracles, l'Estoire de Eracles Empereur, Cf. R. H. C. – H. Occ., t. II, p 193, Cf, Michaud, op. cit., t. III, P. 420, Ency. Brit., t. II., P. 621, Archer, The Grusades, P. 245, Browne, op. cit. t. II, p. 206, Dussaud, La Syrie Anntique et Medièvale Illustrée, Planche, 1,2.

(٣) Ency. International, t. II, P. 20.

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا على الفور هـو لمصلحة من يفعل شيـخ الجبل هذا ؟ هل للسيطرة عليهم حتى يطيعونه طاعة عمياء ؟ أغلب الظن أن الاجابة لا تكمن فى هذا الرد لسبب بسيط وهو أن أساس العقيدة الاسماعيلية تقديم الطاعة العمياء إلى زعيمها . فهو ليس بحاجة إذا إلي افتعال وسيلة يحصل بها على هذه الطاعة طالما انه سيحصل عليها بموجب العقيدة نفسها .

أما إذا كانت هذه التسمية قد اطلقت عليهم لادمانهم هـذه المادة من تلقاء أنفسهم فهذا أيضا غير مقبول ، لأننا نعلم أن المجتمع الاسماعيلى كان منظما على اكمل وجه ، فليس من المعقول أن يكون أفراد هذا المجتمع ـ وهم احد عوامل نجاحه ـ يدمنون الحشيش . كما انه من المعـروف ان ابن الصباح قـد حرم شرب الخمر بين افراد مجتمعه حتى لا ينتشر الفساد بينهم ، ووصل به الامر إلى جلد ابنه حتى مات أمام أعين الناظرين لعلمه بأنه قد شرب الخمـر فى إحـدى المرات(١) . فما بالنا لو علم باقبال اتباعه على تعاطى الحشيش ، خاصة وأن عيونه كثيرة ومنتشرة فى انحاء مختلفة تأتيه دائما بالاخبار فى حينها .

وحتى لو أفترضنا أن ابن الصباح كان يخص فداويته دون غيرهم باعطائهم هذه المـــادة المخـدرة فى أى صورة كانت ، وذلك لتخديرهم وحتى يصور لهم متاع الجنة ، فيبدو انه كان يقدم على هذا فى سرية تـامة لا يعرفهـا غيره وبعض كبار دعاتـه الموثوق بهم حتى لا ينتشر أمر أستعمالهـا بين باقى أفراد مجتمعه الأمر الذى قد يترك اسوا الاثر من حيث فساد المجتمع الأسماعيلى الذى اشتهر بقوته وتكامل نظمه .

وطالمـا ان الامر كان سراً ولا يستخدم الا لفرقة الفداوية دون غيرها

---

(١) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ١٦٢ .

ودون ان يدروا هم أنفسهم بالحقيقة ، فكيف نمى إلى علم المؤرخين حقيقة الامر فنسبوا اليهم هذه التسمية ؟ وامام كل هذه الفروض والاحتمالات ليس هناك سوى طريقين لا ثالث لهما يمكن للمؤرخين ان يعرفوا عنهما هذا السر ، الاول ان يكون احد كبار الدعاه المعروف لديهم ما يحدث بالكامل فى شأن هذه الجنه قد اباح بالحقيقة ، وهـذا ما نستبعده لانهم يعتمدون اساسا فى مذهبهم على السرية التامة المطلقة . وهذا يعتبر من اكبر اسرار الدعوة ان ثبتت حقيقته ، وحتى لو حدث هذا فليس هناك دليل قاطع عليه . أمـا الطريق الثانى فهو وجود مخطوطة اسماعيلية او نقش على احدى القلاع يفيد به وهـذا ما لم يتم العثور عـليه حتى الآن ، واحتمال استبعاده قائم لنفس السبب .

ونخرج من هذا العرض بانه نظراً لما انتهينا اليه من استبعاد تعاطى هذه الطائفة بصفة عامة والفداوية على وجه الخصوص مادة الحشيش ونظراً لانه لا بد من وجود اصل لهذه التسمية يعزز ما ذهب اليه بعض المؤرخين ، فان هذه التسمية ربما تكون قد اتت من تعاطى احد زعماء الطائفة مـادة الحشيش ولو جهرا أمام اتباعه وذلك بوصفه الامام الذى خص دون غيره بعدم تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية عليه وبوصفه معصوما عن كل خطأ ، وأن كل ما يتلقاه أو يفعله انما هو من عند الله . ونظراً لأن المتعاطى للحشيش يعرف باسم حشاش ، فان الحشيشية تعنى أتباع الحشاش

وجدير بالذكر فى هـذا المقـام ان البعض يرى أن تسمية الحشيشية تطلق على الفرع الاسماعيلى بالشام دون سواه [1] .

---

(١) السيد العزاوى : فرقة النزارية ص ١٦٠ .

ولكن مما لا شك ان ابتداء الدولة كان فى فارس ومنها ظهرت طائفة الاسماعيلية الموجودة بالشام وكان ابن صباح هو أول من ابتدع استخدام الحشيش وإذا أردنا تخصيص تسمية الحشيشية فمن باب أولى قصرها على الطائفة الموجودة فى فارس دون الشام لأنها الدولة الام التى ظهرت فيها كل التنظيمات الآخرى والتى منها عرف الحشيشة أن صح التعبير . وتدعيما لهذا القول يرى الدكتور طه شرف أن نزاريه الشام وفارس سواء فى كل شيء وأنه لا معنى لهذه التفرقة (١) .

ولقد أطلق الصليبيون فى كتبهم وتسآ ليفهم اسم Hassassins (٢) على هذه الطائفة عندما دخلوا منطقة الشام واحتكوا بالمجتمع الاسماعيلى الموجود هناك حينذاك وذلك لكثرة أغتيالاتهم للامراء والملوك العرب والصليبيين على حد سواء . ولهذا السبب وردت هذه الكلمة فى المراجع الانجليزية والفرنسية الحديثة تحت اسم Assassins ولعل الصليبيين عندما أطلقوا هذه الكلمة كانوا يقصدون بها فرقة الفداوية بالذات كونها المختصة بتنفيذ عمليات الاغتيال وارهاب الناس . وعلى هذا كانوا يقصدون بها معنى القتله وهى مشتقة من الفعل الفرنسى «assassiner» والفعل الانجليزى to assassinates بمعنى يقتل

---

(٢) طه شرف : دولة النزارية ص ١٠٣ .

(٣) Guillaume de Tyr, C. R. H. C. - H. Occ, t. I, P. 791.

هذا وان كان هرقل قد عرفهم باسم Haississis انظر :

Eracles, op. cit., t. II, p. 193.

أما روتلان فيسميهم Hasrassis انظر :

Rothelin, t. II, p. 684

وبالنسبة لجوانفيل فقد اطلق عليهم اسم Assacis انظر :

Joinville (ed. Wailly), p. 248.

أو يقتل . ولكن بمرور الزمن اقترنت الطائفة الاسماعيلية بهذا الاسم ، وتحول في معناه حتى أصبح يطلق على الطائفة كلها .

وبناء على ذلك فان «الحشيشية» ولفظه «Assassins» كلمتان مترادفتان في مفهومها العام ، وذلك بعد اقتران اسم الطائفة بكلمة «assassins» . أما في في مفهومها الخاص فكل منهما معنى مغاير ، فالأولى تطلق على الطائفة كلها حسب الرأي الذى سبق أن أنهينا اليه . أما الثانية فتطلق على مرتبة الفداوية فقط لأن معناها ينطبق على وظيفة اعضاء هذه الفرقة وهو الاغتيال ، فضلا عن أننا لا نستطيع أن نطلق على كل أسماعيلي فداوى وانما كل فداوى هو اسماعيلي بطبيعة الحال . هذا ، ويشير الدكتور سعيد عاشور إلى أن بعض علماء اللغويات يؤكدون ان الفعل الانجليزى to assassinate بمعنى يقتل والاسم assassins بمعنى قتله مشتقان من كلمة الحشاشين ، وهى تلك الفئة من الفداوية والتى اشتهرت بالاغتيال فى عصر الحروب الصليبية كما ورد فى قاموس أكسفورد أن اصل هذا اللفظ الاوربى هو كلمتان «حشاش وحشيشية» العربيتان . ويدلل هؤلاء العلماء على رأيهم أن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه الحالى فى اللغات الاوروبية الا فى عصر الحروب الصليبية. (١) أما ستيفنس رانسيمان فيرى أنه نظراً لان ابن الصباح قد أتخذ من الاغتيال سلاحا سياسيا لتحقيق أهدافه فانه أطلق على أتباعه أسم assisins وهى مشتقة من الاسم assassination ومعناه الاغتيال (٢) .

وهكذا تعددت القاب الطائفة الاسماعيلية حسب الاقاليم التى وجدت فيها

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ هامش ص ٥٥٣ .

(٢) Runciman, op. cit., t. II, p. 120.

مثلما تعددت أسماؤها ومسمياتها فى بلاد الشام حيث مسرح الصراع بين الصليبيين والمسلمين.

ولقد وجد اسماعيلية الشام ضرورة الاستقرار فى اماكن منيعة قوية التحصين صعبة المنال حتى يتمكنوا من مزاولة نشاطهم وسياستهم ضد المسلمين والصليبيين على السواء . وكانت سياستهم فى الحصول على قلاع جديدة أما بالشراء أو باحتلالها (١) .

وكانوا يرسلون تباعهم إلى الحصون المنيعة المطلوب الاستيلاء عليها متنكرين فى زى الصوفية الفقراء لدراسة الحصن من حيث موقعه ومداخله ومخارجه وعدد حاميته وقوة سلاحه حتى يطمئنوا فى نجاح خطتهم فى الاستيلاء عليه (٢) .

كما اتخذ الاسماعيليون من قمم الجبال أماكن لانشاء قلاعهم . وكان شيخ الجبل يختار أشد القلاع حصانة وقوة ويتخذها مقرا له أو لنائبه ، وتمتاز هذه القلعة الأم بوجود الدعاة والفداوية فيها . أما القلاع الرئيسية فى جزر الدعوه ففيها يستقر كبار الدعاة ، وأما باقي الأعضاء فيتخذون من القلاع الأخرى العادية ملجأ لهم . (٣) ولقد ظلت قلاع الدعوة فى فارس معقلا للمذهب الاسماعيلى حتى دمرها المغول سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . أما قلاع الدعوة بالشام فقد استمر وجودها بعد ذلك قضى عليها بيبرس نهائيا سنة

---

(١) Lamb, op. cit., p. 31, L'Abbe de Vertot, Histoire de L'Ordre des Chevaliers, t. I, pp. 188 - 189.

(٢) عمر أبو النصر : قلعة الموت ص ٢١ .

(٣) Belloc, The Crusades, p. 277.

٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م (١) .

وكان ابن الصباح أول من خطط للاستيلاء على القلاع واتخاذها مقـرا للاسماعيلية ، إذ استولى على قلعة شاه دز بأصبهان ثم قلعة الموت سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م فضلا عن العديد من القلاع الآخرى الموجودة فى فارس . وبعدذلك اتجهت أنظاره إلى سورية حيث وجدها منطقة خصبة لنشر الدعوة . فبـدأ فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) فى ارسال دعاته إليهـا ، فعملوا كل جهدهم من أجـل الاستيلاء على عديد من القـلاع فى هـذه المنطقة لتكون مركزا لهم لتجمع دعاتهم وليبثون منها مبادىء الدعوة (٢) . واقاموا فيها كل وسائل الراحة والرفاهية ، وقد اكسبها وجودها على قمم الجبال قوة ومناعة . ومن أهم هذه القـــلاع مصياف والـكهف والخـوابى والقدموس والرصافة والعليقة والمينقة والمرقب (٣) .

أما مصياف فهى حصن حصين يقع على الساحل الشرقى قرب طرابلس (٤) . وتقع أيضا فى لحف جبل اللـكام (٥) الشرقى وعلى بعد ثلاثة أميـال جنوب

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢٧٨ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٥٤ .

(٣) A.O. L., t. II, P. 832.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٥٦ .

(٥) يبعد عن بعلبك في جهة الجنوب على مرحلة قوية ، وهو فاصـــل بين ثغور الجزيرة وثغور الشام وكان يدخل فى بلد الروم ويقال أنه ينتهى فيها الى نحو ٢٠٠ فرسخ ويسمى اللكام الى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى بهراء وتنوخ الى حمص ثم يسمى جبـل لبنان ويمتد على الشام حيث ينتهى الى بحر القلزم من جهة ويتصل بالمقطم من جهة أخرى أنظر أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٢٩ ، الاصطخري: المسالك والممالك ص ٥٩ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٨ .

بارين وعلى بعد رحلة يوم غربى حمص ، كما تبعد عن حماه فى جهة الغرب على مسيرة يوم ، وعلى هذا فهى تقع على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا غربها ، وعلى بعد تسعة أميال من جنوب شرق القدموس . وهي بلدة جميلة يمر بهـا نهر صغير وتحيط بها البساتين [١] . والقلعة منيعة ومبنية من الصخور الصلدة ومقامة على صخور عامودية ، ومقانيها صفراء اللون ، ويبلغ ارتفاع حوائطها ستين قدما . ومن الملاحظ أن الأحجار الكبيرة الداخله فى بناء القلعة مرتبة ترتيبـا دقيقـا بدون استعمال مادة الأسمنت (٢) .

وقد اختلف الكتاب فى صحة اسمها فالبعض يقـول مصيـاب ، والبعض الآخر مصيات ومصياد ومصياث ولكن أكثرها استعمالا هو مصياف (٣) . ولقد استولى الاسماعيلية على هـذه القلعة سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ - ١١٤١ م ، وكان يحكمها حينذاك مملوك لبنى منقذ أصحاب قلعة شيزر . ولكنهم احتالوا عليه . بحيلة دبرت له وصعدوا اليه وقتلوه وملكوا القلعة وظلت تحت ايديهـم حتى استولى عليها الظاهر بيبرس وضمها إلى ممتلكاته سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م (٤) .

---

(١) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، لى سترانج : فلسطين فى العهـد الاسلامى ترجمة محمود العمايرى ص ٧٥ ، راجـع أيضا:

Michaud, op. cit., t. III, p. 428, Dussaud, La Syrie Antique, Planche. 128.

(٢) Lamb, op. cit., p. 44, Guyard Un Grand Maitre P. 351

(٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٥٦ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٤ ، ابن الاثير : الـكامل جـ ١١ ص ٣٦ ، ابن قاضي شهبة : الدر الثمين في سيرة نور الدين لوحة ١٠٠ ، كارل بروكلمان تاريـخ الشعوب الاسلامية — ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس جـ ٢ ص ١٤١ انظر أيضا:

Grousset, Histoire de Croisades, II, p. 1[illegible] .

وكانت مصياف هى المركز الرئيسي للدعوة الاسماعيلية فى الشام وأهم قلاعها حيث كان يستقر فيها شيخ الجبل ، كما كان يتلقى فيها الفداوية تدريباتهم وفيها توضع الخطط الحربية كذلك كانت مصياف تتلقى موجات متواصلة من الاسماعيلية المضطهدين الوافدين من الشرق والغرب هربا من السلاجقة والصليبين ، فضلاعن أن الفداوية كانوا يخرجون منها لتنفيذ عمليات الاغتيال(١).

والمعروف أن قلعة مصياف تم تعميرها وتجديدها مرتين الأولى خلال حكم شيخ الجبل كمال الدنيا والدين الحسن مسعود سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م والثانية خلال عهد ابى الفتوح بن محمد سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ، وذلك طبقا للنقوش الموجودة على عتبة أسفل أحد الأبواب الداخلية للقلعة وينص على : « عمر هذا المكان المبارك في ايام المولى الصاحب كمال الدنيا والدين الحسن مسعود أدام الله ظلة » (٢) . كما انه يوجد نص آخر منقوش على كتلة حجرية يمين الباب الجنوبى للمدينة هو : « أمر بعمارة سور المدينة وعمل هذا الباب المبارك المولى الصاحب تاج الدنيا والدين أبو الفتوح محمد أعز الله نصره » (٣) .

وبعد مصياف تأتى قلعة القدموس واسمها بالرومية فالاتون (٤) وهى تقع

---

(١) الانصارى الدمشقي : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٠٨ ، مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٢٩٥ انظر كذلك:

Grousset, op. cit, t. II, p. 598. Berchem, Epigraphie des Assassins, pp. 455 - 455 - 456.

انظر اللوحة رقم (٣)

(٢) Berchem, op. cit., p. 431.

(٣) Ibid p. 456

(٤) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٦٥ .

على بعد تسعة أميال شمال غرب قلعة الخوابى وجنوب غربى شيزر على مقربة من ثغر بانياس (١). وكانت هذه القلعة تابعة لممتلكات بوهيموند الثانى صاحب انطاكية حيث استولى عليها سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ - ١١٣٠ م ونصب عليهـا سيف الملك بن عمرون ولـكن فى سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٣ م اشترى الاسماعيلية هذا الحصن من صاحبه ، وصعدوا اليه وحاربوا من جاورهم من المسلمين والصليبيين معا (٢) . وقد قيل فى شأن قلعة القدموس انه كان بها حمام يخرج منه حيات كثيرة فى شهرى تموز وآب لا يحصى عددها ورغم ذلك فانها لا تؤذى ولا يعرف مصدرها (٣) . ولقد اكتشفت طلاسم موجودة على عتبة باب القلعة عبارة عن ثعبان من النحاس الاحمر . وقد يكون هناك نوع من الارتباط بين هذه الطلاسم وبين القصة سالفة الذكر (٤) ومع ذلك يجب أخذ هذه الرواية بشىء من التحفظ لعدم وجود أدلة كافية تعززها اللهم إلا إذا كان المقصود من وراء ذلك التخويف والارهاب تمشيا مع سياسة الاسماعيلية وشيخها حيال الصليبيين والسنيين على السواء .

---

(١) Guyard, op. cit., p. 351.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبـار البشر جـ ٣ ص ٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٢٠٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحه ١٦٠ ، السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٣١٥ . انظر أيضا: Grousset. op. cit., t. II, p. 16, Runciman, op. cit., t II, p. 200, Setton, op. cit. t. I, p. 119 , Guyard, op. cit, p. 351.

(٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٦٦ ، الانصارى الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٨ :

(٤) الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٨ انظر أيضا Guyard op. cit., p. 365.

وهناك أيضا قلعة المرقب وهى قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس (١) . وقد بنيت على قبة جبل شاهق ارتفاعه ألفي قدم فوق سطح البحر ، وشيدت من البازلت الاسود على شكل مثلث . وقيل أن الخليفة الرشيد قد بناها سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م على أثر قديم ، ثم بناها النصارى ثم ملكها المسلمون . وتشرف أبراجها على إنحدارات الجبل الوعرة ، وقد عين حراس مخصوصون لحماية الأبراج (٢) ويروى كل من رآها أنه لم ير قلعة قوية التحصين مثلها ويبرز فى نهايتها برج قوى عظيم ، كما أنه يوجد أسفل البرج حوائط خارجية وزنزانات منفصلة . وكان بناؤها من حجارة الأبنية الأثرية القديمة فضلا عن أن هندستها ممزوجة بالهندسة البيزنطية (٣) .

وكذلك روى أن المسلمين قد بنوها سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وأستغلوها فى تدبير حيلة على الروم من أجل كسب الأموال منهم فبايعوهم الحصن بمال عظيم وبعثوا شيخا منهم وولديه رهينة إلى انطاكيه على قبض المال وتسليم الحصن ، فلما قبضوا المال وقدم عليهم نحو ثلاثمائة من الروم لتسلم الحصن قتلوهم وأسروا أخرين كثيرين فطلبوا فديتهم بمال آخر ثم فدوا ذلك الشيخ وولديه بمال يسير وبهذا حصلوا على الحصن والمال (٤) ثم استولى عليها

---

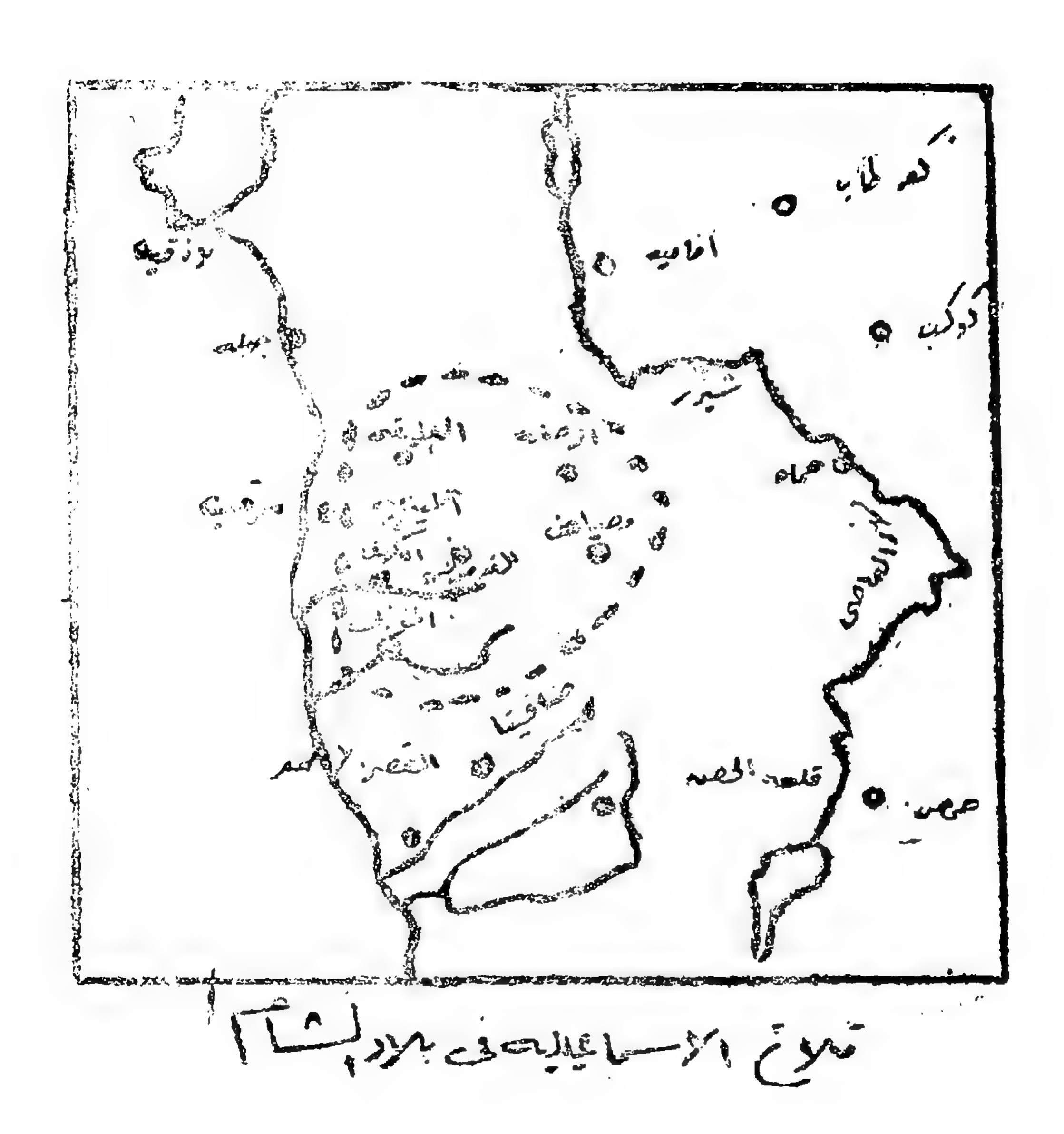
(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٤ ص ٥٠١ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٠٤ راجع اللوحة رقم (٣)

(٢) الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٨ . انظر أيضا :

Lamb, op. cit., p. 75.

(٣) لويس شيخو : جولة فى الدولة العلوية ص ٤٩٠ ، لى سترانج : فلسطين فى العهد الاسلامى ص ١٧١ .

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٠ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١ ص ٥٢٩ .



قلاع الاسماعيلية في بلاد الشام

بعد ذلك الاسماعيلية وتم تجديدها أيام شيخ الجبل راشد الدين سنان (١) .

وظلت هذه القلعة صامدة أمام الهجمات التى تعرضت لها وبخاصة أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى (٢) . ولكن رغم ذلك فقد استطاع الصليبيون الأستيلاء عليها ودخلت فى نطاق أملاك ريموند أمير أنطاكيه الذى منحها إلى فرسان الاسبتارية سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ولكن السلطان قلاوون استردها من أيدى الصليبيين بعد ذلك (٣) .

ورابع هذه القلاع هى قلعة الخوابى وهى تقع على بعد تسعة أميال جنوب غربى قلعة القدموس كما تقع شمال طرابلس على بعد خمسة عشر ميلا جنوبى انطرسوس بطريق البحر (٤) . وقد تم تجديد أسوارها فى عهد راشد الدين سنان وقيل أن فى أسوارها مكان إذا لدغت أحد الأشخاص حية حمل ليشاهد ذلك المكان من السور فيبره فى الحال ، وإن كان الملدوغ عاجز عن الحركة أرسل رسولا بدلا منه (٥) .

ومن هذه القلاع أيضا قلعة الكهف وتقع بالقرب من القدموس على نحو

---

(١) Guyard, op. cit. p, 365.

(٢) لويس شيخو : جولة فى الدول العلوية ص ٩٠ .

(٣) لى سترانج : فلسطين فى العهد الاسلامى ص ٤٧١

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٤٦ ، لى سترانج : فلسطين فى العهد الاسلامى ص ٣٧٠ . انظر أيضا :
Ibid, p. 351

(٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٦١ انظر ايضا :
Ibid, p. 439.

ساعة وإلى الشمال من طورطوس فى الطريق المؤدى من عكا إلى إنطاكية . وقد بنيت على قمة جبل عال جدا (١) . وكان حاكمها سيف الملك أبن عمرون من قبل الصليبيين ولكنه باعها للاسماعيلية سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢–١١٣٣م (٢) . وقيل أن بالقلعة غار دفن به سنان ويزعمون أنه دخل فيه وسيظهر منه ليعزعم طائفة منهم (٣) .

وقد استولى الاسماعيلية على الرصافة ، وهى تقع غربى الرقة وعلى أقل من مسافة يوم عن الفرات ، وهى قلعة بالقرب من مصياف وتعرف برصافة هشام نسبة إلى هشام بن عبد الملك الذى بناها (٤) .

وقد أكمل الاسماعيلية هذه السلسلة من الحصون باستيلائهم على العليقة والمينقة . ويكونون بهذا قد استطاعوا تكوين حزام حصين من القلاع لا يمكن اختراقه مما كان له أكبر الأثر فى الدور الذى لعبته هذه الطائفة فى الشام ضد الصليبيين والمسلمين

وإذا كنا قد تحدثنا عن الطائفة الاسماعيلية من ناحية نظمها ومجتمعها

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ١٤٦ ، السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٣١٦ وانظر أيضا :

Grousset, op. cit, t. II: p. 134.

راجع خريطة قلاع الدعوة ص ٩٤

(٢) Ibid, t. II p 16

(٣) الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٨

(٣) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٧١ ، مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع ص ٢٧٣ .

لوحة رقم - (٢)



منظر لقلعة المرقب مأخوذ من جهة الجنوب أنظر:

Lamb, the Crusades, p. 387.

وقلاعها فلا أقل من أن نتحدث عن شخصية « شيخ الجبل » وهي الاداة المحركة لهذا المجتمع الخطير الذي اهتزت له عروش ملوك أوروبا والشرق .

يكتنف شخصية شيخ الجبل الكثير من الغموض بالرغم من كل ماورد عنه فى المصادر والاصول من عربية وغير عربية إذ لاتمدنا بما يشفى الغليل فى هذا الشأن .

أطلق المؤرخون الصليبيون ومن بينهم رينلان وجوانفيل عليه : Vieil de la Montaingrre وقد انتشرهذا اللقب فى العالم الغربى و كتب عنه كثير من مؤرخى و كتاب الفرنج وعرف فيما بعد باسم : «Vieux de la Montigne» بالفرنسية و Old Man of the Mountain بالانجليزية ومعناها الحرفى عجوز الجبل . وهذا التفسير خطأ بطبيعة الحال لأن المقصود أساسا من هذا اللقب هو رئيس القوم وسيدهم وليس عجوزهم ومسنهم اللهم إلا إذا فسرنا الترجمة بمعنى الرجل الوقور أو الرجل الحكيم (١) . والتسمية الأجنبية لاتحتمل هذا التفسير .

والرأى الأرجح فى أصل هذه التسمية هو طبيعة حياة هذه الطائفة فى

---

(١) Methew d'Edesse, Cf. R.H.C. - Doc. Arm., t. I, p. 129; Guaillaum da Tyr. Cf. R.H.C - H.Occ., t. I, p. 996 ; Michaud, op. cit t. I. p. 304; Rapin, History of Englaud, p.255, Burchard, Description of the Holy Land, Cf. Palestine Pilgrims ; Text Society, p. 105 : Browne , op. cit t. II, p. 206.

انظر أيضا جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على الشام ص ٢٢٩ ، عبد الله عنان : تراجم اسلامية ص ٥٨ .

الاستقرار فى القلاع القوية فوق الجبال فأصبح من الطبيعى أن يتسمى زعيمهم باسم شيخ الجبل بصرف النظر عن كبر سنه ، بمعنى أنه زعيم تلك الجماعة التى تقيم فى قلاع منيعة فوق قمم الجبال(١) .

ولقد كان كل شيوخ الجبل فى سورية منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) يحملون لقب « الدين » وذلك أسوة بزملائهم المعاصرين والموجودين بقلعة الموت . ومنذ سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م أضافوا إلى هذا اللقب كلمة « الدنيا » بمعنى أنه قبل هذا التاريخ لم تكن تعرف هـــذه التسمية فى سورية أو فارس (٢) . ولعل يتضح ذلك فى النص الموجود على عتبة أحد الأبواب الداخلية لقلعة مصياف وهو « عمر هذا المكان المبارك أيام كمال الدنيا والدين الحسن مسعود أدام الله ظله » . والمعروف أن بداية حكم شيخ الجبل المذكور هو ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م .

ولكن ردا على هذا يلاحظ أن سنان قد أضاف كلمة « الدين » إلى اسمه والمعروف أن حكمه كان فى الفترة الواقعة فيما بين عامى ٥٥٧ و ٥٥٨هـ (١١٦١ و ١١٦٢م) . وبناء على ذلك يمكن القول أنه أطلق اسم «الدين» على شيوخ الجبل منذ وجود سنان . ويوجد نص آخر على إحدى الكتل الحجرية على يمين الباب الجنوبى لمدينة مصياف يرجع إلى عهد شيخ الجبل أبى الفتوح بن محمد سنة ٦٣٧هـ /١٢٣٩م وهو كالآتى « أمر بعمارة سور مدينة مصياف وعمل هذا الباب المبارك المولى الصاحب تاج الدنيا والدين أبو الفتوح ابن محمد أعز الله نصره » وتلاحظ على النص المذكور فضلا عن كلمة « الدنيا

---

(١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على الشام ص ٢٢٩ .

(٢) Berchem op. cit., p. 498

والدين » وجود لقبين جديدين لشيوخ الجبل هما « المولى والصاحب » لم يستخدما من قبل وقد ظهر هذان اللقبان فى صيغة الجمع فى عهد شيخ الجبل نجم الدين (٦٥٩ — ٦٦٠ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٦١م) آخر شيخ جبل في سورية وأتضح ذلك من أحد النصوص الموجودة على جامع القدموس وهو « بسم الله الرحمن الرحيم — أمر بعمارة هذا الجامع المبارك الموالي الاصحاب نجم الدين آخر شيخ جبل جرده بيبرس سلطان مصر شيئا فشيئا كما أنه أستكمل بناء هذا الجامع أبنه شمس الدين » (١) .

وكان شيخ الجبل يتمتع برئاسة الدعوة من عامة نواحيها فى كل من فارس والشام(٢). وقد اعتاد شيوخ الجبل على ارتداء ثيابهم البيضاء ووعظ أنصارهم من فوق ربوة عالية (٣) وكانت سلطات شيخ الجبل بدون حدود ، وكان ينظر إلى أتباعه باعتباره حامى قوانين الدعوة الاسلامية وأن كل من يعارضه أو يتلفظ عليه بسوء يستحق الموت . ولعل فى المثال الآتى خير ما يعبر عن ذلك (٤) . « فقد روى أن أحد المسلمين من ذوى النفوذ لعن فى إحدى المرات شيخ الجبل الحسن بن الصباح ودعا عليه أمام عامة الناس فما كان من أتباع شيخ الجبل إلا أن تبعوه عقب مغادرته المكان وقتلوه .

ولقد كانت شخصية شيخ الجبل قوية يخشاها الملوك وكافة الناس ، ولم يجد أحد من الملوك حيلة فى حفظ نفسه منه . فكان البعض منهم يدفع له

(١) Ibid., pp. 495 - 496

(٢) طه شرف : دولة النزارية ص ٧٧ .

(٣) عبد الله عنان : تراجم إسلامية ص ٥٢ ، ٩١ ؛ انظر اللوحة رقم (١)

(٤) Michaud op. cit., t. I, p. 3 4 , Lamb. op. cit., p. 30.
Berchem op. cit., p. 499

ضريبة مقابل عدم التعرض له . وكان لايخشى الاعداء بل يبث الرعب فى قلوبهم(١) . ونجد أوضح مثال لذلك فى شخصية كل من أبن الصباح وراشد الدين سنان ، فبالنسبة للاول خشى منـه السلطان ملكشاه وبعث اليه بخطاب تهديد ، فلما قرأه بحضرة الرسول أمر أحد فداوينه بقتل نفسه ففعل ، ثم أمر آخرا بالقاء نفسه من أعلى القلعة فأقدم الفداوى على ذلك دون تردد . وحين وحين ذلك التفت أبن الصباح إلى الرسول وقال له «هذا هو الجواب» . ومن هذه اللحظة امتنع السلطان عن مراسلته (٢) . أما بالنسبة لسنان فقد استطاع الوقوف ضد صلاح الدين الأيوبى الذى كان ملوك أوربا يعملون له حسابا كبيرا وستكشف الفصول التالية عن ذلك عند التعرض لموقف كل من شيـخ الجبل من ناحية والصليبيين والسنيين من ناحية أخـرى . ويبدو أن إرهابهم للناس قد استمر أيضا خـلال القرن الثالث عشر الميلادى . (القـرن السابع الهجرى) إذ يوضح لنا المؤرخ الفرنسى جوانفيل بأنه إذا ركب شيخ الجبل سار مناد أمامه وهو يحمل فأسا ذات يد طويلة مغطاه كلها بالفضة وقـد تدلى منها كثير من الخناجر وينادى المنادى أمامه قائلا « إفسحوا الطريق لمن فى يده حياة الملوك وقوتهم » (٣) . وقد كان لشيوخ الجبل قـوة السيطرة

---

(١) Michaud op. cit , t. I, p. 305.

انظر أيضا : العماد الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢٠٢ انظر أيضا :
Michaud, op. cit., t. III, p. 425.

(٣) مذكرات جوانفيل : لويس التاسع وحملاته على مصر والشام ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ٢٠٧ .

والاقناع بالنسبة لاتباعهم (١) .

وفيما يلى بيان باسماء شيوخ الجبل فى سورية(٢) . وتاريخ حكم كل منهم حسبما سمحت الاصول والمصادر التى تحت أيدينا خاصة وأنها لاتسعفنا بثبت كامل بهذه الاسماء وبيان واضح بتلك التواريخ :

الاسم	تاريخ الحكم
١ - راشد الدين أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد	٥٥٧-٥٨٨هـ (١١٦١-١١٩٢)
٢ - كمال الدنيا أبو الحسن بن مسعود	٦٢٠هـ - ؟ (١٢٢٣ - ؟)
٣ - سراج الدين والدنيا المظفر بن الحسن	٦٢٥-٦٣٥هـ(١٢٢٧-١٢٣٧م)
٤ - تاج الدنيا أبو الفتوح بن محمد	٦٣٧-٦٤٧هـ(١٢٣٩-١٢٤٩م)
٥ - رضا الدين أبو المعالى	٦٥٦-٦٦٠هـ(١٢٥٨-١٢٦١م)

---

(١) يتضح ذلك عندما أعلن شيخ الجبل الثالث بالموت حسن علاء الدين بن أ با بزريك فى ١٧ رمضان ٥٥٩ هـ / ١٨ أغسطس ١١٦٤م الغاء القانون وكل تعاليم الاسلام . ثم أعلن بعد ذلك فى سنة ٦٠٨هـ /١٢١١م شيخ الجبل السادس جلال الدين حسن الثالث الغاء ما كان قد انتهجه ابن الصباح وخلفاؤه من بعده وأمر باقامة الصلاة وتطبيق الشريعة الاسلامية فى جميع البلاد الخاضعة له ثم ما لبثت وأن عادت الامور لى ما كانت عليه بعد وفاته سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م ويدل هذا على مدى سلبية المجتمع آنذاك . انظر ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج١٢ ص ١٣٨، زكى عبد التواب : دولة الخناجر والحشيش ص ٧٤ وراجع كذلك :

Browne, op. cit., t. II, p. 4(3.

(٢) زامباور : معجم الانساب ج٢ ص ٣٢٩ .

٦ - نجم الدين اسماعيل ٦٦٠هـ - ؟ (١٢٦١ - ؟)

٧ - شمس الدين اسماعيل

٨ - صارم الدين مبارك بن رضا ٦٦٨هـ - ؟ (١٢٦٩م - ؟)

وصارم الدين مبارك هو آخر شيخ جبل وفقا لما جاء فى كتاب زامبارو. وهنا نجد تعارضا بين ما جاء فى زمباور وبين ما ذكره الكاتب ماكس فان برشم الذي أكد بأن آخر شيخ جبل فى سورية هو نجم الدين اسماعيل معتمدا فى ذلك على أحد النقوش الموجودة على جامع القدموس والذى يفيد بأن الذى عمر المسجد هو نجم الدين اسماعيل آخر شيخ جبل والذى جرده بيبرس من سلطانه (١). ولعل الارجح هو رأى برشم لان النقش الموجود خير دليل على ذلك . ثم ان نظرة فاحصة دقيقة إلى هذا الثبت يكشف عن أمرين متصلين بموضوع البحث اتصالا وثيقا أولهما وجود فجوة زمنيه بين شيخى الجبل راشد الدين سنان وكمال الدنيا ابن مسعود تمتد من أواخر القرن السادس الهجرى حتى بدايات القرن السابع (أواخر القرن الثانى عشر حتى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى) ولم تسعفنا المصادر والنقوش باسماء لشيوخ الجبل المتواجدين فى هذه الفترة . أما الأمر الثانى فهو شيخ الجبل فى سورية خلال الفترة نحن بصددها هو راشد الدين سنان الذى حكم حتى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م وذلك الشيخ المجهول الاسم الذى أتى بعده وحكم فى نهاية القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) ولم يتسن لنا التعرف عليه .

---

(١) Berchem, op. cit., pp. 495 – 496.

وانظر أيضا ما سبق من هذا الكتاب .

وكيفما كان الأمر، فقد رأينا فى الصفحات السابقة كيف كون الاسماعيلية أول دولة لهم ، وتعرفنا على التنظيمات والعقائد المحكمة ونظم الدعاية التى كانت عاملا هاما وأساسيا فى نجاح الطائفة بالشام . وإذا أمعنا النظر فى تاريخ العصور الوسطى أو فى أى طائفة من الطوائف المعروفة وقتذاك لن نجد نظاما دقيقا فى الدعاية مثل ذلك الذى ابتدعه الاسماعيلية . وكان للقلاع والحصون القديمة والمستحكمة . التى امتلكها الاسماعيلية ، والتى ظلت قذى فى أعين الصليبيين والمسلمين خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديان) ، اكبر الاثر فى الدور الخطير الذى قامت به هذه الطائفة بالشام أثناء الصراع الصليبى الاسلامى فى المنطقة . ولعل فيما سنتناوله فى الصفحات التالية من حيث تثبيت اقدامها بالشام ، وبدء نشاطها ضد الصليبيين والسنيين ، ما يكشف عن هذه الفترة الغامضة فى تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة وفى تاريخ العلاقات الصليبية الاسماعيلية على وجه الخصوص .

الفصل الثانى

اوروبا والشرق الادنى

فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى)

القوى الاسلامية فى الشرق الادنى : العباسيون فى بغداد الفاطميون فى مصر — السلاجقة فى اسيا الصغرى — الحرب الصليبية الاولى وأثرها — أحوال اللاتين فى الشرق وحروب القرن الثانى عشر الصليبية — أحوال الغرب الأوروبى — الامبراطورية البيزنطية ظهور الحشيشية فى الشام — اتصالهم بالملك رضوان — أستيلاؤهم على أفامية ، ثم تسليمهم هذا الحصن للصليبيين — كراهية الملك رضوان للاسماعيلية — مذبحة حلب ، والقضاء على الاسماعيلية فيها سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣م — استيلاء الاسماعيلية على شيزر و بانياس — مذبحة دمشق سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩م — اتصال الاسماعيلية بالصليبيين لتسليمهم بانياس — اغتيال تاج الملوك بورى — راشد الدين سنان أول شيخ جبل فى الشام .

إذا كنا قد تعرضنا فى الفصل الاول لنشأة الطائفة الاسماعيلية فى بلاد الشام ونظمها وقلاعها كمدخل طبيعى لموضوع البحث ، فانه يجدر بنا قبل الخوض فى تفاصيل نشاطها فى الشام وعلاقتها بالصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) ، أن نستعرض أحوال الغرب والشرق وقتذاك . فنبدأ بعرض شامل لأحوال الشرق الادنى وبخاصة القوى الاسلامية. ثم نعقب ذلك باستعراض أوضاع اللاتين فى تلك المنطقة من ناحية ، وبين الصليبيين والمسلمين من شيعة وسنة من ناحية أخرى ، وبين الصليبيين واسماعيلية الشام بالذات من ناحية ثالثة . ونتناول بعد ذلك أحوال الغرب الأوروبى ودوله ومدى اسهامه فى الحركة الصليبية وقتها ، ثم نعرج إلى الحديث عن الدولة الرومانية الشرقية ودورها فى الصراع الصليبى الاسلامى. ونختم الفصل بانتقال الاسماعيلية إلى الشام وسيطرتهم على قلاع الدولة وما ترتب على ذلك من آثار .

بدأ العالم الاسلامى فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس من الهجرة) يعانى من التفكك والانحلال بسبب سوء الحالة السياسية . فكانت الخلافة الفاطمية تسير من سيء إلى اسوأ بسبب ضعف خلفائها وتنازع الوزراء على الحكم وكثرة الحروب بين عناصر الجيش المختلفة ، كما أن العداء المذهبى بين المسلمين أدى إلى تفرق كلمتهم الأمر الذى ساعد الفرنج على تحقيق اطماعهم فى سهولة ويسر فى رقعة الشرق الأدنى . إذ كان الاختلاف بين الدولة العباسية التى تدين بالمذهب السنى وتتاخم حدودها أملاك السلاجقة ، وبين الدولة الفاطمية التى تدين بالمذهب الشيعى وتبسط سلطانها على مصر وجانب كبير من الشام والساحل الشرقى للبحر المتوسط ، قد ترتب عليه أنه بلغ من

كراهية الفاطميين للسلاجقة اعتقادهم أن قيام دولة صليبية فى الشام سوف يعتبر حاجزا دون زحف السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم (١).

كل هذا ساعد على نجاح الصليبيين إلى حد كبير فى تثبيت اقدامهم فى مراكز هامة من أراضى الشرق الادنى وتأسيس الامارات اللاتينية الأربع فى اعالى الفرات وهى الرها وانطاكية فى أعمال الشام وطرابلس الشام وبيت المقدس ، تلك الامارات التى فرضت بواقع وجودها وضعا جديدا شائكا بالنسبة للكيان الاسلامى فى المنطقة .

فبعد أن كانت الخلافة العباسية تتسم بالقوة وازدياد النفوذ ومواصلة الجهاد وبخاصة ضد الروم فى العصر العباسى الاول ، أصبحت تعانى كثيرا من الضعف والانحلال ، وأصبح الخلفاء العوبة فى أيدى الامراء منذ عهد الخليفة العباس المعتصم بالله (٨٣٣ — ٨٤٣م / ٢١٨ — ٢٢٧ هـ) ، ولقد كانت كثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة سببا هاما فى زيادة ضعفها ، مما أدى إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة (٢). وكانت الدولة تسير نحو التدهور حتى أنه لم يكن للخليفة العباسى فى أوائل القرن الثانى عشر (أوائل القرن السادس الهجرى) أى ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة فى ذلك الوقت قد شجع الطامعين على الهجوم على بغداد نفسها . فقام دبيس بن صدقه سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠م بالهجوم على عاصمة بنى العباس ، ولم يحجم عن نهب المدينة وسلبها ، بل نصب خيمة فى مواجهه قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله (٥١٢ — ٥٢٩هـ/

---

(١) السيد الباز العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ص ١ ، ٢.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ٥٦.

١١١٨ - ١١٣٥م) مما اضطر الخليفة إلى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقى لدرء هذا الخطر (١) . ومما زاد الطين بله انشقاق المسلمين على انفسهم فى هذا الوقت بسبب المذهبية وتعاون أصحاب المذهب الواحد ضد اخوانهم المسلمين الذين على مذهب آخر. فبعد اعتناق بنى بويه للمذهب الشيعى تآمروا مع الخليفة المستنصر بالله الفاطمى للقضاء على الخلافة العباسية وادخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية . واستنجد الخليفة العباسى حينذاك وهو القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ ﻫ ١٠٣١ - ١٠٧٥م) بالسلاجقة لمساعدته وانقاذ المذهب السنى من الانحلال . وبهذا استطاعوا القضاء على هذه المؤامره (٢)، ولكن دلالتها ونتائجها لم تكن تبشر بالخير والافرنج يطوقون الابواب ويؤسسون معاقل لهم فى المنطقة على حساب هذا الأنقسام البادي من الناحيتين السياسية والمذهبية . وكانت الخلافة العباسية وقتذاك منصرفة إلى محاولة التشكيك فى نسب الفاطميين واعادة المذهب السنى إلى مكانته الاولى .

وهكذا بلغ انحلال احدى القوى الاسلاميه الكبرى فى الشرق الادنى فى الوقت الذى كان الصليبيون فيه يمكنون لأنفسهم فى بلاد الشام وشمال العراق. فلم تستطع الخلافة العباسية آنذاك ان تتزعم القوي الاسلامية لدرء الخطر الصليبي عن البلاد الاسلامية حيث انها كانت أضعف من أن تحمى نفسها من المسلمين (٣). ولاشك أن هذا الوضع قد ساعد الحشيشية فى الشام على زيادة

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٤٨ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ١ ص ٢٣٣ .

نشاطهم على حساب ضعف المذهب السنى .

واستمرت الخلافة العباسية تعانى من الضعف والانحلال مما أدى إلى انسلاخ ممتلكاتها عنها وتكوين دول مستقلة حتى عصر المستعصم بالله (١٢٤٢ — ١٢٥٨م / ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) الذى لم يعر للظروف المحيطة به أى اهتمام مما أدى إلى نهايته ونهاية الخلافة العباسية على يد المغول الذى تمكنوا من محاصرة بغداد واشعال النيران فيها وقتل الخليفة العباسى نفسه سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م [١].

أما بالنسبة للخلافة الفاطمية فى مصر فلم تكن بأحسن حالا من الخلافة العباسية . فرغم انها حكمت مصر مدة تزيد عن قرنين من الزمان (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) إلا أن عوامل الضعف والانحلال بدأت تنخر فى كيانها منذ حكم الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ .. ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) [٢]. إذ بلغت الخلافة درجة كبيرة من الضعف ، وعانت من نزعة انفصالية أدت إلى انسلاخ كثير من املاكها فى بلاد الشام . وأصيبت البلاد بالكوارث الاقتصادية وسوء الحكم واضطراب الامور فاستغل الامراء المحليون هذه الظروف وبدأوا ينفصلون عن الدولة [٣] كما كان للانقسامات التى حدثت فى الدولة اكبر الأثر فى اضعافها ، فتعرضت لانقسامين مذهبين فى فترات متقاربة. وكان الانقسام المذهبي الاول عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله (٤٨٧هـ —

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ١٥٦ — ١٦٠ .

(٢) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٣ .

(٣) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٣ ، محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٤٢ .

١٠٩٤م) (١). أما الانقسام الثانى فقد حدث عقب وفاة الخليفـة الفاطمى الآمر بأحكام الله ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ ، وفيه وقع تعارض مع أصول المـذهب الاسماعيلى وولى الخلافة الحافظ ابن عم الآمر (٥٢٥ - ٥٤٤ هـ / ١١٣٠ — ١١٤٩ م) فى حين أنه ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسم الطيب وأخذ له البيعـة بولاية العهد . ولهـــذا انقسمت الاسماعيلية مرة ثانية إلى اسماعيلية حافظية واسماعيلية طيبية . وساهم هـــذا الصراع على زيادة الانقسامات المـذهبية والسياسية داخل الدولة ، بل واتساع وانشقاق اتباع المذهب الفاطمى نفسه . وكان من أثر ذلك محاولة السلاجقة طرد الفاطميين نهائيا من بـــلاد الشام كلها . وكثيرا ما نكروا فى غزو مصر والقضاء على المذهب الشيعى نفسه(٢).

وكانت الخلافة الفاطمية فى هذا الوقت مشغولة فى محاولة انتزاع زعامـة العالم الاسلامى من الخلافة العباسية وتقويض دعائمها واحلال المذهب الشيعى بدلا من السنى . وقد تكاتفت هذه العوامل مع غيرها ومهدت الطريق لانحلال الدولة والقضاء عليها سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وانتقال الحكم فيها إلى صلاح الدين الايوبى . وبه ابتدأت فترة جديدة فى حياة مصر بل وفى العالم الاسلامى كلـــه (٣).

ومما لاشك فيه أن وضع العالم الاسلامى بهـذه الصورة قـد فرض عليـه عـــدم ادراك ما يحدث حوله سواء بالنسبة لظهور الحشيشية ومذهبهم الهدم

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٠

(٢) Cam. Med. Hist, t. V, p. 60.

(٣) سنتناول بالتفصيل فى الفصل الثالث موضوع القضاء على الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبى .

أو لطبيعة الحركة الصليبية وهدفها. ويبدو ذلك واضحا عندما فكر الفاطميون في مصر في مشروع التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم من أهل السنة المتمثلين في الخلافـــة العباسية في بغداد والاتراك السلاجقة في الشام . بحيث تكون انطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين (١). ويكشف هذا الوضع الآثار الخطير التي ترتبت على هـــذا الخلاف المذهبي بين المسلمين حتى بلغ بهم الأمر انهم أصبحوا يستنجدون بالافرنج في الشام ضد بعضهم البعض ، الامر الذى اعاق عملية تكتيل الشرق الأدنى الاسلامي فترة من الوقت وأفاد الصليبيين الدخلاء ، وهيأ الظروف لقيام علاقات بين الصليبيين وبين الاسماعيلية .

وقد ضمن كل من الصليبين واسماعيلية الشام أمام هذه الاحداث قسطا من الاستقرار والنجاح خـــلال القرن الثاني عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) .

أما بالنسبة لاحوال السلاجقة في آسيا الصغرى (٢) فقد أصبحت دولتهم

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) السلاجقة هم قوم من الاتراك ينتسبون الى زعيمهم سلجوق بن تقاق، نزحوا من منطقة تركستان الى ما وراء النهر حيث عاشوا فترة واختلطوا بالمسلمين، وبعد وفاة زعيمهم وصلوا الى اقليم بخارى على مشارف مملكة السلطان محمود الغزناوى، واضطروا أن يدينوا له بالولاء . ولكن أطماعهم جعلت السلطان يخشاهم فقبض على زعيمهم وقتله وشرد أتباعه . ولكنهم اتجهوا الى خراسان واستقروا هناك . وبدأت دولتهم تتسع حتى سيطروا على معظم بلاد ايران وشمال العراق وأرمينيه وآسيا الصغرى بعد أن أعلنوا أنهم فى طاعة الخليفة العباسى القائم بأمر الله . انظر البندارى: تواريخ آل سلجوق — تحقيق هوتسما ص ٦ — ٧ ، راجع أيضا :

Cam. Med. Hist., Hist, t. IV, p. 303

فى العقد الاخير من القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) فى حالة فوضى واضطراب وانقسام سياسى واسرى وبدأت تتفتت ممتلكاتهم إلى وحدات سياسية صغيرة ، وخاصة فى بلاد الشام بعد وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م بسبب ما حدث من تنازع بين ابنائه على الملك . ولم تحل سنة ١٠٩٦م / ٤٨٩هـ حتى كانت الدولة منقسمة إلى خمس ممالك متنافسة هى : سلطنة فارس « اصبهان » وعلى رأسها السلطان بركيارق ، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها ابو الحرث سنجر ، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ، ومملكة دمشق وعلى رأسها شمس الملوك دقاق بن تتش ، وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وعلى رأسها تاج ارسلان بن سليمان بن تتلمش (١). ولقد عملت الحروب الكثيرة بين الاخوة على تحطيم البيت السلجوقى ، كما اتاحت الفرصة للخليفة العبسى للعمل على تحرير نفسه من السيطرة السلجوقيه وقطع دعوة الترك من بغداد(٢).

وبالاضافة إلى ما تقدم ، أخذت السيادة السلجوقيه فى الشام تنحسر سريعا . ذلك أن رضوان صاحب حلب (٤٨٩ – ٥٠٧هـ/١٠٩٥ – ١١١٣م)، ودقاق صاحب دمشق (٤٨٩ - ٤٩٨هـ/ ١٠٩٥ — ١١٠٤م) لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التى تمكنهما من مواجهة الاوضاع القلقة التى عاشت فيها بلاد الشام فى هذه الفترة . ولعل اكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرها من البلاد عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقى . ومن تلك البيوت ظهر اسم

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١٤ ، محمد الشيخ الجهاد المقدس ص ٥٣٦

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٥ لوحة ٢٢٧

(الاتابكيات) واطلق على اصحابها اسم اتابكه (١). وقـــد اقطع سلاطين السلاجقة خلال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) اجزاء كثيرة من الدولة لافراد أسرهم وكبار قوادهم ورجالهم. فاتخذ هؤلاء الجند واستعانوا بالقبائل فى تكوين جيوشهم الخاصة . وبمرور الوقت اعطوا اقطاعاتهم صفة الدوام ، الأمر الذى أدى إلى نهاية دولة السلاجقة (٢) .

هذه صورة عامـــة لاحوال الشرق الادنى الاسلامى فى القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) فى الوقت الذى ظهر فيه الحشيشية بالشام وأخذوا يعملون لمصلحتهم على حساب كل من الصليبين والسنين على السواء . ولاشك أن الضعف الذى انتاب الشرق الأدنى الاسلامى فى أواخر القـرن الحادى عشر الميلادى وأوائـــل القرن الثانى عشر كان له اكبر الاثر بالنسبة للغرب الأوربى . إذ شجعه على الاعداد لحمله كبيرة موجهة ضد المشرق الاسلامى لاستقطاع الجزء الاكبر منه وتكوين مملكة صليبية تخدم مصالحه . فكانت هذه الحملة هى المعروفة باسم الحرب الصليبية الأولى (٣) .

والواقع ان الحروب الصليبية فى مجموعها ماهى الا حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب الذى تمتد جذوره إلى القدم . فكانت بمثابة بركان يهدأ حينا ويثور حينا آخر ، اشتد غليانه فى نهايـــة القرن الحادى عشر الميلادى

---

(١) هو لفظ تركى معناه «مربى الملك» وكان ال سلجوق اذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب. انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ٤ ص٦١.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٦٠ - ١٦١.

(٣) انظر الخريطة (٢) ، (٣)

(أواخر القرن الخامس الهجرى) ، وعندئذ وجد فى الحرب الصليبية الاولى متنفسا له . وكانت استغاثة الامبراطورية البيزنطية بالبابويه للوقوف معها ضد امتداد نفوذ الاتراك السلاجقة فى أراضيها تمثل الشرارة الاولى لاندلاع هذه الحرب (١) . وقد أيد البابا أوربان الثانى فكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين وأعلن عنها فى مؤتمر كلير مونت الكنسى فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م ذى الحجة ٤٨٨هـ . كما لاقت الدعوة استجابة من أعضاء المؤتمر ومن الغرب الاوروبى. ولعل سبب هذا هو توارد الاخبار بسوء معاملة السلاجقة للحجاج المسيحيين الغربيين ، فضلا عن سقوط انطاكية فى ايديهم وطرد البيزنطيين منها(٢).

وقد خرجت الحملة الصليبية الاولى فى حشود ضخمة منقسمة إلى فرقتين الاولى تشمل العامة والفقراء والثانية تتضمن العناصر الصليبية المنظمة برئاسة بعض قواد أوربا . ثم وصلت إلى القسطنطينية وحدث احتكاك بين قوادها والامبراطور البيزنطى الكيس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨م/٤٧٤ — ٥١٢هـ)، وانتهى الامر بعبور الجيش الصليبي البسفور إلى آسيا الصغرى و استيلائه على نيقيه وهزيمة الاتراك السلاجقة واسترداده كل الاراضي التى أخذت من

---

(١) Thompson : History of the middle Ago, p. 398.

(٢) Moodhouse, Military Roligions Ordars of the middle Age, p. 22 ; Cam Mad Hist t. Y p. 270 ; Michalat, History of France, t. I, p. 392 ; Landon, The Middle Agas, III, p. 166 Jonkins, Mediaeval European History p. 27, Funik - Brontano, The Middle Ages, p. 101 , Thatcher and Senvill, Europ in the Middle Age, pp. 273 — 274.

الامبراطورية البيزنطية (١). وواصلت الحملة طريقها إلى الشام ، وكانت أمارة الرها الواقعة شمال الجزيرة هي أول أماره يستولى عليها الصليبيون في اعالى الفرات وقد تملكها جودفرى دوق اللورين السفلى أحد زعماء الحملة (٢). وتتابعت ضربات الصليبيين بعد ذلك في مدن الشام ، فاستولى بوهيموند النورماندى على انطاكية . وبعد ذلك تم الاستيلاء على بيت المقدس في يوليو ١٠٩٩م / رمضان ٤٩٢ هـ وعهد بحكمة إلى جود فرى . ثم استولى ريموند الصنجيلى على طرابلس ١١٠٩م / ٥٠٣ هـ ، وحيث كانت آخر مدينة كبرى تقع في أيدي الصليبيين . وهكذا تمكن الصليبيون من تكوين مملكة صليبية تمتد من الرها شمالا حتى خليج العقبة جنوبا عملوا على تحصين قلاعهم وتعزيز نفوذهم .

وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذى حققه الصليبيون لايرجع إلى قوتهم أو كثرة عددهم ، ولا إلى المساعدات التي كانوا يتلقونها من الغرب فحسب ، بل يرجع أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين لأن القوات الصليبية لما تقدمت نحو الشرق لم تصادف قوات إسلامية متحدة ، بل صادفت قوى متفرقة متنازعة بسبب سوء الحالة السياسية في العالم العربى فضلا عن الخلافات

---

(١) Grousset, Histoir de Croissades, t. I, p. 290 , croix Vie Militaire et Religiouse au Moyen Age, p. 120, 160, Stophenson Modiaeval History, p. 299 ; Thompson, History of Middle Ages, d. 205; Casta Francorum et Allarum, translated to English. by Somerset, pp. io _ 15; Duruy, Histoir du Moyan Age, p. 204.

وكذلك سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ص ٧٠ – ٧٢ ؛

(٢) Runciman, op. cit., t. I, pp. 203 - 204.

المذهبية الموجودة به (١)

ولعل من أهم الآثار التي ترتبت على هذه الحرب أنها أتاحت الفرصة لطائفة الإسماعلية التي أخذت تفرض وجودها في المنطقة في أن تعيش في كنفها وبترعرع بين أحضانها هي وسائر الحروب الصليبية الأخرى إذ وجدت في إنقسام المسلمين وفي المعارك الصليبية مجالا واسعاً للنشاط وتدبير مؤامراتها والأفادة من كافة الظروف المحيطة .

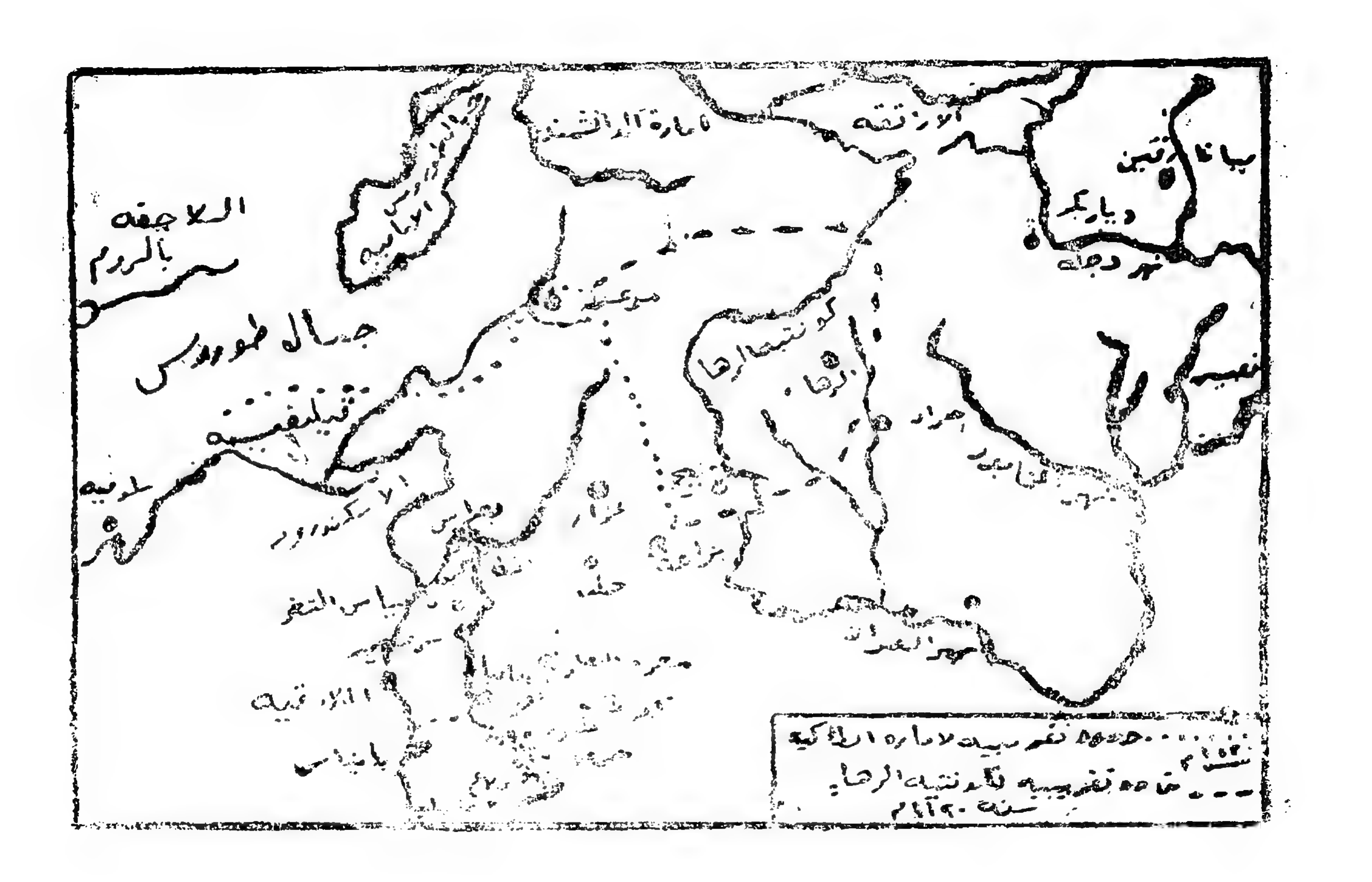
وقد أثار وضع المسلمين في أوائل القرن الثاني عشر الميلادى (بداية القرن السادس الهجرى) بينهم موجة عامة من الإستيلاء ، خاصة وإنه لم يكن هناك أمير مسلم يستطيع تشكيل وحدة إسلامية قوية ضد الفرنجية . ولكن الأصوات تعالت بالجهاد ، لان تأسيس الصليبيين للامارات الأربع قد قطع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى . وفي هذه الفترة الحرجة تولى مودود أمر قيادة المسلمين مع العمل على تحرير الاراضى المقدسة من الفرنج . ولكن حال موته دون تحقيق ذلك(٢). فخلفه أقسنقر البرسقى الذى تمكن من توحيد حلب والموصل ومواصلة الجهاد ضد اللاتين في الشرق(٣). وبعد مقتلة ظهر في الافق عماد الدين زنكي الذى تمكن من توحيد جبهة المسلمين والوقوف ضد اللاتين . وان كان تحالفهم مع البيزنطيين قد أعاق جهوده بعض الوقت ، إلا أن هذا التحالف سرعان ما تصدع وانكشف العداء بينهما سنة ١١٤٣م

---

(١) ارنست باركر : الحروب الصليبية — ترجمة السيد الباز عزيالى ص ١٩٦، محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٩٠

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٦٠.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ١ ص ٥٦١.



حدود تقريبية لامارة
حدود تقريبية لكونتية الرها
السلاجقة بالروم
جبال طوروس
مرعش
الارتقية
ديار بكر
نهر دجلة
كونتية الرها
الرها
نهر الفرات
الاسكندرونة
اللاذقية
حلب
عزاز

٥٣٨/ هـ مما أتاح لزنكي الفرصة لكي يستأنف جهاده ضد الصليبين فى الشام. وتمكن من إسترداد أمارة الرها سنة ١١٤٤م/٥٣٩هـ (١) فكانت أول أمارة يؤسسها اللاتين فى الارض المقدسة ، وأول أمارة يستردها المسلمون منهم.

وكان لسقوط الرها فى أيدى المسلمين رد فعل عنيف فى الغرب الاوروبى، إذ كان إيذانا بتصدع المملكة الصليبية حينذاك . ومن أجل هذا فكر الغرب الاوروبى خروج حملة صليبية ثانية من أجل إسترداد هذه الإمارة . وبالفعل خرجت هذه الحملة بقيادة كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٤٨م/٥٤٢ هـ . ولكن المسلمين بزعامة نور الدين محمود ـ الذى تولى بعد وفاة أبيه عماد الدين أمر المسلمين ـ تمكنوا من صد جيوش هذه الحملة مما أدى إلى فشلها وعجزها عن تحقيق أهدافها(٢). وبالرغم من هذا فأن الصليبيين فى الاراضى المقدسة لم يوحدوا صفوفهم ، وانشغل حكام الولايات الصليبية المختلفه فى القتال الواحد ضد الآخر وكثيرا ما استعانوا بحلفاء من المسلمين ضد بعضهم البعض . وفى مملكة بيت المقدس نفسها نجد أن أتباع الملك المباشرين قد أصبحوا أقل خضوعا له ، هذا علاوة على أن البطريق أخذ يعمل على زيادة نفوذه وسلطته على حساب السلطة الزمنية (٣). وقد ظل الصليبيون حوالى أربعين عاما بعد الحملة الصليبية الثانية فى صراع

(١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ١٤٦ انظر أيضا :

Saatton, op. cit. t. I, p. 459.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٢١ ـ ٦٣٦ ، عمر كمال :مملكة بيت المقدس ص ١٥٥ ـ ١٦٠ انظر كذلك:

Funck-Brentano, La Croisadas, pp. 99 – 100.

(٣) عمر كمال: مملكة بيت المقدس ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

اللاذقية
جبلة
شيزر
حماه
انطرطوس
حمص
طرابلس
بعلبك
جبيل
بيروت
صيدا
دمشق
شقيف أرنون
بانياس
عكا
حيفا
طبريه
قيساريه
بصرى
ارسوف
نابلس
يافا
عسقلان
غزه
الكرك
الشوبك
البتراء
جزيرة جراي (فرعون)
العقبة

- - - حدود تقريبية للامارات المسيحية حوالى عام ١١٦٥م

فستمر مع المسلمين إلى ان تمكن صلاح الدين الايوبي من توحيد الجبهة الاسلامية والقضاء على الصليبيين في موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م واستعاد بيت المقدس من ايديهم في اكتوبر من نفس العام . وتأثر الغرب نتيجة لهذة الاحداث المتلاحقه ، فتكونت حملة صليبية ثالثة بقيادة ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا وفردريك بارباروسا امبراطور المانيا . ولم تنجح الحملة فى تحقيق هدفها ، فمات امبراطور المانيا فى منتصف الطريق . كذلك لم يستمر الملك فيليب كثيرا عقب وصوله الاراضى المقدسة ، بل عاد الى بلاده . اما رتشارد فقد اضطر إلي عقد صلح مع المسلمين وانسحب هو الآخر عائدا الى بلاده (١).

تلك هى الحملات الصليبية الكبرى التى تعرض لها الشرق الادنى خلال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) والتى اخفقت فى تحقيق اغراضها بسبب اليقظة الاسلامية التى ظهرت فى بدايات ذلك القرن وبلغت ذروة نضجها عند نهايته . ويكفى ان المملكة اللاتينية فى وضعها الجديد بعد موقعة حطين وانتصارات صلاح الدين لم تعد سوى مملكة عكا وان احتفاظها بأسمها القديم وحرصها على ربط نفسها ببيت المقدس لايغير من حقيقة امرها شيئاً . ومما لاشك فيه ان هذه الصفحة الجديدة للمملكة الصليبية بالشام وعدم ارتباطها بمدينة بيت المقدس بالذات جعلها تفقد هيبتها الاولي ، فضلا

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٣٧ ـ ٨٦٩ راجع أيضا :

Oman, History of English. pp. 112 - 115, Funck - Brotano, Las Croisades, pp. 100 - 102 , Travleyan, History of England, pp. 163 - 164.

عن افتقارها فى عهدها الجديد الى صفة الدولة المنظمة . ولم تتمتع هـذه المملكة بأى قسط من الاستقلال الذاتي والحرية فى العمل كما كان الحال من قبل . وقد ادى هذا إلى إستغلال الجمهوريات الإيطالية فرصة ضعف المملكة وشدة الحاجة إلى معونتها، وبدأت تفرض نوعا من الحماية عليها وتتدخل فى شئونها . يضاف الى ذلك عوامل الفرقة والبغضاء بين عناصر الصليبيين فى الشام مما ادى الى ضعف مركزهم فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) (١)

وإذا كان الغرب الاوروبى قد أمد الصليبين فى الشرق بمساعدات مستمرة تمثلت فى الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة فليس معنى هـذا أنه لم يكن يعانى من فوضى وأضطراب. وإنما كانت أحواله تتسم بمظاهر المنازعات والحروب فضلا عن الانشقاقات الدينية المسيحية بين رأسي العالم المسيحي حينذاك وهما البابا والامبراطورية ، فضلا عن الخلافات بين الكنيستين الشرقية والغربية . إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهـة نظرها وأن يكون لها الاسبقية على الأخرى ، وأن يكون لهـا أيضا السيادة الروحية على العالم المسيحى بشقيه الشرقي والغربي . وقد كانت قصة العلاقات بين الكنيستين قصة غير مشرفـة للعالم المسيحى وفقـاً لقول المؤرخ ستيفن رانسيمان . ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا الرومانى أوربان الثانى ، وجـد فى تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين فضلا عن السيطرة على الكنيسة الارثوذكسية (٢) . وبنـاء على ذلك ارتفعت اسهم البابوية فى القرن

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٠٢.

(٢) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٩٨ انظر أيضا :
Runciman, op. cit t. I, pp. 110 - 124.

الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) باعتبارها السبب فى المكاسب التى حققها الصليبيون ، بحيث أصبح لها الهيمنة الكبرى على الصليبيين فى الاراضى المقدسة (١).

ولكن فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) اشغلت البابوية كثيراً إذ ظهرت فى جنوب فرنسا وشمال ايطاليا حركات خطيرة بالنسبة للكنيسة تتمثل فى ظهور حركتين هرطقيتين هما الوالدنسيه والكانزيه أوالالبيجنسيه . وكانت هاتان الحركتان تدعوان إلى اصلاح الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب من العيوب التى تغلغلت فيه . ونظرا لمهاجمتهما للكنيسة فقد أضطر البابا لوكيوس الثالث (١١٨١ – ١١٨٥م /٥٧٧–٥٨١هـ) إلى إصدار قرار الحرمان سنة (١١٨١م – ١١٨٤ / ٥٧٧ – ٥٨٠ هـ) ضد انصار المذهب الأول مما جعلهم يتحولون إلى فرق هرطقيه عديدة أثارت فى وجه البابوية مشاكل لا حصر لها (٢) .

وإذا تركنا كل هذا جانباً نجد أن البابوية قد انشغلت أيضا بصراعها مع الامبراطورية ، هذا الصراع الذى استمر عدة سنوات وكانت له أسوأ

---

(١) Grousset, L'Empire du L'evant, p. 295.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ وللمزيد من التفصيلات انظر:

Hardwick A History of the Christaian Church, pp. 314 – 314, Thather and Schwill, Europe in the Middle Age, pp. 489 - 490, Funck - Brantano, The Middle. Ages, p. 269 , Peter, A short History of France p. 17 , Hallam. View of the state of Europe durring the Middle Ages, pp. 570 - 572.

الآثار وأوضحها على المسيحية والغرب الاوروبى بصفة عامة وعلى كل من المانيا وايطاليا على وجه الخصوص(١) ولكن بعد تولى هنرى الخامس عرش المانيا (١١٠٥ – ١١٠٥ م / ٤٩٩ – ٥٤٩ هـ) عزم على تصفية المنازعات مع البابوية . فحدث اتفاق بين الامبراطور هنرى والبابا بسكال الثانى (١٠٩٩ – ١١١٨ م / ٤٩٤ – ٥١٢ هـ) ، تنازلت الكنيسة بموجبه عن كل مالها من اراض وحقوق إقطاعية وقضائية حصلت عليها من قبل . ولكن ثار اساقفة المانيا وايطاليا على البابا مما جعله يعدل عن هذه الاتفاقية . فما كان من هنرى إلا وأن قبض على البابا والكرادلة واجبرهم على الرضوخ له فى مسألة التقليد العلمانى ، وكان هذا نصرا للامبراطورية (٢) . وقد استمر الصراع بعد ذلك بين الامبراطورية والبابوية وقتا غير قصير . وكان يشتد تارة ويصفو الجو بينهما تارة أخرى ويقفا معا فى مواجهة عدو مشترك بينهما. فمثلا تم الصلح بينهما فى اغسطس ١١٧٧م / ربيـــع الأول ٥٧٣ هـ فوافق الامبراطور فردريك

---

(١) Maycock, The Papacy, p. 46.

ولقد ظهرت هذه المشكلة فى العقد الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) بين البابا جريجورى السابع والامبراطورهنرى الرابع بسبب اصراركل منهما على أنه له الحق فى شغل مناصب الاسقفيات الشاغرة ولمزيد من التفصيلات انظر :

Hardwick, op. cit pp. cit, 261 - 264.

(٢) Tout, The Empire and the Papacy, pp. 142 - 143 , Bell, A Short History of the Papacy, p. 132, Barraclaugh, The Origins of Modern Germany, p. 130 , Cf also: Brook, Methuen's Medieval and Modern History t. II, p. 252, Thatcher, A Source Book for Mediaeval History, pp. 161 - 163.

باربادوسا على إعادة جميع الاراضي التي سلبت من البابوية ، وتعهد كل منهما بمساعدة الآخر ضد أي عـــدو يهدده . هذا فضلا عن الهدنة التي عقدها الامبراطور مع حلفاء البابا النورمان في صقلية لمدة خمسة عشر عاما (١) . وقد أدى هـذا الصراع إلى تثبيت أقدام الأمراء الألمان وسلطانهم وازدياد شدة التيار الاقطاعي الذي أدى إلى تقلص نفوذ الملكية . ولكن لما تولى فردريك باربادوسا العرش (١١٥٢ — ١١٩٠ م / ٥٤٧ — ٥٨٦ هـ) تمكن من توحيدها بحيث أصبحت أعظم قوة في أوروبا وقتذاك (٢) .

أما بالنسبة للشطر الثاني من الامبراطورية والمتمثل في ايطاليا، فقد حاول النورمان التوسع في جنوبها والاستيلاء على صقلية مما جعل البابا هونوريوس الثاني (١١٢٤ — ١١٣٠ م / ٥١٨ — ٥٢٥ هـ) يعمل على تأليف حلف من أمراء ايطاليا للوقوف في وجه النورمان ولكن دون جدوى . إذ تم توحيد جميع الاراضي التي فتحها النورمان وتوج عليها روجر الثاني في سنة ١١٣٠ م / ٥٢٥ هـ .

وهكذا قامت مملكة الصقليتين ، التي شملت جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية، والتي غدت من أهم ممالك غرب أوروبا في العصور الوسطى وذلك لموقعها

---

(١) Stub bs, Germany in the Early middle Ages, pp. 201-202 Maycock, op. cit., p. 51, Tout, op. cit. p. 263.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٦٩ — ٣٧١ راجع أيضا:
Lewis, History of Germany, pp. 185 - 188 , Barraclaugh, op. cit. 173.

المتوسط بين الشرق والغرب (١) .

أما بالنسبة لشمال إيطاليا فقد كان خاضعا للومبارديين . ولكن فردريك بارباروسا تمكن من السيطرة علية (٢) ثم قامت بعد ذلك حروب ومشاحنات بين هذه المدن وبين فردريك الأول ، وانتهى الأمر بأن عقد معهم صلحا بموجب معاهدة كونستانس سنة ١١٨٣ م / ٥٧٨ هـ ، وأصبحت هذه المدن بمقتضاها مستقلة ، ولم يكن للامبراطور أى نفوذ عليها إلا من الناحية الاسمية مما أدى إلى تفكك الامبراطورية وانفصال إيطاليا عن المانيا فيما بعد (٣) .

وإذا انتقلنا لمعرفة أحوال انجلترا فى هذا القرن نجد أنها قد تمتعت فى الثلث الأول منه بالسلام والأمان ، وكان ذلك فى عهد الملك هنرى الأول (١١٠٠ — ٣٥ ١١م / ٤٩٤ — ٥٣٠ هـ). والذى تمكن من القضاء على المشكلة القائمة بين الملكية والكنيسة آنذاك حول مدى تبعية الاساقفة للملكية (٤) .

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٣٢ راجع كذلك :
Vasilieve; Histoire de L'Empire Byzantine, t. II, p. 52, Thatcher, op cit. p. 168, Brook, op. cit., II, p. 274.

(٢) Brooke, Ibid

(٣) Tout. op. cit., pp. 264 , Bryce, The Roman Empire, p. 1 5 Lewis, op. cit. p. 194 Thatcher, op. cit. p. 199, Hallam, op. oit. pp. 1?? - 145.

(٤) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٧٠ انظر أيضا:
Tuut, France and England, p 54, Davis, History of England, t. II, pp. 1 .0 - 122.

غرب اوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى

ولكن بعد وفاته عانت انجلترا كثيرا بسبب النزاع حول وراثة العرش، وانتهى الامر بتولية هنرى الثانى عرش انجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩م / ٥٤٩ - ٥٨٥هـ). وما كان من رجال الدين إلا أن انتهزوا فرصة الفوضى الضاربة أطنابها آنذاك وبدأوا يدعمون نفوذهم ويضاعفون ممتلكاتهم. وقد ساعدهم على ذلك ازدهار القانون الكنسى فى القرن الثانى الميلادى (فى القرن السادس الهجرى) مما جعل رجال الدين يرفضون المحاكمة إلا أمام المحاكم الكنسية فقط (١).

أما فى فرنسا فقد زاد نفوذ البارونات والاقطاعيين فى أواخر القرن الحادي عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) مما أدى إلى عجز الدولة عن مقاومتهم. ولكن الأحوال تغيرت واستقرت الاوضاع بعض الشيء بتولية الملك لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧ م / ٥٠٢ - ٥٣٢ هـ) الذى كان مثالا طيبا للحاكم القوى (٢) ولكن رغم ذلك فقد ظلت فرنسا فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر الميلادى (الثلث الأول من القرن السادس الهجرى) عاجزة عن التصرف أمام ازدياد نفـــوذ الامراء الاقوياء والاقطاعيين الذين كانوا يتصرفون وفقا لرغباتهم دون أن يقيموا وزنا للملك أو يعترفوا بتبعيتهم له إلا من الناحية الأسمية فحسب (٣) وذلك عكس ما كان أيام الملك فيليب أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٣٠ م / ٥٧٦ - ٦٢٨ هـ) إذ ازدادت قوة الملكية فى الداخل مع التوسع فى الخارج بحيث أصبحت فرنسا خطراً يهدد خصومها فى مختلف دول أوروبا. ولقـد واجهت فرنسا عداءا شديدا من جانب انجلترا

---

(١) Stephenson, Mediaval History, p. 422.

(٢) Cam Med. Hist., t. III, p. 594 Thatcher, Europe in the p. 484.

(٣) Tout, The Empire and the papacy p. 575.

مما أدى إلى تحالفهـــا مع أعدائهـــا ـ ففي سنة ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ تحالفت مع أمبراطور ألمانيا فردريك باربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠ م / ٥٤٧ - ٥٨٦ هـ) من أجل إضعاف قوة انجلترا في القارة الاوروبية (١) . ولكن رغم العـداء التقليدى المتبادل بين هذه الدول الثلاث ، إلا أنها قد اتحدت معا فى الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠ م /٥٨٦ هـ من أجل تثبيت أقدامهم في بلاد الشام واسترداد الاراضي المقدسة من أيدى أصحابها الشرعيين (٢) . ولكن انتهى الأمر بها بفشلها وعودة قوادها إلى بلادهم .

على أية حال ، ظل العداء بين الدولتين ، إذ ظلت فرنسا تعمل بجهد من أجل تفتيت أملاك الملكية الانجليزية وخاصة بعد موت الملك ريتشارد واعتلاء أخيه الملك حنا عرش انجلترا . وقد ساعدها فى ذلك افتقار هذا الملك إلى الكفاءة والمقدرة الشخصية اللتين امتاز بهما اخوه . ولذلك ورث حنا سياسة العـــداء لفرنسا عن أخيه (٣) . وقد خلف حنا ملوك كثيرون تفاوتت شخصياتهم من واحد للاخر ، ففيهم القوى الذى ارتفع بشأن انجلترا ومنهم الضعيف الذى انتكست الجزيرة بسببه (٤) .

---

(١) Adams, The History of England from the Norman Conquest to the death of John, p. 347.

(٢) Davis, History of England. t. II. p. 552, Tout Franc and England, p. 71, Funck - Brantano, The Middle Ages, p. 353.

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٦٢ راجع أيضا : Oman, History of England, p. 143.

(٤) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطي ج ١ ص ٤٧٤ - ٤٨١ راجع أيضا الخريطة رقم (٤)

أما بالنسبة لاسبانيا فكانت مشغولة بحربها ضد المسلمين في الاندلس من أجل الاستيلاء عليها . فمثلا تمكن الملك الفونسو الأول (١١٠٤ – ١١٣٤ م / ٤٩٨ – ٥٢٩ هـ) ملك ارجونه من توجيه ضرباته العنيفة للمسلمين فى الاندلس من أجل إضعاف شأنها ، ولم يكف عن هذا حتى وفاته (١) . كما انشغلت برشلونه أيضا فى غزو أراضى المسلمين فى الاندلس . وكذلك تمكن البرتغال من التوغل داخل الاراضى الاسلامية وراء نهر تاجه وطرد المسلمين من لشبونه (٢). هذا بالاضافة إلى أن الحروب الصليبية لم يقتصر أمرها على المشرق والاراضى المقدسة فحسب بل شملت أيضا المغرب واسبانيا . وكانت المدن الاسلامية تتساقط فى أيدى المسيحيين الغربيين الواحدة تلى الآخرى بحيث لم يبق فى أيدى المسلمين فى اسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) سوى مملكة غرناطة فى المغرب الجنوبى وشبه الجزيرة (٣) .

وإذا كنا قد تحدثنا عن أحوال الغرب ، فلا أقل من أن نشير إلى ظروف الامبراطورية الاخرى فى الشرق والمتمثلة فى الدولة البيزنطية . ففضلا عن انشغالها وانشغال كنيستها بالصراع مع الكنيسة الغربية ، كان العداء بينها وبين الصليبيين فى الشام شديدا . يظهر حينا ويختفى حينا آخر . وكان هذا

---

(١) Tout op. cit., p. 470.

(٢) Chapman, History of Spain, p. 76 , Tout, op. cit., p. 470.

(٣) Chapman op. cit, pp. 81 - 82, Tout, op. cit., pp 472 - 473.

يرجع إلى رفض افرنج الشام التقيد بالعهد الذى قطعوه على انفسهم للامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين بتسليمه كافة الاراضى والمدن التى كانت فى وقت من الاوقات من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية قبل أن يستولى عليها الاتراك المسلمون (١) .

وبالإضافة إلى هـذا ، كان الأمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية يوحنا الثانى خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمة (١١١٨ — ١١٤٣ م / ٥١٢ — ٥٦٧ هـ) مشغولا بالقضاء على محاولات روجر الثانى ملك صقلية وابنه وليم فى غزو الاراضى الامبراطورية ، مما جعله يلتجىء إلى المانيا ويحالف معها لصد روجر ولكن لم يثمر هذا التحالف نتائجه إلا فى عهد خلفه الامبراطور مانويل الاول ، (١١٤٣ — ١١٨٠ م / ٤٣٨ — ٥٧٧ هـ) . ورغم هذا فقد تمكن الامبراطور يوحنا الثانى من وقف هجمالها على بيزنطه (٢) . وانشغلت الامبراطورية أيضا فى حروبها الطويلة التى خاضتها ضد البندقية حتى وصلت فى وقت من الاوقات إلى حد العجز عن مقاومتها ، فأستعانت بجنوة وبيزا الامر الذى أساء بصورة واضحة إلى العلاقات بين الامبراطورية والبندقية (٣) .

وتلك هى أحوال الغرب الاوروبى فى قرن الثانى عشر الميلادى. إذ كانت مرتعا للمنازعات والمشاحنات والفتن والحروب الاهلية التى أنهكته واستنفذت قواه. وقد أنعكس هذا كله على طبيعة العلاقات التى قامت بين الصليبيين الغربيين

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧٦ - ٥٧٧ وكذلك الخريطة رقم (٤

(٢) Vasiliev, op. cit, t, II, pp. 5 - 53,

(٣) Ostrogorstky, History of the Byzantine State, p. 3.5

وبين أسماعيلية الشام وقتذاك بحيث لم يكن اللاتين فى الشرق ينتظرون أية مساعدات جدية من الغرب الاوروبى الامر الذى ترتب عليه عدم وجود الامكانيات الكافية التى تجعلهم فى موقف يمكنهم من مقاومة الضربات الموجهة اليهم من قبل طائفة أسماعيلية الشام .

وهذا هو وضع الشرق الادنى والغرب الاوربى فى الوقت الذى ظهرت فيه الطائفة الاسماعيلية فى كل من فارس وبلاد الشام . وإذا كانت المصادر قد أفاضت فى الحديث عن تاريخ تلك الطائفة بفارس ، إلا أنه ما زال يكتنف تاريخها بالشام كثير من الغموض . إذ لا توجد كتب مستقلة مفصلة تشرح تاريخهم فى كل مرحلة من مراحل حياتهم . ولعل هذا راجعا إلى ان كل ما أشتملت عليه المصادر العربية أو الاجنبية لا يزيد عن نتف مبعثرة وتدوين عام موزع على وقائع السنين مما لا يشفى الغليل ، ورغم هذا فقد أمكن الوصول إلى بعض الحقائق التاريخية عن هذه الطائفة عندما قررت مد نشاطها إلى الشام .

لقد كانت أهم فترة فى حياة اسماعيلية الشام التى ظهر فيها نشاطها وهى فى أوج قوتها ، تلك التى امتدت منذ سنة ٤٩٤ هـ الى سنة ٥٨٨ هـ (١١٠٠ — ١١٦٢ م) أي منذ ايفاد رسل الدعوة من الموت ومن ضمنهم راشدالدين سنان حتى وفاته سنة ٥٨٨ هـ / ١١٦٢ م . ويمكن تقسيم الحوادث الرئيسية لهـذه الفترة على الوجه التالى : (١)

أولا : تأسيس بعثة اسماعيلية فى حلب تتمتع بتأييد وعطف الملك رضوان ملك حلب .

(١) Lewis, Tha Sources for the History of the Syrien Assassins, p. 4t4

ثانيا : محاولات الاسماعلية كسب معاقل فى قلب سورية مثل شيزر وافامية .

ثالثا : نقل نشاطهم بعد موت ملك حلب من قلب حلب الى دمشق ومحاولتهم تأسيس معاقل جديدة لهم في بانياس ثم فقدهم لها .

لقد ادرك ابن الصباح صلاحية بلاد الشام لترويج المذهب النزارى حيث وجد فيها مرعى خصبا يمكن ان تترعرع فيه الدعوة النزارية . فأرسل دعاته اليها وقد نجحوا في تكوين مجتمعات نزارية فى الاقليم الواقع بين طرابلس واللاذقية اى بين البحر ووادي نهر الاورونت (١) ولقد لعبوا دوراً كبيراً وخطيراً فى تاريخ الحروب الصليبية ، حيث استطاعوا الاستيلاء على العديد من الحصون المنيعة التى يصعب الاستيلاء عليها والموجودة في الجبال الكائنة فى هذه المنطقة متخذين من مصياف مقراً لهم (٢) . وأصبحت هذه الطائفة فى الشام قوة لا يستهان بها تمارس نشاطها حتى قضى عليها نهائيا على يد الظاهر بيبرس

---

١) هو ما يسمى الآن بنهر العاصى ، وهو يصب من وراء بعلبك ويتجه شمالا حتى يقارب غربى حمص فيصب هناك فى بحيرة متوسطة الاتساع ، ثم يخرج منها ويمر غربى حمص الى حماه ثم الي شيزر ومنها الي افاميه فيصب فى بحيرة بها . ويخرج بعد ذلك فيشق فى جبال تعرف بجبال الغرب ديركوش ، ومنها الى بلد يعرف بالاقليم ، ثم ينزل العمقا الى انطاكية ثم الي السويديه ، ويصب فى بحر الشامى حيث ينعطف هناك انظر العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الامصار ج ١ ص ٨١ : وكذلك الخريطة رقم (١)

(٢) Berchem, op. cit., p. 453 King, The Knights Hospitallers, p. 160.

سنة ٦٧٢ هـ/١٢٧٣م (١) . وكان أول من وقع عليه أختيار ابن الصباح لرئاسة الدعوة النزارية فى الشام هو داع على جانب كبير من العلم عرف باسم الطبيب أو الحكيم المنجم حيث كان وصوله الى منطقة الشام فى اواخر القرن الخامس الهجرى (اخريات القرن الحادى عشر الميلادى) وكانت وجهته مدينة حلب . وأستطاع هذا الداعى أن يستميل اليه الملك رضوان بن تتش بن الب ارسلان ملك حلب (٤٨٨ — ٥٠٧ هـ/ ١٠٩٥ — ١١١٣ م) . فلقى منه خير معاملة وتعـاون معه ومنحة الامان ، واظهر مذهبهم ثم بنى لهم دار دعوة فى حلب رغم ان الملوك والامراء قد كاتبوه فى أمرهم وطلبوا منه التراجع فى سياسته تجاههم . الا أنه ضرب بكلامهم عرض الحائط ولم يعر مكاتبـاتهم اى اهتمام واستمر فى تأيدهم (٢) . ولعل ذلك يرجع إلى ان الملك رضوان كان مقابل مامنحه للدعوة الاسماعيلية من خدمات يستخدم خناجر الفداوية فى القضاء على اتباعه (٣) . وادت سياسته هذه إلى حدوث فتور ونفور بينه وبين جيرانه

---

(١) Berchem, op cit., p. 453, King The Knights Hospitallers, p. 160.

(٢) A. O. L., t. II, p. 405, Besant, op. cit., p. 362.

وسنتناول بشىء من التفصيل موضوع القضاء عليهم فى الشام فى خاتمة البحث .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٢٥ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ لوحة ٦٧٧ انظر أيضا : محمد راغب الطباخ : أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء جـ١ ص٣٨٨ راجع كذلك :

Michaud, op. cit., t. III, pp. 323 - 324, Grousset, Histoire de Croisades, t. I, p. 387, Défrémery, Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens de Syrie, p. 377.

(٤) طه شرف : دولة النزارية ص ١٨٠ .

المسلمين (١) ، الامر الذى أفاد منه اللاتين الغزاة اكبر فائدة . وقد نمى الى علم النزارية ان حسين بن ملاعب جناح الدولة امير حمص وزوج ام الملك رضوان قد تامر ضدهم ووسوس فى أذن رضوان من أجل القضاء عليهم . ومن أجل ذلك عمل الحكيم المنجم على اساءة العلاقات بين جناح الدولة والملك رضوان ، واوهم الملك بأنه — اى جناح الدولة — يدبر مؤامرة لاغتياله والاستيلاء على حلب . ولذا تآمر على التخلص منه ، وانتظر الفرصة الموائية لذلك . فلما حاصر الصليبيون قلعة الاكراد قرر جناح الدولة الاسراع لنجدتها ولكن قبل المسير اليهـا اتجه إلى مدينة حمص ليصلى الجمعه وكان ذلك فى رجب ٤٩٦ هـ / مايو ١١٠٣ م . ولكن الحكيم المنجم كان قد سير ثلاثة من الفـداوية متنكرين فى زى الصوفية لإغتياله ، فلمـا وصل بموضع مصلاة أقتربوا منه وتظاهروا بالدعاء له ثم وثبوا عليه وطعنوه بخناجرهم فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أتباعه ، وكان هذا أول ضحية لهم في الشام (٢) . ولقد شاءت الصدف أن يكون ضمن المصلين عشرة من الصوفية فظنوا انهم أتباع الحشيشية وقضوا عليهم تماما (٣) . ولقد أدى مقتـله إلى أضطراب أهـل حمص الذين أرسلوا إلى ظهير الدين طغتكين ودقاق صاحب دمشق يلتمسون أرسال نائب

---

(١) Stevenson, The Crusaders in the East, p. 75.

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٣ ، ابن العديم زبدة الحلب ج ١ لوحة ١٢٥ ، أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٨ ، محمد راغب الطباخ : أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٩٠ راجع أيضا :
R. O. L., t. XI (1908), p. 158, Setton op. cit., t. I, p. III, Lewis, op. cit., pp. 485 - 486, Runciman, op. cit., t. II, p. 59 Treece The Crusades, p. 136.

(٣) Defrémery op. cit., p. 379.

ليتسلم القلعة خوفا من استيلاء الصليبيين عليها . فتوجها بنفسيهما وتسلما القلعة . فلما علم الفرنجة بذلك عدلوا عن محاصرتها (١) . وبعد مرور حوالى أربعة عشرة يوما على مقتل صاحب حمص ، مات الحكيم فجأة وقيل انه قتل . وقد نجح فى قيادة الاسماعيلية فى سورية حيث كان أول من بشر بالعقيدة الاسماعيلية فيها . وتسلم الدعوة فى الشام بعد الحكيم المنجم ابو طاهر الصائغ (٢) . فكان أول ماوجه اهتمامه اليه هو تنشئة الشباب الاسماعيلى تنشئة قوية . فعم التدريب على أعمال الفدواية والتمرن على الدفاع والهجوم ، كما سار على نهج سلفه فى التقرب من الملك رضوان . وكان يساعده فى إدارة شئون الاسماعيلية قاضى القضاة أبو الفتح السرمينى . ولما طلب أبو طاهر من الملك رضوان حصنا قويا من حلب اعطاه سرمين وأستقر أبو الفتح به (٣) .

واستطاع الاسماعيلية بفضل جهود ابى طاهر الصائغ الاستيلاء على حمص وافامية سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ — ١١٠٦ م (٤) . وسبب ذلك أن متولى أمر هذا الحصن من قبل الملك رضوان قد أرسل إلى صاحب مصر الخليفة الفاطمى الآمر باحكام الله ، وكان يميل إلى مذهبهم ، بطلب أرسال من يسلم الحصن

---

(١) ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ص ٣ ، السيد الزاوى : فرقة النزارية ص ٨٥ .

(٢) Setton, op. cit., t. I, p. III. Guyard, op. cit., p. 348.

(٣) مصطفى غالب: أعلام الاسماعيلية ص ١٠٠ ، عمر أبو النصر: قلعة الموت ص ١٥٧

(٤) افامية هى مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص ، وهى مدينة قديمة يرجع بناؤها الى العام السادس من موت الاسكندر (٣١٣ ق. م) . انظر ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٣٢٢ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٢ .

ابن ملاعب القاضى ابا الفتح السرمينى ونهره ، الا أن القاضى اقسم له على اخلاصه له فقبل ابن ملاعب هذه الثقة منه (١) . ثم عاد القاضى واتصل بابى طاهر وعرض عليه أن يرسل ثلاثمائة رجل من أهل سرمين ومعهم خيلا من خيول الفرنجه وسلاحا من أسلحتها ورؤوس من رؤسهم ، ويأتون الى ابن ملاعب ويظهرون انهم غزاة ويشكون معاملة الملك رضوان واصحابه لهم ، وانهم فارقوه فلقيهم جماعة من الفرنجة فظفروا بهم ، ويحملون جميع ما معهم اليه فاذا اذن لهم بالمقام نفذوا الحيلة . ففعل ابن الصائغ ذلك ، وصل القوم إلى افامية وقدموا إلى ابن ملاعب مامعهم من الخيل وغيره فقبل ذلك منهم وأمرهم بالبقاء عنده وأنزلهم فى ربض افامية . فلما كان فى إحدى الليالى نام الحراس بالقلعة فقام القاضى ومن بالحصن من اهل سرمين ودلوا الحبال واصعدوا أولئك القادمين جميعاً وقصدوا أولاد ابن ملاعب واصحابه فقتلوهم . واتى القاضى وجماعته معه الى ابن ملاعب وهو نائم فأحس بهم الا أن طعناتهم كانت أسرع منه فمات . ولكن أحد ابنائه استطاع الفرار والتجأ عند الحسن بن منقذ صاحب شيزار محفظة لعهد كان بينهما . ولما سمع ابو طاهر بما حدث سار الى افامية وليس عنده ادنى شك فى ان الحصن له ، ولكن فوجىء بأبى الفتح يقول له « انوافقتنى واقتسمت معى فبالرحب والسعة ونحن بحكمك والا فارجع من حيث جئت » ، فتملك ابن الصائغ اليأس (٢) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص ١٧١ ، انظر أيضا :

Defrémery, op. cit., pp. 380 - 382.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ ، سبط ابن الجوزى : مراه الزمان جـ ٨ ص ١٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٢٧ ، ابو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢٣١ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢ لوحة ٥٩١ - ٥٩٢ .

ابن ملاعب القاضي ابا الفتح السرميني ونهره ، الا أن القاضي اقسم له على اخلاصه له فقبل ابن ملاعب هذه الثقة منه (١) . ثم عاد القاضي واتصل بابي طاهر وعرض عليه أن يرسل ثلاثمائة رجل من أهل سرمين ومعهم خيلا من خيول الفرنجه وسلاحا من أسلحتها ورؤوس من رؤسهم ، ويأتون الى ابن ملاعب ويظهرون انهم غزاة ويشكون معاملة الملك رضوان واصحابه لهم ، وانهم فارقوه فلقيهم جماعة من الفرنجة فظفروا بهم ، ويحملون جميع ما معهم اليه فاذا اذن لهم بالمقام نفذوا الحيلة . ففعل ابن الصائغ ذلك ، ووصل القوم إلى افامية وقدموا إلى ابن ملاعب مامعهم من الخيل وغيره فقبل ذلك منهم وأمرهم بالبقاء عنده وأنزلهم فى ربض افامية . فلما كان فى إحدى الليالى نام الحراس بالقلعة فقام القاضى ومن بالحصن من اهل سرمين ودلوا الحبال واصعدوا أولئك القادمين جميعاً وقصدوا أولاد ابن ملاعب واصحابه فقتلوهم . واتى القاضى وجماعته معه الى ابن ملاعب وهو نائم فأحس بهم الا أن طعناتهم كانت أسرع منه فمات . ولكن أحد ابنائه استطاع الفرار والتجأ عند الحسن بن منقذ صاحب شيزار محفظة لعهد كان بينهما . ولما سمع ابو طاهر بما حدث سار الى افامية وليس عنده ادنى شك فى ان الحصن له ، ولكن فوجىء بأبى الفتح يقول له « ان وافقتنى واقتسمت معى فبالرحب والسعة ونحن بحكمك والا فارجع من حيث جئت » ، فتملك ابن الصائغ اليأس (٢) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٧١ ، انظر أيضا :

Defrémery, op. cit., pp. 380 - 384.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٧١ — ١٧٢ ، سبط ابن الجوزى : مراة الزمان جـ ٨ ص ١٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٢٧ ، ابو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢٣١ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢ لوحة ٥٩١ — ٥٩٢ .

اعلنا نتبين مما سبق ميل ابي الفتح السرميني إلى الزعامة. ولا يستبعد ان يكون الحسن ابن الصباح قد عينه رئيسا للدعوة في تلك النواحي ، وان ماحدث ما هو الا خدعة كان يهدف من ورائها شل حركة الملك رضوان عن التدخل في شئون إفامية . إذ لا يعقل أن يقف النزارى المخلص هذا الموقف الجاف ، خاصة وانهم جميعا قد اتوا الي الشام من أجل هدف واحد هو نشر الدعوة به والتعاون لتحقيق ذلك(١).

علي أية حال لما سقطت إفامية في ايدي الاسماعيلية خشيت بعض العناصر الصليبية الموجودة بها من سقوط المدينة في قبضة الحلبيين في ظل هذه الفوضى الضاربة اطنابها بعد مقتل خلف بن ملاعب والشقاق الدائر بين الحشيشية . ولذلك فقد ارسل جماعة من الحشيشية يستدعون حضور تنكريد صاحب انطاكية للاستيلاء على المدينة(٢) . وتوجه تنكريد بالفعل إلى إفامية وأخذ معه سبعمائة فارس والفا من المشاه ، ووصل المدينة ولكن الداعي ابا الفتح السرميني رده عنها ودفع له مبلغا كبيرا من المال غير ان مصبح بن ملاعب الذى استطاع الفرار بعد حادث إفامية ، التجأ إلى تنكريد وأخذ يحضه على ضرورة العودة اليها مرة ثانية واطمعه فيها قائلا له بأن قوتها تتضاءل ولن يكفي تموينها اكثر من شهر واحد . كما شرح له ضعف مركزهم . ولذا عاد اليها تنكريد مرة أخرى ، وحاصرها وتسلمها بالأمان في الثالث عشر من محرم سنة ٥٠٠هـ/ ١٥ سبتمبر ١١٠٦م ، وقبض على ابى الفتح السرميني وحمل معه ابا طاهر الصائغ وأصحابه أسرى . إلا انه منحهم الحياة مقابل مبلغاً من المال أفتدوا

(١) طه شرف : دولة النزارية ص ١٨٤ .

(٢) انظر الملحق الأول باخر الكتاب راجع كذلك :

Grousset, op. cit., t. I, p. 424.

انقسهم به وعاد ابو طاهر الى حلب[١] . ولقد كان هذا الاتصـال الصليبي الاسماعيلي بمثابة الحلقة الأولى فى سلسلة الاتصالات التى تمـت بينهما خـلال القرن الثانى عشر الميلادي (القرن السادس الهجرى) . ومنه يتضح ارتباط مصالح الفرنجة والاسماعيلية فى الشام والأمر الذي أدي إلى تعاونهمـا معـا امام عدو مشترك لكليهما .

وكيفما كان الأمر ، فقد ظل الملك رضوان على حبه وثقته بالنزارية رغم انفرادهم بالسيطرة على افامية . والدليل على ذلك أنه فى سنة ٥٠٥/١١١١م عندما اتجه السلطان محمد السلجوقى لمحاربة الصليبيين فى بلاد مابين النهـرين وحاصر مدينة الرها إمتنع رضوان عن إمداده بالمؤن اللازمة وإغلاق فى وجـه قواد السلطان أبواب حلب . فما كان منهم إلا ان ضربوا الحصار حولها مـدة طويلة . واضطر رضوان إلى الاحتماء بقلعتها واستعان بالنزارية فى حفظ النظام وصد هجمات قواد السلطان[٢]. ولكن يبدو ان رضوان أحس فى آخـر أيامه بالخطأ الكبير الذى ارتكبه عندما تعاون مع الحشيشية واحتضن دعوتهم وحماهم ، مما أثار السنيين عليه . وقد بدأ هذا الشعور عندما تآمروا عليه وعملوا من أجل احتلال قلعة حلب ذاتها . وكان للملك رضوان كاتب من الديلم)[٣]

---

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٠

(٢) طه شرف : دولة النزارية ص ١٨٤ .

(٣) هم جماعة من أهل الكفر يقال أنهم من بنى ضبة ، وهى طائفة تسكن فى بلاد يحدها من الجنوب قزوين وشيئا من اذربيجان وجانبا من الرى ، ويفصل بينها من جهة الشرق بقية الرى وطبرستان ، ويتصل بها من الشمال بحر الخزر ، ومن الجهة الغربية جانب من اذربيجان انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٢٠٣ ، القزوينى : اثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١١ .

يسكن القلعة وقد عرض عليه أبي طاهر ونائبه أن يهيء لهما ولرجالهما الجو من أجل الاستيلاء على القلعة . فكان يصعد اليه كل يوم رجلا أو رجلان أو اكثر فيرسلهم الى داره القريبة من القلعة ويطلب اليهم المكوث في الغار الموجود بها ، ويقدم لهم الطعام والشراب . وظل على هذا الحال إلى أن بلغ عددهم ثلاثة وستون رجلا . وفي أحد الأيام وصل إلى حلب أحد الباطنية من أهل سرمين وبات ليلة عند أبي سعد الاسبسلار . ولما كان صديقا له فقد نصحه بعدم التواجد في القلعة بل النزول الى المدينة وأفشى له بالخطة السرية الموضوعة من أجل الاستيلاء على حلب واستحلفه بالكتمان . فصار ابو سعد في الحال الى الملك رضوان وأطلعه على حقيقة الأمر . فطلب منه رضوان الرأى والمشورة ووافق بشرط ان يقدمه على جميع من القلعة ويكون له الكلمة الأولى والمطاعة . فأمر الملك بذلك ، ثم توجه مع أبي سعد بالقوات اللازمة ، وهاجموا دار الكاتب وقبضوا عليه وقطعوا رأسه وأمروا رجال الاسماعيلية بالخروج من الغار والا تم هلاكهم عن آخرهم . وقد أعطاهم الملك رضوان أمانا بشرط ان يخرجوا من البلد ، وقد تم لهم هذا . ولما سمع باقي الباطنية الموجودين في المدينة بذلك اخذوا يفرون خوفا من انتقام الملك رضوان(١). فكانت تلك المؤامرة من العوامل التي أدت الى نفور الملك رضوان من الباطنية ، وكان يترقب الفرصة من أجل التخلص منهم . وسرعان ما حانت هذه الفرصة وكان ذلك في سنة ٥٠٥هـ/١١١١م حينما اتهم رضوان بالتواطؤ مع النزارية على إغتيال احد تجار فارس الأثرياء عند مروره بتجارته من حلب ، على ان يقتسما الغنائم معا ، ولكن شاءت الظروف ان استطاع التاجر التغلب على مهاجميه ، ولما عرف

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١ ص ٧٦ .

واقع الحال ثارت حلب عليهم فيما يشبه مذبحة عامة ، واضطر رضـــوان الى اظهار رضاله عن المذبحة . ولكن بعض العناصر الاسماعيلية استطاعت الافلات منها(١)

ولما توفى الملك رضوان فى جمادى الآخر سنة ٥٠٧هـ/ديسمبر ١١١٣م فقد الباطنية بالشام نصيرا لهم كان يشملهم بصفة عامة بعطفه فضلا عن حمايتهـم وتأييدهم وخلفه فى حكم حلب ابنه الب ارسلان وكان يبلغ من العمر ستة عشر عاما وكان امر الباطنية قد استفحل فى هذا الوقت وكثر اتباعهـم ممن اعتنقوا المذهب الاسماعيلى ، وصار كل من اراد ان يحمى نفسه يلتجيء اليهم. وقد سار الب ارسلان على نهج سياسة أبيه فيما يتعلق بالاسماعيلية . وكتب اليه السلطان السلجوقى حينذاك وهو محمد بن ملكشاه يقول له « كان والدك يخالفنى فى امر الباطنية وانت وانت ولدى فأحب أن تقتلهم » . وفى الحال شرع ابن بديع رئيس حلب مع الب ارسلان فى امرهم ، وقرر الايقاع بهم والنكاية بهم . وابتدات خطتهم بالقبض على ابى طاهر بن الصـــائغ رئيس الباطنية فى الشام وعلى كبار رجاله . وتم قتلهم ، كما قتـــلوا كل من يدين بالولاء لهذا المذهب . وقبضوا على زهاء مائتى نفس منهم والقى بهـــم فى السجون . واخذت اموالهم ، كما رمى البعض الآخر من اعلى القلعة . واستطاع عدد منهم الافلات وتفرقوا فى البلاد والتجأ نفر الى الفرنجية(٢) .

---

(١) السيد الغزاوى : فرقة النزارية ص ٨٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٩ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢١٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٣٢ ، ابن الجوزى : مراة الزمان جـ ٨ ص ٤٦ ــ ٤٧ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ لوحة ٦٧٧ ــ ٦٧٨ انظر كذلك :
Grousset, op. cit., t. I; p. 479, Defrémery, op. cit., p. 393.

وكان رد الفعل لهذه المذبحة التي قضت على كثير من الباطنية ان استحلقوا لابن بديع وقرروا الانتقام منه . وواتهم الفرصة سنة ٥١٠هـ/١١١٦م حيث انقض عليه اثنان منهم وضرباه عدة طعنات ، فالحقهما ولداه وارتميا عليهما فقتلاهما . وفى هذه المحاولة قتل ابن بديع واحد ولديه بينما جرح الآخر . ولكن وثبت عليه فداوى آخر وقتلة فحاول ان يلحق به البعض ، ولكنه رمى بنفسه في الماء وغرق(١).

وتعتبر مذبحة حلب من أهم الأحداث في تاريخ هذه الطائفة في الشام. ولولا الحيوية الكامنة في جسم هذه الجماعة لما بعثت بعناجديدا بسياسة جديدة مبنية على معالجة الأوضاع الخاطئة التي وقعوا فيها ، ومن اهمها عدم محاولة الاستيلاء على المدن بل الاكتفاء بالاستيلاء على بعض الاماكن ذات الموقع الاستراتيجي الهام(٢).

وافلت من مذبحة حلب داعيان كبيران احدهما يسمى حسام الدين حيث فر الى مدينة الرقة واستقر بها حتى مات ، والثانى اسمه ابراهيم بن اسماعيل العجمي ، وهو الذى كان له شأن كبير في عهد رضوان . الا اننا لا نعلم شيئاً عن حياته ، ويستدل من لقبه انه من اصل فارسي . وكان همزة الوصل بين الملك رضوان ومقدم الاسماعلية ، كما كان من القادة الذى يثق فيهم رضوان ، حتى انه جعله نائبا عنه في المحافظة على القلعة التي كان يلجأ اليها هو ورجال دولته في المناسبات(٣). وقد التجأ ابراهيم العجمي بعد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٣٧ .

(٢) طه شرف : دولة النزارية ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٣) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٨٥ .

الايقاع بالاسماعلية فى مذبحة حلب الى شيزر[١]. فكان فيهـــا بنو منقذ ، وتقرب اليهم حتي وثقوا فيه . وفى نفس الوقت اخذ يتصل بجماعة الاسماعيلية الموجودين فى افامية وسرمين ومعرة النعمان ومعرة مصريـين[٢]. وأخـذ الجميع يخططون من اجل الاستيلاء على شيزر لانهم أرادوا اتخاذ قلعتها مقرا لهم يحتمون به بعد الكارثة التى حلت بهم . وقد جذبتهم القلعة لموقعها ، حيث كانت تستقر فوق جبل منيع يتعذر الوصول اليه ويقـع بالقـــرب من نهر الاورنت وهو نهر العاصي فضلا عن أنه لايمكن الوصول اليها الا عن طريق واحد وهذا ما يزيد من مناعتها [٣]. واختار الباطنية يوم عيد الفصح من سنة

---

(١) شيزر مدينة ذات قلعة حصينة ، يمر نهر العاصي فى شمالها ، ثم ينحدر عندها . وهى ذات أشجار وبساتين . وبينها وبين حمـــاة تسعة أميال ، وبينها وبين حمص ثلاثة وثلاثون ميلا ، ومن شيزر الى أنطاكية ستة وثلاثون ميلا . ولها سور من لبن وثلاثة أبواب . انظر : أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٦٢ .

(٢) معرة النعمان مدينة قديمة واسكنها مهدمة اليوم ، وتقع فى منطقة حمص بين حلب وحماة ، وعرفت بالنعمان نسبة الى النعمان بن بشير صحابى النبى الذى توفى ودفن فيها . وبنيت بها قلعة حصينة على يد المظفر محمود بن ناصر محمد بن تقى الدين بن عمر شاهنشاه وكانت قبل ذلك تسمى بذات القصور . وقيل أن النعمان اسم جبل يطل عليها فسميت به أما معرة مصريين فهى بنواحى حلب ، ومحفوفة بالأشجار والبساتين وكان لهـا سور قديم مبنى بالحجر . وكلمة معره فى اللغة العربية تعنى كوكب فى السماء أو قتال بدون اذن قائدة أو تلون الوجه من الغضب . وقد استولى عليها الغازى بن أرطق من الفرنجة سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م . انظر : ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٧٤ ، مراصد الاطلاع نشر T. G. Tuynboli جـ ٣ ص ١٢٠ ، الدمشقى الانصارى ، نخبة الدهر ص ٢٠٥ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٤ ، مهذب رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٥٥ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ ، السيد الغزاوي : فرقة النزارية ص ٨٦ ، مصطفى غالب : اعلام الاسماعيلية ص ٨٥ .

٥٠٧ هـ/١١١٣م موعدا لتنفيذ خطة الاستيلاء على القلعة ، حيث سيخرج سكانها المسيحيون منها للاحتفال بمظاهر هذا العيد ، فضلا عن غياب البعض من اهالى القلعة فى رحلات الصيد . وبالفعل عندما خرج الأهالى فى اليوم المذكور وأصبح لايحمى القلعة سوى عدد قليل من المسلمين ، تسلق مائة رجل من رجال الاسماعلية وانقضوا عليها على غفلة ممن فيها وأخرجوا منها وأغلقوا أبوابها وملكوا القلعة وابراجها ، ولكن الداعى ابراهيم العجمى لم يستقر طويلا فى القلعة ، لأن أصحابها هاجموها ليلا واستطاعوا تسلق الجدران عن طريق الحبال التى أدلاها لهم نساء المدينة اللائى بقين بها . واستطاعوا فتح أبواب القلعة والهجوم عليها وقتلوا كل من كان فى البلد من الإسماعيلية(١).

وارسل الحسن بن الصباح إلى الاسماعيلية بالشام خطابا يعزيهم فيه ويشجعهم حتى يكونوا مثلا اعلى يسير عليه اخوانهم النزارية الآخرون. وعثر بنو منقذ مع الاسماعيلية على رقعة من هذا الخطاب فيها «رحكم الله يااخواننا لان يصاد من الطير الا من يحسن التسبيح لاغير »(٢).

ونظرا لأن الاسماعيلية قد تعرضوا للاضطهاد والمذابح أيام البارسلان، فقد سروا لوفاته سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤م وتوليه نجم الدين أيلغازى حاكما على حلب . اذ عملوا على التقرب اليه وجذبه إلى عجالتهم . فكان يتودد اليهم على نهج سياسة الملك رضوان . ولهذا عاد نفوذهم قويا فى مدينة حلب، واعتقدوا

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ لوحة ٦٧٢ راجع كذلك :

Grousset, op cit , t. I, p. 5-0, Defrémery, op cit., pp. -93 - 96.

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١ ص ٧١ .

أن أ يلغازى سيساعدهم على الاستيلاء على أحدى القلاع التى كثيرا ما كانوا يرغبون فى إحتلالها وهى قلعة الشريف المجاورة لحلب ، تلك القلعة التى سبق لهم أن طلبوها من السلطان الب ارسلان ، ولكن لما أجابهم إلى ذلك ثارت ثائرة قاضى المدينة أبو الحسن بن الخشاب وعمل على اخراجهم بعد أن قتل منهم ثلاثمائة نفس وأسر مائتين وعلق رؤوس القتلى على أبواب المدينة(١) .

على أية حال، لما تولى نجم الدين ايلغازى امر حلب عادالاسماعيلية مرة اخرى فى التخطيط للاستيلاء على قلعة الشريف . فأرسل داعى الدعاه ابو محمد الذى كان قد أوفد الى الشام سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م من قبل شيخ الجبل الحسن بن الصباح رئيساً للدعوة الاسماعيلية فى الشام . وتمكن من الهرب من المذبحة التى نصبت للاسماعيلية فى كل من حلب وشيزر وأرسل احد رسله محملا بهدايا كثيرة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م الى ايلغازى يطلب منه فى خطاب موجه اليه ان يسلمه قلعة الشريف ليتخذها مسكنا ومأوى لاتباعه . ونظراً لان ايلغازيا كان يود أن يحتفظ بصداقته للاسماعيلية وفى نفس الوقت لا يحبذ فكرة امتلاكهم اماكن ينشرون منها دعوتهم حتى لا تكون بمثابة تهديد للدولة ، فقد أجاب بلباقة على رسول الاسماعيلية متظاهرا بأنه قد أمر بتخريب هذه القلعة بل وصوله بقليل وفى نفس الوقت ارسل اشارة الى حماة القلعة عن طريق الحمام الزاجل يأمرهم بهدم السور الذي يفصل بين حلب والقلعة ، كما سلم الرسول النزارى خطابا موجها الى قائد القلعة يأمره بأن يسلم القلعة الى الرسول النزارى . وقد أراد إيلغازى من وراء هذه المناورة ان يوهم مقدم الاسماعيلية بأنه يستجيب دائماً الى مطالبه بدليل انه سلم الرسول الاسماعيلى خطابا يتضمن امر تسليم القلعة

---

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٥ ، طه شرف : دولة النزارية ص ٢٠٠ .

اليه . وفى نفس الوقت فان ايلغازى كان متأكدا بأن الحال الذى أصبح عليه شكل القلعة بعد تهديم سورهـا لن يجوز رضـاء الاسماعيلية الامر الذى يجعلهم يرفضون تسلمها . وبذلك يكون قد وفق بين ارضاء الإسماعيلية والمحافظة على صداقتهم ، و بين رغبته فى عدم وجود الاسماعيلية فى هذه القلعة . وحدث فعلا ما توقعه ايلغازى ، اذ لما وصل الرسول الاسماعيلى إلى القلعة وجدها مهدمة وعلى غير ما يرغب الاسماعيلية ، وكانت صدمة كبيرة لهم حيث كانت تحدوهم الآمال فى الاستقرار بها لتكون مركزاً لهم فى بلاد الشام يبثون منهـا دعاتهم وينشرون دعوتهم . ولكن يبدو انه قد حدث مالم يكن فى حسبان ايلغازى فنراهم قد عادوا وطلبوا مرة أخرى أخذ القلعة واصـلاحها واقامة سورها . ولكن ايلغازى اجاب بـانه ليس له حيلة امـام أهل المدينة السنيين ولا يمكنه معاداتهم ، وأخذ عليهم عهداً بعدم الاتصال به فى السر (١) .

وثمة رأى آخر فى هذا الشأن ، وهو انه عندما طلب ابو محمد امتلاك قلعة الشريف ، انتقل الخبر بين عامة الناس فى حلب وأخذوا ينصحون بعضهم البعض بضرورة عدم تنفيذ هذا ، لانه لو اخذت القلعة فسوف تمتد أطماع الاسماعيلية ويصبحون سادة حلب . ولذا أسرعوا بهدم سورها وعملوا خندقا يفصل بين كل من قلعة حلب وقلعة الشريف (٢) .

وكيفما كان الامر ، فقد خلف الداعى بهرام بنى موسى الاسترابادى (٣) .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٢ ص ٣٩ – ٤٠ انظر أيضا :
Defrémery, op. cit., pp. 399 - 401.

(٢) Defrémery, op. cit., p. 401.

(٣) ولد فى سمرقند سنة ٤٠٩ هـ / ١٠٦٦ م ، وكان أبوه من تجار الاسماعيلية وقد

ابراهيم العجمى الذى قتل فى مذبحة شيزر . ولما وصل الشام نزل على حلب حيث قام ببعض التنظيمات فى صفوف الاسماعيلية . وأخذ يتنقل من مدينة الى اخرى ، ومن قلعة الىاخرى فى استتار تام دون ان يعرفه احد . وظل هكذا حتى كثر اتباعه وصادق نجم الدين ايلغازى . ثم اتجه الى دمشق على رأس فريق من الاسماعيلية حيث كان صاحبها حينذاك ظهير الدين طغتكين وكان قد اتفق ايلغازى مع صاحب دمشق على اكرامه لاتقاء شره وشر جماعته مع السماح له بالاستقرار فى دمشق (٢) . واستفحل امر بهرام فى دمشق ، وتبعه من جملة الناس وسفهاء العوام والفلاحين ممن لا عقل لهم ولا دين وذلك من أجل الاحتماء به . وعاونه الوزير ابو علي سعد طاهر بن المزدغانى . ولولا ان أهل دمشق يغلب عليهم مذهب السنة وانهم يشدون عليه فى كل ما يريد لاستطاع امتلاك البلد . ولكن لما رأى بهرام مدى سوء المعاملة والعداوة التى يكنها له اهل دمشق خاف على اتباعه وطلب من ظهير الدين طغتكين حصنا يأوى اليه ويحتمى به فأشار عليه وزيره بأن يسلمهم ثغر بانياس . وبالفعل تسلم بهرام هذا الثغر فى ذى القعدة سنة ٥٢٠ هـ / ديسمبر ١١٢٦ م . وترك بدمشق نائبا له يدعو الناس الى مذهبه ، وكان هذا هو اول امتلاك شرعى للاسماعيلية فى سوريه . واجتمع

=أرسله الى مدرسة نيسابور لتلقى العلم بها ، وبعد أن أنتهى من دراسته انخرط فى سلك الدعاة الاسماعيلية ثم توجه الى مصر سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م للمثول بين يدى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . ولكن بعد موته عاد الى الموت وقرر الوقوف بجانب ابن الصباح بعد تأسيس الدولة النزارية بفارس . ثم أرسله ابن الصباح الى الشام خلفا لابراهيم العجمى . انظر : مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ١٧١ .

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ ، السيد العزاوى : فرقة النزارية ص ٨٦ .

بانياس جماعة من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام الذين استمالهم بخدعة واضاليله ، فعظمت المصيبة بهم الامر الذى أثر علماء السنه وفقهائها والمتدينين ولكنهم أبوان يشكوا امرهم لاحد خشية على انفسهم ، لان الاسماعيليين كانوا يقتلون كل من يعاندهم ويقف موقف العداء (١) . وقد ترك امتلاكهم لهذا الثغر اثراً كبيراً فى ازدياد نفوذهم وقوتهم بشكل ملحوظ فى المنطقة (٢) . ولما اشتد امرهم بدأوا يتطلعون إلى الاستيلاء على الحصون والقلاع المجاورة لهم فى جبال صهيون حتى صارت لديهم وسموها دار الدعوة التى يجتمعون فيها (٣) . وفضلاعن هذا ما كان بهرام قد بث دعاته فى سائر الجهات ، حيث اعملوا السب والنهب واعانهم على ذلك الوزير المزدقانى (٤) .

وفى سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تعرض الاسماعيلية الى مذبحة أخرى من قبل السلطان سنجر بن ملكشاه (٥١١ — ٥٥٢ هـ / ١١١٨ — ١١٥٧ م) راح ضحيتها أثنا عشر الفا من الباطنية . وذلك بسبب ضيق صدره من الاعمال التى كانوا يقترفونها فى المنطقة . ولقد كان وزيره معين الدين هو المحرض الاول لهذه المذبحة ، إذ كان يرى ضرورة استئصالهم قبل اتساع نفوذهم ونشاطهم اكثر مما وصلوا اليه ونظير ذلك تعرض هذا الوزير لخناجر الفداوية واصبح بخياله للابد حيث تنكر احدهم فى زى سايس يخدم فى اصطبله واخذ يترقبه

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٩ ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ٩٦ ـ ٩٧ ؛ العينى : عقد الجمان جـ ٢ لوحة ٨٥٨

(٢) De frémery, op. cit., p. 405.

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢ لوحة ٨٥٨ ، ابن قاضى شهبه : الدر الثمين فى سيرة نور الدين لوحة ٧٦ انظر أيضا : Grousset, op. cit., t. I, p. 6??.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢١ .

بجيداً حتى واتته الفرصة لاغتياله اثناء تفقد الوزير احوال خيله ، فوثب عليه وقتله وقتل بعده . وقد حدث هذا فى سنة (٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، أى فى ذات السنة التي تعرض فيها الاسماعيلية للمذبحة المذكورة (١) .

وحدث فى سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩م أن استدعى بهرام برق بن جندل أحد مقدمي وادى التيم وقتله بغير سبب معروف بل اغترارا منه . فتألم أهل الوادى لتلك الكارثة التى حلت بهم وصمم أخوه ضحاك بن جندل الإسراع بأخـذ الثأر من رجال الاسماعيلية وقرر قصد بانياس . ولما علم بهرام بهذا أعد رجاله لمقابلتهم وترك رجلا يسمى اسماعيل العجمي نائبا عنه فى بانياس . ولكن ماكان من الضحاك وجماعته إلا أن باغتوه صباحا وقاتلوا الاسماعيلية شر قتال. وقد مات بهرام فى هذه المعركة ، وقطعوا رأسه ويديه وطافوا بها فى البلاد ، ثم بعثوا بها الى خليفة مصر الفاطمي الآمر بالله (٤٩٥ — ٥٢٤هـ/١١٠١ — ١١٢٩م) لأنهم كانوا ينتمون اليه . وعاد باقي الاسماعيلية المهزومين فى أقبح صورة إلى بانياس حيث كان بها اسماعيل العجمى الذى عمل على جمع شملهم من جديد وبث دعاته فى البلاد(٢). ووجد اسماعيل العجمي خير المعاملة والتعاون من قبل الوزير المزدغانى تماما مثل ماكان الحـال أيام بهرام . وكان الوزير

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٢ ، ابن قاضى شهبه : الدر الثمين لوحة ٧٧ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢١ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ٢٩ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ لوحـة ١٥ ، ابن قاضى شهبه : الدر الثمين لوحة ٧٩ — ٨٠ ، راجع كذلك :

Setton, op. cit., t. I, p. 115, Defrémery, op. cit., p. 4:2,

يهدف من مساعدته أن يقف معه ضد اعدائه إذا استلزم الأمر إلى ذلك (١) .

وفي هذا الوقت كان المتولى أمر دمشق هـو الملك تاج الملوك بومري بن ظهير الدين طغتكين بعد وفاة أبيه طغتكين في سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م . وقد عظم أمر الباطنية بقيادة زعيمهم أبي الوفا الكردى الذى تولى خلفا البهرام فى هذا الوقت فى الشام . وكثرت شكوى الناس لدرجة أنه أصبح المستولى على دمشق بعد أن إستبد بصاحبها . ولذلك عـزم تاج الملوك بورى على القضاء عليهم فى أول فرصة مواتية . وقد جاءته الفرصة بالفعل عندما نمى إلى علمه أن وزيره المزدغانى قد راسل الصليبيين على أن يملكهم مدينتـه دمشق مقابل أن يعطوه مدينة صور هو والحشيشية ، وتواعدوا عـلى اليوم والساعة المعينة التى سيتم فيها تنفيذ الخطة ، وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعـة حيث انشغال الناس فى الصلاة ، وقد اتفق الوزير المزدغانى مع الاسماعيلية على أن يحيطـوا بابواب الجامع فى ذلك اليوم بحيث لا يمكنوا أحداً من الخـروج منه حتى يأتى الصليبيون ويملكوا البلد . وقد استدعى تاج الملوك بورى ثم أمر بقتله وتعليق رأسه على باب القلعة ونادي فى الناس باباحة قتل الباطنية . وكانت مذبحة قاسية راح ضحيتها ستة آلاف وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٢٣ هـ/ سبتمبر ١١٢٩م (٢) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٢ ، ابن قاضى شهبة : الدر الثمين لوحة ٨٠ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٣ ، العماد الحنبلي : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٤ ص ٦٦ ، الذهبي : العبر فى أخبار من غبر جـ ٤ ص ٥٣ ، النويري : نهاية الأرب جـ٢٥ لوحة ١٠٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٠٠ راجع كذلك :

ولما سمع اسماعيل العجمى وأعوانه بما وقع لاعدائهم فى دمشق خافوا على أنفسهم ، وقاموا بالكتابة إلى الفرنج يعرضون عليهم تسليمهم بانياس مقابل منحهم جزيرة يتجمعون فيها وكان ملكهم حينذاك هو بلدوين الثانى (١) ، فرحب بهذا العرض وتسلم الصليبيون بانياس .

أما بالنسبة لجماعة الاسماعيلية فقد تجهوا إلى الأراضى الصليبية للاحتماء بها ، ولكنهم لم يجدوا غير سوء المعاملة والاحتقار ، وفى أوائل سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م توفى اسماعيل العجمى أثر اصابته بالدوسنطاريا ، ولم يستمر ثغر بانياس مع الصليبيين مدة طويلة حيث تمكن شمس الدين تاج الملوك بورى من استعادته سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٢م(٢) وبهذا يكون قد اكتملت الحلقة الثانية من حلقات الاتصال الصليبي الاسماعيلى فى الشام .

وفى الواقع ليس من المستبعد أن تكون كثرة المذابح التى تعرض لها الاسماعيلية فى الشام من قبل السنيين قد فتحت أبواب التقارب بينهم وبين الصليبيين الذين وجدوا فيها فرصة ذهبية لتحقيق أطماعهم فى الشرق الأدنى على حساب الخلاف السياسى والصراع المذهبى بين المسلمين تماما مثلما حدث أثناء الحملة الصليبية الأولى .

=Michaud, op. cit., t. I, pp. 3.5 - 306, Grousset, op. cit., I, op. 660 - 661.

(١) تولى حكم مملكة بيت المقدس فى الفترة من سنة ١١١٨ — ١١٣١ م /٥١٢— ٥٢٦ هـ وكان قوى الشخصية نشطاً جريئاً ومحاربا شجاعا . انظر عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ص ١٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ٢٨٠ ، انظر أيضا :
Grousset, op. cit., t. I, p. 661, Treece , The Crusades, p. 12 .

وعلى أية حال ، أسف الصليبيون لما حدث ، كما ضايقهم عدم تمكنهم أخذ دمشق مستغلين هذه الخلافات بين المسلمين ، ولذا شرعوا في الاستيلاء عليها عنوة . فجمعوا حشودهم من الرها وانطاكية والقدس وطرابلس . فلما علم تاج الملوك بورى بتحركاتهم تأهب لمقاومتهم وأستطاع الحاق الهزيمة بهم مما أدى إلى هرب جيوشهم أمام ضربات المسلمين ، وكان ذلك سنة ١١٢٩م / ٥٢٣ هـ (١) .

أما الباطنية في فارس فلم يرضوا بهزيمة أخوانهم في الشام أثر المذبحة التي تعرضوا لها من قبل تاج الملوك بورى . ولذا صمموا على الانتقام منه وأخذوا يتربصون له منتهزين الفرصة المناسبة لينقضوا عليه . وندبوا رجلين من الفداوية لتنفيذ هذه المهمة . وقد وصلا دمشق في زى الاتراك ، ونزلا على معارف لهما من الاتراك سألوهم الوساطة في استخدامهما . فتدرجا حتى أوصلا إلى أن يكونا ضمن المعهود اليهم حفظ ركاب الملك تاج الملوك بورى الذى أنس بهما ظنا منه أنهما من غلمانه . وأقاما شهرين يتصيدان الفرصة ايثبا عليه . وانتهزوا فرصة خروجه من الحمام في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦هـ/مايو ١١٣٢ م ووصوله إلى باب القلعة بدمشق ، ووثبا عليه بعد تفرق من كان في ركابه . وضربه أحدهما بالسيف قاصدا رأسه فجرح في رقبته ووقع على ركبتيه فضربه الآخر بخنجره في خاصرته نفذت من الجلد واللحم ورمى بنفسه إلى الارض . وتجمع أتباعه عليهما وقطعوهما بالسيوف وعملوا على علاج تاج الملوك فبرىء من الجرح الذى في عنقه ، أما الجرح الذى في خاصرته فلم يبرىء منه وكان

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ لوحة ١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٠٠ .

سببا فى وفاته . وتولى أمر دمشق من بعده أبنه شمس الملوك اسماعيل (١) .

وكيفما كان الأمر فقد أراد الاسماعيلية أن يعوضوا فقدهم لحصن بانياس فاشتروا حصن القدموس من صاحبه سيف الملك بن عمرون سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٣م . كما استولى على حصن مصياف فى سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠-١١٤١م (٢).

وكان الاسماعيلية فى بلاد الشام ، رغم طاعتهم لرؤسائهم المبعوثين من ، الموت ، فكانوا يخضعون فى نفس الوقت لشيخ الجبل الموجود بقلعة الموت فى فارس (٣) . وجدير بالذكر هنا أنه رغم القوة والنفوذ الذين اتسم بها نشاط الاسماعيلية فى الشام وقتذاك ، إلا أنه من المشكوك فيه أن كان لهذه الجماعة بالشام جيش منظم يستطيع الدفاع عن مجتمعه . ولعل فى المذابح المتتالية التى تعرضت لها الاسماعيلية سواء فى حلب أو فى دمشق أو شيزر على يد المتحالك أبن جندل خير مايبرر هذا القول ، حيث كان يقضى عليهم قضاء مبرما فى كل مذبحة دون أى رد فعل ايجابى من ناحيتهم . فليس من المعقول أن يقضى على جيش بأكمله وفى سنوات متقاربة اللهم إلا إذا كان هذا الجيش لا يعدو أن يكون أكثر من جماعات فدائية محدودة العدد . فضلا عن أننا لم نسمع عن هجوم شامل قام به الأساعيليه ضد أى قوة من القوات المعادية ، كما أننا لم نسمع عن نشاط دفاعى من قبل هذه الجماعة لصد قوى المناوئين لهم على غرار

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ٢٢٥ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٣٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٤٩ ، العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٧٨ ، ابن قاضى شهبه : الدر الثمين لوحة ٨٣ .

(٢) انظر ما سبق ص ٩١ ، ٩٩ وكذلك خريطة قلاع الدعوة

(٣) Guyard, op. cit. p. 352

ما كان يحدث في الموت عند هجمات السلاجقة عليهم . بل كانت هناك حركات فردية لا تأخذ صفة الجيش النظامي . أما بشأن نفوذهم وقوتهم فليس مرجعه وجود جيش قوى قائم وإنما مرجعه الرهبة التى فرضتها هذه الطائفة على عامة الشعب بسبب كثرة استخدامها للخناجر السامة فضلا عن سيطرتها على الحكام الموجودين وصداقتها لعدد منهم ، وتزايد عدد معتنقي الدعوة . وبناء على ذلك يمكن القول بأنه لو كان هناك جيش منظم لاسماعيلية الشام لتوطدت علاقتهم بالصليبيين بشكل ملحوظ ، ولاستغل الصليبيون الفرصة فى التحالف معهم من أجل الوقوف معا ضد عدوهما المشترك المتمثل فى القوى السنية .

ومهما يكن ، فقد نجحت الدعوة الاسماعيلية فى الشام فى أواخر القرن الخامس وخلال النصف الأول من القرن السادس من الهجرة (أواخر القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى) . وساعد على ذلك أن الشام كان مرتعا خصيبا للصراع بين الصليبيين والفاطميين والسلاجقة حينذاك ، مما هيأ لها مناخا ملائما لتحقيق مشاريعها وتنفيذ أغراضها .

وإذا كان النصف الاول من القرن السادس الهجرى (النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادي) قد مر دون أن يتخلله أى نشاط ملحوظ للاسماعيلية بالشام ضد القوات الصليبية والسنية في المنطقة ، إلا أن النصف الثانى من هذا القرن شهد سياسة جديدة للاسماعيلية اتسمت بالقوة والعنف والازدهار فى نفس الوقت ؛ حيث تزعمهم رجل يشهد له التاريخ بالجرأة والذكاء وقوة الشخصية التى تكفى لإدخال الرعب فى قلوب الاعداء والاصدقاء على السواء ، ونعنى به راشد الدين سنان . ونظرا لأنه أول شيخ جبل فى بلاد الشام ، ولأهمية الدور الذى قام به دون غيره من شيوخ الجبل التالين له ، وموقفه من كل من الصليبيين والسنيين . نستعرض له فى شىء من التفصيل والتحليل .

هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد ، ولد في قرية صغيرة من قرى البصرة تعرف باسم قرن السدن سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م (١) . وكانت أسرته على مذهب الشيعة الاثنى عشرية . ولما شب تحول إلى مذهب الاسماعيلية ، وذهب إلى قلعة الموت لتلقى علوم الدعوة بها ، وكان صاحب الموت حينذاك هو محمد بن كيابزرك آميد حيث استقبله وجعله مع ولديه في طلب العلم . وتوطدت بذلك صلة سنان بولى العهد الحسن بن محمد . ولما أكمل دراسته أوفد إلى العراق سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، فاستقر بالبصرة حتى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م ، حيث اختاره الحسن بن محمد نائبا عن الامام في سورية ليتولى أمور الدعوة بها نظرا لما لمسه فيه من ذكاء وشجاعة وذلك بعد أن أصبحت الاسماعيلية على وشك الانقراض في تلك البلاد نظرا للخلافات الداخلية التي نشأت بين بعض الدعاة ، فضلا عن المذابح والاضطهادات التي كانوا يتعرضون لها بين وقت لآخر من قبل الامراء السنيين الموجودين هناك (٢) .

أتجه سنان نحو الشام سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م ، وكان متنكرا في زى الصوفية حتى لايعرفه أحد . وكان حذرا من المرور في المدن الكبرى أو في

(١) عقر السدن هي من قرى الشرطة بين واسط والبصرة . والشرطة كورة كبيرة من أعمال واسط بينها وبين البصرة ، والسكنها يمين المنحدر الى البصرة ، وأهلها من النصيرية . انظر ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٧٠ ، ٦٩٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مراة الزمان جـ ٨ ص ٤٦٩ ، العينى : عقد الجمان جـ ١ لوحة ١٥٩ ، محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٩٠ ، مصطفى غالب تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ٢٠٧ انظر أيضا

Grousset, op. cit., t. II, p. 25, Ency. of Islam., Art, Rashid Sinan. Defrémery, op. cit., p. 5 .

الطرق العامرة خشية أن يراه أحد . ووصل إلى حلب ، ولكن مالبث أن برحها وأنتهى به المطاف إلى قرية صغيرة تعرف باسم بسطريون وهى مجاورة لقلعة الكهف وعكف بهذه القرية يواصل قراءة كتب العقائد المختلفة ، فضلا عن دراسة أحوال الطائفة وأعدائها السنيين . وكان المتولى أمر حلب فى ذلك الوقت هو الملك نورالدين محمود بن عماد الدين زنكى ، الذى واصل سياسة أبيه فى تشكيل الشرق الأدنى الاسلامى لمواجهة كل من الخطـــر الصليبى وأسماعيلية الشام . وكذلك عكف دراسة أمور الصليبيين فى المنطقة (١) . ولابد أنه كان يجول بخاطره الافادة من هذه القوى المتصارعة على مسرح الاحداث وهذا ما ستكشف عنه الفصول التالية .

وذاع صيت سنان فى الأماكن المجاورة باسم الطبيب ، ولعل هذا يرجع أنه فى أحد الايام وقع أحد سكان القرية صريع المرض ، فاستطاع سنان تقديم الدواء اللازم له ، الأمر الذى عجل بشفائه . ومنذ تلك اللحظة صار الناس يقصدونه فى المرض حتى ذاع صيته فى شتى الانحاء المجاورة (٢) ولعل هذا كان سببا من أسباب التفاف الناس حوله من ناحية ، وازدهار الدعوة وقتها من ناحية أخرى . وقد انعكس كل ذلك على علاقته بكل من الصليبيين والسنيين .

ولما وصلت أخباره إلى ابن محمد مقدم الدعوة الاسماعيلية بسورية ، طلب رؤيته والاجتماع به ولما تم الاجتماع بينهما أعجب به أكثر مما سمع عنه ،

---

(١) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٢١٦ ، ميشيل لباد : الاسماعيليون ودولة الاسماعيلية بمصياف ص ٥٦ راجع كذلك :

Grousset, op. cit., p. 353 .

(٢) Ibid , pp. 353 - 354 .

وعرض عليه الاقامة بقلعة الكهف فوافق على ذلك . وظل سنان يساعد ابى محمد مدة سبع سنوات دون أن يطلعه على المهمة التى أوكلت اليه خشية من حدوث فتنة أو انشقاق بين الاتباع . وعندما كان يحتضره الموت سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م علم منه حقيقة شخصيته حيث قال « لقد انقضت مدتك وحان أجالك ونهار غد تفارق هذا العالم فقف على تقليدي قبل موتك » فلما قرأ تقليده على الشيخ ابى محمد بكى وقال له سنان « ماذا يبكيك ؟ » فرد عليه لا أبكي أسفا على مافات من امتثال الأمر المطاع مدة سبع سنوات حتى أن مولانا قد جانبنا عوض الملوك ولم أعلم ما يجب على من تسليمه اليك والدخول فى طاعتك ولم اقض حقا من حقوقك » . وفى اليوم التالى فارق ابو محمد الحياة(١). وتولى سنان منذ هذه اللحظة رئاسة الدعوة بالشام وقد أرسل له شيخ الجبل بالموت، وهو جلال الدين حسن الثالث بن محمد الثانى ، خطابا يؤكد تثبيته فى مركزه كنائب عنه فى سورية ويوصيه بحماية الاسماعيلية من أى فتنة قد تصيبهم (٢).

إذا كنا قد سلمنا بأن سنان مكث سبع سنوات قبل أن يتولى أمر الاسماعيليه بالشام ، معتكفا على دراسة أحوال القوى المتصارعة فى المنطقة بالاضافة الى التفقه فى أمور العقائد الاسماعيلية . فانه ليس من المعقول أن يظل أمره خفيا على مقدم الدعوة أبى محمد الذى كان بفضل عيونه يستطيع

---

(١) أبو فراس : فصل من اللفظ الشريف لمناقب راشد الدين سنان تحقيق جويارد ص ٤٥٥ ، مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٢٩٦ راجع أيضا :
Guyard, op. cit., pp. 353 - 355 .

(٢) Ibid, p. 359, Defrémery, op. cit., p. 11.

أن يعلم مايحث على مسرح الأحداث ولذلك فمن المرجع أن يكون شيخ الجبل بالموت قد عين سنانا نائبا لابى محمد ولكن نظراً لضرورة وكبريائه وعظمة شخصيته أبى ذلك الآمر وأختلق هذه القصة .

على أية حال ، جاء فى تقرير سنان عن رحلته إلى سورية مايلى : « لقد أرسلنى السيد الأعلى فى الموت إلى سورية ، واعطانى أوامره مع خطابين سلمت احدهما إلى أصدقائنا بالرقة ، وأسرع وامدنى بالامدادات اللازمة واعارنى ١٠ أمتطية للوصول إلى حلب ، وهناك اعطيت الخطاب الثانى لأحد إتباعنا وارسلى إلى الكهف حيث أمرت بالاستقرار ، ومكثت به سبع سنوات حتى وفاة الشيخ ابى محمد المتولى امر الدعوى بسورية حينذاك »(١).

وبعد أن تولى سنان أمور الدعوة بالشام حدثت حركة تمرد فى مصياف، ولكنه علم بكافة تفاصيلها فأرسل خطاب إلى حاكم الحصن بصفته المسئول عما يحدث واشار اليه بأسماء المتهمين المحرضين لهذا التمرد ، وبذلك تم القضاء على الحركة . وان دل هذا على شيء فانه يدل على مدى قوة الجهاز الذى كان يعتمد عليه سنان في موافاته بكافة المعلومات المطلوب معرفتها(٢). ولعل هذا الجهاز القوى هو الذى ساعده على التعرف على أحوال الصليبيين والسنيين فى المنطقة فى وقت كان فيه الصراع الصليبي الاسلامى على أشده ، عساه أن يستفيد من ذلك لمصلحته ومصلحة طائفته .

ووجد سنان ضرورة نقل مقره إلى حصن مصياف لما له من تحصينات كافية متينة ولموقعه الاستراتيجى . وعند ذلك بدأ يوجه اهتمامه نحو إنشاء

---

(١) Setton, op. cit., t. I, p. 3?1 .

(٢) Guyard, op. cit., pp. 359 - 360 .

المدارس التعليمية لتخريج الدعاة ، وشرع في تدريب الشباب على الأعمال الفدائية والتدريبات العسكرية . وكان سنان يقضى أيام الأسبوع متنقلا بين القلاع والحصون لمباشرة أعمالها ، وكان يكثر التخفى والتنكر من أجل تفقد شئون الاسماعيلية ، كما كان يخصص يومين فى الأسبوع للاعتكاف بأحد الجبال العالية ينقطع خلالها للتأليف ورصد النجوم(١)

واتخذ سنان من تعاليم الحسن بن الصباح ونظمه مثلا يحتذى به ، ولكنه أضاف اليها آراء جديدة كان يقتنع بها ، ومنها الاعتقاد بالتناسخ ، وهى عقيدة لم يناد بها الاسماعيلية من قبل بل اتخذوا منها أسلوبا للسخرية والتسلية. ولكن لما كان سنان يعيش منذ صغره فى بيئة تنادى بالتناسخ ، فرسخ فى مخيلته ما كان يسمعه عن هذه الأمور ، ولم يستطع التخلص منها بل ذاعها على اتباعها فى الشام(٢) وكانت النتيجة أن زاد نفوذه الاسماعيلية فى هذا الوقت، واتسعت رقعة بلادهم فى جميع البلاد السورية حتى أصبحوا بالفعل سادة المناطق التى يقطنونها ، واستقلوا استقلالا إداريا بها ، وذلك مع الفارق الشديد للحال التى كانوا عليها أيام دعاة الدعوة السابقين على سنان أمثال الحكيم المنجم وابو طاهر الصائغ وغيرهما . ورغم هذا فقد تعرضت طائفة الاسماعيلية لهجمات وغزوات كثيرة شنها عليهم بعض الأمراء الصليبيين ، ولكنهم كانوا فى كل مرة يفشلون فى تحقيق أغراضهم (٣)

وارتفع شأن سنان فى ربوع الشام فى الوقت الذى كان فيه نفوذ الاسماعيلية

---

(١) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٢٩٨ ، ميشيل ابراد ، الاسماعيليون ودولة الاسماعيلية بمصياف ص ٥٦١ .

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ٢٠٨ .

فى آلموت قد أخذ فى الاضمحلال . وكان تقشفة وورعه سببا فى احترام الناس له وحبهم أياه ، حتى اصبح له من المقام عند اتباعه مالم يصل اليه داع آخـر من قبله . وكان يجد الطاعة التامة من اتباعه تماما مثـل التى كان يجدهـا ابن الصباح فى رجاله . ومن أجل هذا شعر سنان بقوة نفوذه وسلطانه على اتباعه، فعمل على انهاء خضوعه وطاعته وتبعيته لشيخ الجبل فى الموت، بحيث أصبح الاسماعيلية فى سورية يشكلون جماعة مستقلة بذاتها عن الجماعة الأصلية الموجودة فى الموت ، وأطلق على اتباعه اسم السنانية اليه . واستمرت هـذه الجـماعة فى انفصالها عن الدولة الام حتى موت سنان ٥٨٨هـ/١١٩٢م أى حـتى أواخـر القرن السادس الهجرى (أخريات القـرن الثانى عشر الميـلادى)، وبعـدها استعادت السلطة فى الموت سلطانها على جماعة الاسماعيلية الموجـــودة فى سورية(١) . ويدل هذا على أن شخصية سنان هى التى جعلت الاسماعيليـة فى الشام كيانا مستقلا عن السلطة فى الموت .ولقد أصبح سنان منذ تلك اللحظة يلتصق به لقب « شيخ الجبل » مثله مثل رئيس الدعوة الموجود فى الموت . واختارهذا اللقب لأنه كان يزهد القاب الملك والسلطان(٢). ثم انه نتيجة لاحتكاك الصليبيين به طوال فترة وجود بالشام ، ونظرا لاتخاذه من الجبال مستقرا له ، فقد عـرف باسم Old Nan of eht Mountain و Vieux dq la Montigne أى « عجوز الجبل » وكانت هذه التسمية هى التى اشتهر بها

---

(١) Ency. Brit. t. I, p. 8 1, Guyrd, op. cit., p. 36! .

(٢) محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية ص ٨٥ انظر أيضا :

Michaud, op. cit., t. I, p. 304 .

في كتبهم ومراجعهم([1]).

على أية حال ، كان الاستقلال سنان رد فعل كبير لدى شيخ الجبل الموجود في الموت ، حتى خشى منه على نفوذه ، فأرسل عددا كبيرا من فداويته لاغتياله ولكن محاولته باءت بالفشل وتم القضاء عليها . إذا إستطاع سنان أن يقضى على عدد من هؤلاء الفداوية وان يستميل البعض الآخر اليه. ويرجع الفضل إلى تيقظ حرسه في القضاء على هذه المؤامرة ([2]) . ويدل هذا على أن سنان هو الوحيد ضمن دعاة الاسماعيلية في سورية الذى استطاع تهديد السلطة الأم في الموت واتباع سياسة مستقلة كلية عنها([3]). ولاشك أن قوة شخصية كان لها أثرها في هذا الاستقلال الذاتي . ثم أن الظروف المحيطة به سهلت له تحقيق اطماعه إلى حد بعيد .

كان سنان يخفي مشاريعه ومطامعه تحت ستار من الورع والتقوى المؤثرين. فكان يرتدى ثيابا خشنة أمعانا في التقشف , ويعظ انصاره طوال اليوم من فوق ربوة . كما كانت حياته يحيطها الغموض ، حتى قيل أنه لم يرقط نائما أو آكلا أو شاربا . كما كان يحسن استعمال مختلف الحيل ، فيعمل على ما يضلل به عقول الناس من تخيل أشخاص من مات منهم على طاعة الامام في جنات النعيم ، واشخاص من مات منهم على عصيانه في جحيم النار ، مما يجعلهم يؤمنون بألوهيته . فمثلا قيل أن سنان قد أرسل في أحد الأيام يستدعي رجاله في مصياف ، وعندما دخلوا عليه وجدوا رأساً لأحد الأشخاص ممن

---

(١) انظر ما سبق ص ٩٨ .

(٢) Guyard, op cit., p. 385, Defrémery, op. cit., p. 10 .

(٣) Setton, op. cit., t. I, p. 1.

ماتوا سابحة في دمائها موجودة على منضدة بجواره فى أحد الأطباق . وعندئذ وجه اليها الحديث قائلا « أحكى لأصدقائك ماذا رأيت ؟ هل تفضلين العـودة إلى الأرض والتمتع بممتلكاتك أم البقاء فى الجنة ؟ » فأدارت الرأس وجهها الى الحاضرين وذكرت لهم ان كل ماتمتع به من نعيم الجنة إنما هو بفضـــل الطاعة العمياء لهذا النبي مشيرا بذلك إلى سنان(١)

ولا شك ان هذه الروايات من نسج الخيال ، وانما اراد سنان من ورائها ان يؤكد ويدعم ضرورة طاعة اتباعه له , كما اراد ايضا أن يثبت لاتباعـــه الجزاء المنتظر لهم مقابل تقديمهم الطاعة العمياء . ومن المحتمل أيضاً أن يكون سنان قد أراد ان يجعل من هذه الحيلة بديلا لفكرة الجنة التى ابتدعها شيخ الجبل ابن الصباح من أجل الحصول على طاعة اتباعه ... بحيث كان يكرر استخدامها أمام مجموعات مختلفة من اتباعه من حين لآخر بحيث إذ ما انتهت الجلسة يخرج هؤلاء الاتباع ويقصون على باقي زملائهم ماشاهدوه .

وجدير بالذكر أيضاً ان سنان كان يكثر من عقد مناظرات بينـه وبـين علماء اهل السنة بحضور عدد كبير من اتباعه، وكان يظهر كل مناظريه ويبطل حججهم وأقوالهم ويدحضها مما يجعل اتباعه ينقادون اليه كل الانقيـــاد ، ويتبعون تعاليمه وآرائه اتباعا أعمى(٢). ولقد أشار المؤرخ الاسماعيلى أبو فراس فى سيرة سنان الى أحد هذه المجالس ، فقال لما سمع الخليفة العباسى(٣)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٤٣ ، محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية ص ٥٨ ، عمر أبو النصر قلعة الموت ص ١٦٢ .

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٠٦ .

(٣) لم تذكر الرواية اسم الخليفة العباسي المعاصر لهذه الحادثة، ولكن طالما أنها =

فى بغداد عن سنان جمع عشرة من اكفأ الفقهاء فى الشرق والغرب ممن اشتهروا بالعلوم الأصولية والكلامية والرياضية وغير ذلك من مختلف العلوم . وطلب اليهم العمل على قطع حجة هذا الرجل واختار فقيها واحدا برأس هؤلاء الفقهاء يقال له شريف البلاط . وأرسل الخليفة العباسى معه خطابا إلى سنان يتضمن مسائل صعبة التفسير . ولما وصل هؤلاء الفقهاء قابلهم سنان وبدأت المناقشات بينهم فى شد وجذب وتحد واضح بين الطرفين ، وكان شريف البلاط يظهر كل مافى جعبته من استفسارات علمية وفقهية يحطها الغموض يريد بها اعجاز شيخ الجبل الذى كان بدوره يجذب انتباه الحاضرين ودهشتهم الباقعه فى الرد المقنع على كل هذه الاستفسارات ، مما اضطر الفقهاء فى نهاية الأمر الى الشهادة بعلمه وفقهه وذهبوا عائدين إلى بلادهم . ولكن سنان أشار عليهم قبل انصرافهم بضرورة كتابة كتاب من نسختين ينص فيه على عدم تناولهم اى طعام أوشراب كان يقدم اليهم ، وانهم كانوا يشترون مايطعمون الى اكله . واخذ نسخة من الكتاب . وارسل معهم النسخة الأخرى . وفى طريق عودتهم إلى الخليفة مات شريف البلاط . وعند وصولهم بدونه شك الخليفه العباسى فى بادىء الأمر انه مات مسموما بيد سنان ، ولكن حين اطلع على نسخة الكتاب التى معهم زال عنه الشك ، واقتنع بصدق سنان[1]

— حدثت أيام شيخ الجبل سنان الذى تولى أمر الدعوة الاسماعيلية من سنة ٥٦٥ ه الى ٥٨٨ ه (١١٦٩ — ١١٩٢ م) فان هـذا الخليفة لا يخرج من واحد من ثلاثة هم المستنجد بالله (٥٥٦ — ٥٦٦ ه / ١١٦٠ — ١١٧٠ م) ، والمستضىء بالله (٥٦٦ — ٥٧٦ ه / ١١٧٠ — ١١٨٠ م) والناصر (٥٧٦ — ٦٢٢ ه / ١١٨٠ — ١٢٢٥ م) .

(١) ابو فراس : فصل من اللفظ الشريف لمناقب راشد الدين سنان ص ٤٥ .

وفى الواقع ، رغم أن سنان كان متفقها فى العلم والمعرفة إلا أنه يجب تقبل هذه القصة بشيء من الحــذر ، خاصة وأن هذا المؤرخ الاسماعيلى قد انفرد بذكرها دون غيره من المؤرخين المعاصرين أو المتأخرين عنـه زمنياً . فربما يكون الكاتب قـد أراد بذلك أن يظهر سنان وكافـة رجال الشيعة بصورة المتفقهين فى العلم والمتربعين على عرش الثقافة والفقه والعلوم دون غيرهم من العلماء السنيين . كما يلاحظ أن هذه الرواية استهدفت أبعاد أى شك قد يثور حول تآمر سنان على حياة شريف البلاط . وإننـا نرجح أن شيخ الجبـل له يد فى موته ، وإلا فبماذا نفسر إصراره على تسليمه نسخـة من رسالة مكتوبة تبين أن رسل خليفة بغداد لم يتناولوا أى طعام أو شراب إلا بمعرفتهم وذلك حق لا يشك فيه أحد .

وخلاصة القول أن اسماعيلية الشام اعترفوا بامامة سنان والصقوا به مناقب عمل على جمعها هـذا المؤرخ الاسماعيلى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٢٤ م أى بعـد وفاة سنان بحوالى قرن وربع من الزمان (١) . نذكر منها أنه لمـا وصل سنان إلى الشام وكان أمر غير معروف ، خرج ذات يوم ومعه رجل ، فمرا على بركة مملوءة بالماء ووقفا قليلا ، وكان الرجل يرى صورته فى الماء بينما لا يرى صورة سنان . فدهش الرجل وأخذ يقبل أرجل سنان . وعند ذلك طلب منه الاخير أن يكتم سره . وقد روى أيضا أن سنان أثناء اتجاهـه إلى مصياف دخل إحدى القرى المجاورة لهـا فأتى أهلها لاستقباله والترحيب به ، وأقبل أيضا رئيسها حاملا طعاما مغطى بغطاء ، فأمر سنان بأن يضع الطعام بعيداً على ألا يكشفه أحد . وبعد أن انتهت زيارته وتأهب للرحيل أوضح لرئيس القرية

(١) ابو فراس : المصدر السابق ص ٤٥٢ — ٤٧١ .

أنه أمتنع عن أكل الطعام لأن زوجته لم تنزع حواصل الدجاج . ومن ضمن ما لصق به أيضا من معجزات أنه كان دائما يعلم بمضمون أى خطاب قبل وروده إليه ، بحيث إذا أتى الرسول حاملا خطاب سيده يدفع إليه سنان بجوابه على الخطاب دون أن يقرأ ما به ، بحيث إذا أتى رده مستوفيا لكل نقطة اثيرت فى الخطاب المرسل إليه .

وغنى عن القول أن هذا لا يدفعنا إلى أن نلصق بسنان صفة عالم الغيب ، لأنه بطبيعة الحال إن كان قد وقف على تفاصيل بعض من الخطابات قبل وصولها إليه فانما ذلك مرجعه إلى قوة عيونه وجواسيسه الذى كان يبثهم فى كل مكان والذين كانوا يأتونه بأخبار الأصدقاء والأعداء على السواء مما يزيد من هيبته ومكانته فى أعين الجميع .

وبالاضافة إلى ما تقدم ، فقد روى أنه كانت توجد بقلعة العليقة كهف به صخرة عظيمة بارزة خارجة ، فأمر سنان بقطعها وحاول العمال أياما كثيرة من أجل قطعها ، ولكنهم فشلوا فأشتكوا إلى سنان أمر هذه الصخرة فتأهب عندئذ ووصل إليها وكان ممسكا بيده دبوسا فوكزها به فى الطرفين فانقطعت وانحدرت فى سفح الجبل بقوة شديدة . وأشتكى الأهالى بأن هذه الصخرة ستخرب محصولهم فقال سنان للصخرة « قفى يامباركة فى سفح تنزل فيه الاقدام » . ولما فتح الظاهر بيبرس قلاع الدعوة رأى بعض نوابه اناسا يجرون تلك الصخرة ويسرحونها ، فسألوا عن ذلك فأخبروهم بأن سنان قد أوقفها هناك فوقفت . فأمر الظاهر بيبرس بأن تحفر له حفرة تمر منحدرة إلى الوادى. ولما تم ذلك زحفت إلى مكان الحفرة فرسخت وتمكنت بحيث لا يمكن لأحد إزالتها .

وهكذا ذاعت القصص والروايات الاسطورية حول سنان وقدراته

ومعجزاته وهي التي كان لها الأثر الكبير في عقلية الدهماء والسذج من اتباعه والتي قد يتبادر إلى الذهن من أول وهلة أنها من نسج خيال بعض الناس الذين أرادوا تعظيم زعيمهم وقدرته على إتيان الأعمال الخارقة التي لم يسمع عنها إلا في عهد الأنبياء والرسل . ولكن يبدو أن هؤلاء الناس قد بالغوا في تخيلاتهم ونسوا أنفسهم عندما شرعوا في تأليف مثل هذه الأقاويل التي لا يمكن أن يصدقها عقل والتي هي أقرب إلى الاساطير منها إلى الحقائق التاريخية . وإن دلت هذه الأمور على شيء فانما تدل على محاولة قائلها تدعيم الدعوة الاسماعيلية في عقول الناس الأمر الذي يقلل من شأن ونفوذ المذهب السني من ناحية ويدخل الرعب والخوف في قلوب الصليبيين بالشام من ناحية أخرى .

كذلك من المعروف أن سنان عاصر اثنين من أكبر قواد المسلمين وقتذاك أحدهما نور الدين محمود صاحب حلب الذي وقف من سنان موقف العداء الصريح منذ البداية ، وحدثت بينهما مناوشات ومصادمات ، كما تبادلا خطابات التهديد . أما الثاني فهو صلاح الدين الأيوبي الذي تعرض مرتين لخناجر الفداوية بناء على أمر سنان نفسه ولكن نجا في كلتا المحاولتين (١) .

وتوفي سنان سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م في قلعة الكهف وهي مقره المفضل وترك طائفة الاسماعيلية في ظل دولة قوية لها هيبتها بين الامم والملوك وقتذاك ولم يكن أي من خلفائه أو أسلافه يتمتع بقوة شخصيته أو هيبته . ولكن الطائفة عادت مرة أخرى بعد وفاته لسيطرة شيخ الجبل بألموت (٢) ولا

---

(١) سنتعرض لذلك تفصيليا في الفصل الثالث من الكتاب .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٠٦ انظر أيضا :
Guyard, op. cit., p. 106 .

شك أنه فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين الصليبيين الغربيين والمسلمين من ناحية ، وبين المسلمين من شيعة وسنة من ناحية أخرى ، اشتد ساعد اسماعيلية الشام وتولى نفوذهم بفضل زعيمهم سنان الذى استغل كل الظروف المتاحة لصالح طائفته . فتتصل السفارات والمكاتبات بينه وبين كل من الصليبيين والسنيين ، ويصفو الجو مرة ليكفهر مرات بينه وبينهم ، وهكذا إلى أن تنتهى فترة حكمه القوية فى العقد الأخير من القرن السادس الهجرى (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) . وستكشف الفصول التالية عن هذه المواقف المتداخلة المتشابكة مع بيان أسبابها ومسبباتها وما ترتب عليها من نتائج وآثار.

الفصل الثالث

موقف الحشيشية من المسلمين السنيين

الخطوط العريضة لسياسة اسماعيلية الشام حيال كل من الصليبيين والسنيين - استيلاء نور الدين محمود على مصر وأهمية ذلك - نهاية المذهب الشيعي بمصر وموقف سنان - مؤامرة عمارة اليمنى - اتصال المتآمرين بالصليبيين وزعيم الحشيشية فى الشام - قضاء صلاح الدين على المؤامرة - موقف اسماعيلية الشام من بعض القادة المسلمين السنيين ، وأثر ذلك على الصليبيين - إغتيال كل من مودود وآقسنقر - الاسماعيلية ونور الدين محمود - تحليل مواقف كل من الصليبيين والاسماعيلية وصلاح الدين حيال الآخر .

رأينا فى الفصل السابق كيف نجح الحشيشية فى نقل نشاطهم إلى الشام وتكوين مجتمعات نزاريه به ، رغم ما لا قوة من اضطهاد وعنف من نبل بعض الحكم السلاجقة الموجودين بالشام ، وكيف تمكن راشد الدين سنان من الاستقلال بالاسماعيلية القاطنين هناك عن الدولة الام فى الموت بفارس واعتباره أول شيخ جبل لهم فى سورية. وحتى تتضح حقيقة العلاقات بين الاسماعيلية والصليبيين بالشام يحسن أن نتناول فى شىء من التحليل والتعليل الخطوط العريضه لسياسة هذه الطائفة تجاه القوى المعادية لها فى المنطقة والمتمثلة فى كل من الصليبيين والسنيين . إذ لا يمكن الفصل بين هذه القوى الثلاث ونحن نتحدث عن طبيعة العلاقات الاسماعيلية الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادي (القرن السادس الهجرى) بسبب التداخل الشديد بينهما ، فضلا عن اشتباك المصالح أو تعارضها.

كان اسماعيلية الشام يستمدون تأييدهم الروحى من الخلافة الفاطمية بمصر ، كما كانوا يعتمدون فى سياستهم على مقاومة المذهب السنى ، بغرض نشر الدعوة الاسماعيلية حتى تتربع عرش العالم الاسلامى ، ولذا كان من الطبيعى أن تجند الخلافة العباسية السنية فى بغداد كل امكانياتها من أجل شل الحركة الاسماعيلية وإبادة زعمائها(١).

وكان لهذه السياسة الاسماعيلية أيضا رد فعل عنيف من جانب السلاجقة لخشيتهم على مذهبهم السنى من ناحية ولتلاشى نفوذهم بشكل تدريجى مستمر من ناحية أخرى . وكانت أولى مظاهر هذا الفعل محاولة السلطان السلجوقى ملكشاه هدم دعائم الدعوة الاسماعيلية قبل تغلغل نفوذها . فأرسل قوات

---

(١) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٢٠

كثيرة لمحاصرتهم ، ولكن المحاولة فشلت في تحقيق أغراضها . إذ كان رسوخ العقيدة في قلوب رجال الاسماعيلية هو الدافع الذى يستمدون منه قوتهم ، بحيث يكون بمثابة الدرع الذى يصد هجمات الصليبيين والسنيين على حد سواء . وبناء على ذلك كان الفشل يلازم أعداءها الذين حاولوا القضاء عليها(١).

وإستكمالا لسياستهم فى مقاومة المذهب السنى عن طريق نشر دعوتهم وإغراء الكثيرين للدخول فى أحضانها ، رأى الاسماعيلية الفتك بزعماء هذا المذهب لانهم فى نظرهم البؤرة التى يلتف حولها أسس المذهب ، ولانهم لم يستطيعوا مقاومة الدولة العباسية وجها لوجه لقلة عددهم وضعف سلاحهم . وكان مقتل الخليفة العباسى المسترشدبالله سنة٥٢٩هـ/١١٣٥م هو أشهر حوادث إغتيال هؤلاء الزعماء(٢) .

---

(١) Runciman, op. cit., t. II, p. 120 .

(٢) تتلخص ظروف مقتله فى أن الخليفة خرج لمقاتلة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأنه شرع فى أخذ بغداد ، ولكن الخليفة سقط أسيرا لديه فثار الناس مما جعل هم السلطان مسعود وهو السلطان سنجر يكتب له يسأله العفو عن الخليفة . كما أرسل جيشا ليكون فى خدمة الخليفة أثناء عودته فى الطريق وكان قد صحب هذا الجيش جماعة من الباطنية — اختلف المؤرخون فى عددهم — متنكرين فى زى عساكر السلطان ، وانتهزوا فرصة وجود الخليفة بمفرده فى خيمته واغتالوه . وقد اتهم ابن كثير السلطان سنجر بأنه المحرض على القتل وأنه قد جهز الجيش بهؤلاء الباطنية . انظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٤٨ ، ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٣ لوحة ٢٨٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٠٨ ، ابن أبى سرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ورقة ١٢٤—١٢٥ ، جمال الدين الخزرجى : العسجد المسبوك جـ ٢ ورقة ٥٣ راجع كذلك: Mathew d'Edesse, Cf. R. H. C. Doc. Arm., t. 129 .

وليس من المستبعد أن يكون اغتيال الخليفة المسترشد بالله قد تم بناء على اتفاق سابق بين كل من السلطان سنجر وزعيم الاسماعيلية ، حيث أن هـذا الاتفاق يحقق مصلحة الطرفين . إذ سوف تستفيد طائفة الاسماعيلية من ورائه، فضلا عن تحقيق سياستها فى استئصال رؤوس زعماء السنيين ، وسوف تجنى قدرا كبيرا من المال مقابل اقدامها على تنفيذ هذه العملية . وفى نفس الوقت يأمن هذان السلطانان ، مسعود وسنجر ، شر إنتقام الخليفة منهـما . ويكـون بهذا قد انتهجت الحشيشية بالشام سياسة جديدة هى إظهار الصداقة والعداء فى وقت واحد لانصار المذهب المعادى تحقيقا لمصالحها .

وكانت سياسة طائفة الاسماعيلية تقوم على استغلال الحوادث والظروف . فكان اتباعها يتقلبون فى خدمة الأصدقاء والأعداء كلمـــا أنسوا فى ذلك غنما لهم، وذلك مع مراعاة مصلحتهم أولا وقبل كل شىء ، وكانوا يعملون حساب كل من الصليبيين المسيحيين ، اذ يتساوى فى نظرهم الفريقان . وفى مقابل هذه السياسة لم يتأخر زعماؤها عن مخالفة الصليبيين حينا ومهـادنة السنيين حينا آخر . وقد أدى هذا الى اتساع نشاط الاسماعيليـة فى الشام ، وأضاف إلى ظهورها ونموها عاملا جديدا يمكن ضمه إلى عوامل التفكك التى تعرضت له تلك البلاد زمن العدوان الصليبى وتفسير ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه المسلمون فى حالة دفاع عن كيانهم وعن أنفسهم ضد الصليبيين ، إذ بهم يتعرضون لطعنات قوية من الخلف من جانب الاسماعيلية مما أضعف من قوتهم وأحدث ثغرة قوية فى صفوفهم استغلتها المملكة الصليبية فى الشام وصلت على التقدم فى ضوئها(١).

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

وبالاضافة إلى هذا فقد كانت طائفة الاسماعيلية تعوق أي نفوذ سني في المنطقه خدمه لمصالحها وللصليبين من ناحية ، ولاتفاق هذا مع سياسها العامة من ناحية أخرى حتي لايتغلغل النفوذ السني ويكون حجر عثرة في طريق نموها ونشاطها . ويتضح ذاك بصورة جلية عندما تطلع امراء الموصل مثل مودود (٥٠٢هـ -١١٠٨/٥٠٧هـ - ١١١٣م) وآقسنقر (٥٠٨هـ - ٥٢٠هـ / ٢١٤؛م - ١١٢٦م) من بعده إلى إقامة أمارة مستقلة تضم حلب والموصل بسبب ما كانت تتمتع به من موارد وثروة تزيد من قوة الموصل المادية . ثم أن هذا الاتحاد يبعد خطر الصليبيين عن حلب . فلما شعر سكان حلب من الباطنية بهذه النية عملوا على عدم إتمام هذا الاتحاد ، ولجأوا إلى استخدام خناجرهم ضدهما[1]. وهذا كان أقصى مايتمناه الصليبيين ، لان هذا لن يقتصر على عرقلة نشاط الاسماعيلية فحسب ، بل سيمتد أثره إلى الصليبيين أيضا ، حيث سيكون بمثابة السيف المسلط على رقاب كل منهما . ورغم كل ما بذله الباطنية فقد أقيمت هذه الوحدة على يد عمادالدين زنكي سنة ٥٢٢هـ-٥٢٣هـ / ١١٢٨م - ٢٨؛ م[2] تلك الوحدة التي كانت لها أبعد الآثار على كل من الوجود الصليبي والكيان الاسماعيلي في بلاد الشام .

ولبيان سياسة الحشيشية تجاه كل من الصليبيين وأسنتنير في شيء من التحليل والتفصيل والمراحل التي مرت بها إلى أن تبلورت ووصلت إلى طور النضج والكمال ، نعود قليلا الوراء عندما جاءهم الصليبيون سنة ١٠٢٤م/٨ ٥ هـ

---

(١) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٩٦ . وسنتعرض لظروف اغتيالهما بالتفصيل في الصفحات التالية .

(٢) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٢٤ .

مدينة صور وكانت وقتها تابعة للخلافة الفاطمية بمصر ، إذ ضاق أهلها من شدة هجمات الصليبيين فاستنجدوا بطغتكين اتابك دمشق عندما لمسوا عجز الدولة الفاطمية عن ارسال قوة لحمايتهم وحفظ المدينة من السقوط فى أيدى العدو الفرنجى ، فارسل طغتكين يسأل الوزير الفاطمى الأفضل(١) ، فوافقه على احتلال المدينة وحمايتها حتى لا تسقط فى أيدى الصليبيين ولكن هذا الموقف أثار غلاة الشيعة فى مصر والباطنية فى الشام وكانت النتيجة أن تربص له بعض من رجاله الاسماعيلية أثناء ذهابه إلى مخزن السلاح وطعنوه بخناجرهم فأصابوه اصابات عديدة وخطيرة عجلت بموته . وقد تم القبض على الفداوية وقتلوا جزاء فعلتهم(٢)

وخرج الصليبيون عندما علموا بوفاة الوزير الأفضل ، مستغلين الموقف السيء الذى وصلت اليه مدينة صور من ناحية ، والشقاق الذى حدث بين أولى الأمر فى كل من القاهرة ودمشق من ناحية أخرى - نتيجة لاقدام الخليفة الفاطمى الآمر على عزل نائب دمشق فى صور والذى أرسله طغتكين ليتولى أمر الدفاع عنها . ويحتمل أن يكون هناك اتفاق سابق بين الصليبيين والاسماعيلية قد اختاروا التخلص من الأفضل لما كان بينه وبينهم من ضغائن وحقد قد بعين بسبب إضطهاده أمامهم نزار واستبعاده عن كرسى الخلافه.

---

(١) هو الأفضل أبو القاسم بن أمير الجيوش بدر الجمالى واسمه أبو القاسم شاهنشاه تولى الوزارة فى مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م .

(٢) العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٤٧ ، النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ لوحة ١٠٩ ، وانظر أيضا :

Defremery, op. cit., p. 403 .

على أية حال ، أدى هذا الاضطراب الذى تسبب فيه الاسماعيليين إلى استيلاء القوات الصليبية على مدينة صور فى أوائل يوليو ١١٢٤م/جمادى الأول سنة ٥١٨هـ(١). ويلاحظ أن الاسماعيليين كانوا يلونون سياستهم باللون الذى يتناسب مع مصلحتهم ، ففى الوقت الذى يعادون فيه السلاجقة فى فارس كانوا يتقربون لليهم فى الشام عندما نقلوا نشاطهم اليه سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م. إذ أدركوا ضرورة إتباع سياسة المرونة واللين حتى تكون مهمتهم سهلة فى الحصول على القلاع والحصون المنيعة فى وقت كانوا يعززون فيه جهودهم ، فضلا عن رغبتهم فى الشعور بالطمأنينة خاصة وأنهم فى بلد غريب وبعيد عن المركز الأصلى لدعوتهم ولا قوافى سياستهم هذه استجابة كبيرة من قبل حكام الشام بسبب ضعفهم من ناحية ، ولرهبتهم منهم من ناحية أخرى أدت هذه السياسة أيضا إلى تجنب الاسماعيلية بالشام الكثير من الحروب والمشاكل بينهم وبين حكام الشام .

ورغم سياستهم هذه التى بدأت تظهر بوضوح مع بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) ، الا أنها سرعان ما كانت تنقلب إلى عداء وتنافر إذا ماتعرضوا للخطر أو محاولة الحد من نفوذهم ونشاطهم ، فكانوا حينئذ يضربون بسياستهم عرض الحائط ويلجأون إلى وسيلتهم المعروفة فى الغدر والاغتيال . وخير ما يوضح ذلك أن راشد الدين سنان كان يعمل على كسب صداقة الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين محمود (٥٦٩/٥٧٧هـ - ١١٧٣/١١٨٠م) صاحب حلب واقترب اليه، وكان يلبى طلباته ويخدمه فى التخلص من منافسه . فمثلا لما علم أنه يريد التخلص من

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٢١ .

وزيره شهاب الدين أبي صالح العجمي أرسل فداويته يوم الجمعة الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٣ هـ/٣١ أغسطس ١١٧٥م واغتالوه(١). هذا فضلا عن مساعدته له في محاولة إغتيال صلاح الدين الأيوبي أثناء حصارة حلب فيما بعد. وقد يبدو لأول وهلة أنه غير منطقي أن يسعى سنان وهو الاسماعيلي المتطرف إلى الاتفاق مع الصالح اسماعيل وهو السنى ابن نور الدين محمود الذى أقض مضاجع الصليبيين والحشيشية على السواء ولكن نظرة فاحصة مدققة تبين أن سنان أراد استغلال فرصة موت نور الدين محمود وتولى ابنه الصالح اسماعيل وكان صبيا صغير السن في وقت كان فيه صلاح الدين الأيوبي يعمل على اعادة السنة إلى مصر وتكتيل الشرق الاسلامى تحت لوائه لتوجيه ضربة القوية ضد الفرنج. وكان يعلم تماما أن الضربة التالية ستكون موجهة اليه وإلى جماعته في الشام. ولذلك بادر بمساندة الصالح اسماعيل في حركة كان يستهدف من ورائها بذور الخلف بينه وبين صلاح الدين الأيوبي، حتى تتبعثر القوى السنية في الشرق الأدنى ويفلت من ضربة

---

(٢) كان هذا من تدبير سعد الدين كمشتكين أحد كبار قواد الملك بسبب غيرته منه وحقده عليه، فقد انتهز فرصة خروج الصالح اسماعيل الى الصيد وقدم له خطابا أبيضا وطلب توقيعه حتى يتمكن من انجاز بعض الأعمال التى لا تحتمل عودته من الصيد. فوقع الملك ثقة فيه. ولكن كمشتكين أصاغ خطابا موجها الى سنان أعلى توقيع الملك يطلب اغتيال أبو صالح العجمى، وبناء على ذلك تم اغتياله. ولما علم الملك الصالح باغتيال وزيره كتب الى سنان يلومه على فعلته، فما كان من سنان الا أن أرسل له الخطاب الموقع بخطه. وعند ذاك أدرك الملك الموقف وقبض على كمشتكين. انظر ابن العديم: زبدة الحلب ج ١ لوحة ١٩٤ — ١٩٥ انظر أيضا:

Defrémery, op. cit., pp. 1-21.

متوقعة وحتى يخلو له الجو لتحقيق أهدافه .

وعلى أية حال ، لم يقدر لهذا الود وتلك الصداقة بين الاثنين أن تستمر إذ انقلب إلى عداء وكراهية شديدين ويرجع السبب أن الملك الصالح اسماعيل استولى فى سنة ٥٧٥هـ - ٥٧٩هـ/١١٧٩ - ١١٨٠م على احدى البلاد الداخلة ضمن أملاك الاسماعيلية ورفض إعادتها إلى سنان رغم كثرة مكاتباته اليه بهذا الخصوص . ولذا أراد الانتقام وعهد الى اثنين من فداويته مهمة أشعال النيران في المحلات الواقعة فى الطرف الشرقى من سوق الزجاج بحلب (١). وبالفعل نفذ الفداويان أمر زعيمهما واشتعلت النيران في المكان المحدد , ولما شعر الفداويان باخماد النار من قبل أهل المدينة صعدا إلى سقوف الاسواق المختلفة والقو عليها النفط المشتعل بالنيران ، وأصبح السوق كله قطعة من اللهب مما أدى الى وقوع خسائر فادحة(٢).

وكان من سياسة الحشيشية أيضا محاولة إغراء من يتوافر فيهم عنصر الخيانة بالمال الوفير حتى يحققوا أغراضهم . بمعنى الانفاق ببذخ وسخاء على من يتوسمون فيه الاستعداد الطبيعي للخيانه وخدمة أغراضهم فمثلا كان لصلاح

---

(١) يبدو أن سنان وجد فى هذا المكان أهمية خاصة لدى الملك مما جعله يرجع عن فكرة رفض اعادة المدينة اليه . أو ربما يكون سنان قد فكر فى أن يبدأ باشعال النيران فى الجزء غير العام بالبلد ليكون بمثابة تهديد للملك بحرق باقى أجزاء المدينة ، الأمر الذى يجعل الملك يعدل عن رفضه ويسلمه المدينة .. وهذه مجرد احتمالات ليس تحت أيدينا ما يدعمها أو ينفيها بصفة قاطعة .

(٢) أبو شامه : الروضتين فى أخبار الدولتين ص ١٩٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٩٦ .

الدين حصن الخربة (١) ، وكان الحاجب عيسى متولى أمر حراسته مع أبنه وأحد الغلمان وبواب الحصن . وله صاحب يقال له أبن المرجى يطلع اليه من حين لآخر . فحاول الاسماعيلية اغراؤه بالمال والاقطاع مقابل أن يسهل لهم مهمة الاستيلاء على الحصن . وفى أحد الأيام جاء كعادته إلى الحصن . فلما طلع قام باغتيال البواب ثم لقيه الغلام فقتله أيضا ، وأخيرا وثب على صديقه فاغتاله كذلك ثم سلم الحصن للاسماعيلية (٢) .

كيفما كان الأمر ، فقد تمكن الاسماعيلية بهذه السياسة العنيفة من تدعيم مركزهم فى الشام والسيطرة على المواقف التى كانت تواجههم من قبل الصليبيين والسنيين الموجودين فى المنطقة ، كما كانت عاملا أساسيا فى نجاح الدور الذى قاموا به فى علاقتهم بهاتين القوتين فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) .

وإذا كان اسماعيلية الشام قد اعتمدوا فى سياستهم هذه على التأييد الروحى للخلافة الفاطمية فى مصر بأعتبارها مركزا للدعوة الشيعية فى العالم الاسلامى ، إلا أنهم فقدوا هذا التأييد بعد سقوطها وإحلال الدولة الايوبية التى تدين بالمذهب السنى محلها ، الأمر الذى جعلهم يعملون بشتى السبل على إعادة الشيعية إلى ما كانت عليه . ويستلزم هذا التعرض بايجاز للظروف التى أحاطت بزوال الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الايوبية فى مصر والشام ، وموقف كل

---

(١) لم تسعفنا المصادر ببيانات عن هذا الحصن . ويتضح من كتاب الاعتبار لابن منقذ أنه لم يعرف الاسم الصحيح للحصن فيقال الخربة أو الجربه بجانب الاسم المذكور أعلاه .

(٢) ابن منقذ : الاعتبار ص ٥٨ .

اسماعيلية الشام والصليبيين من هذه الاحداث ،لارتباط ذلك بموضوع البحث.

كان استيلاء الأيوبيين على مصر بمثابة بداية عصر جديد فى تاريخها ونتيجة طبيعية لحالة الضعف والانقسام السياسى والمذهبى الذى وصلت اليـــه الدولة الفاطمية . التي ظلت متزعمة المذهب الشيعى مايزيد عـن قرنين مـن الزمان . ولقد نشأ رد فعل عنيف من قبل جماعة الشيعة المتمركزين فى شق البـلاد ، وخاصة جماعة الاسماعيلية فى الشام ، وقامت المحاولات من أجل أعادة المذهب الشيعى إلى مكانته الأولى التى كان يحتلها . ذلك أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت تعانى من الضعف الشديد الذى انتابها فى أخريات عهدها ولعـل ذلك يرجـــع لأسباب عديدة أهمها الانشقاقات المذهبية(١) . إذ انتهز شاور حالة ضعف الدولة وتمكن من التغلب على العادل بن رزيك وزير مصر فى عهـــد الخليفة العاضد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ / ١٠٦٠ — ١١٧١ م) آخر خلفاء آلفاطميين بمصر ، ووضعه فى السجن وتولى أمر الوزارة فى محرم ٥٥٨هـ,يناير ١١٦٠م ولكن ضرغام تمكن فيما بعد من طرده من الوزارة الامر الذى جعله يهرب إلى الشام ويستنجد بالسلطان نور الدين محمود صاحب الشام (٢) ، ورغـم تردد نور الدين محمود ، إلا أنه وجد فى ذلك فرصة للتدخل فى شئون مصر حـتى

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٠ — ٦١.

(٢) العماد الأصفهانى : البستان الجامع لتواريخ أهل زمان لوحة ١١٣ ؛ابن ايبك: در التيجان ورقة ٢٤ ، النويرى نهاية الأرب ج ٢٦ لوحة ٣٨ ، راجـع أيضا حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩٠ . ويعتبر كتاب شلو مبرجيه عن حملات عمورى على مصر من أفضل ما كتب فى هذا الموضوع انظر :

Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury Ier de Jérusalem en Egypte au XII Siécle , pp. 35 - 36.

تحقق الوحدة الاسلامية في الشرق الأدنى لمقاومة الخطر الصليبي . ولذلك أرسل جيشا كبيرا بقيادة أسد الدين شيركوه الذى أصطحب معه أبن أخيه صلاح الدين ، وكان ذلك في جمادى الآخرة ٥٥٩ﻫ/أبريل ١١٦٤ م (١) .
ولما علم ضرغام بذلك استغاث بالملك الصليبي فى بيت المقدس المسمى عمورى حيث أتى بجيشه إلى مصر لأنه رأى أن قيام دولة قوية سنية فى المنطقة باستمرار قوات نور الدين سيكون بمثابة حجر عثرة في طريقه ، إذ ستحول دون تحقيق أغراضه في الاستيلاء على مصر وينحصر الفرنج في الرها .
ويبدو أن النجدة الصليبية قد وصلت متأخرة لسرعة وصول شيركوه وانتصاره على ضرغام وقتله . وأعيد بذلك شاور إلى منصب الوزارة سنة ٥٥٩ ﻫ/ ١١٦٤ م (٢) ولكن شاور غدر بشيركوه ورفض أن يدفع له المبلغ الذى دفعه مع نور الدين ، وطلب منه مغادرة البلاد . ولما رفض شيركوه ذلك استغاث شاور بالصليبيين فأسرع الملك عمورى بالحضور وحاصر شيركوه .
فما كان من نور الدين إلا أن ضغط على أملاك الصليبيين بالشام ، ففكر الملك الصليبي فى الانسحاب على أن ينسحب شيركوه أيضا ، وقد تم هذا بالفعل (٣)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال — جـ ١ ص ١٣١ ، مؤلف مجهول : شفاء القلوب فى أخبار بنى أيوب لوحة ٥ انظر أيضا حسن حبشى : نور الدين محمود والصليبيون ص ١٠٤ ، محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ٣٦ .

(٢) الذهبى : العبر فى أخبار من غبر جـ ٤ ص ١٦٧ ، ابن قاضى شهبة الدر الثمين لوحة ١٥٥ — ١٥٦ ، الخزرجى : العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك جـ ٣ ورقة ٧٦ .

(٣) الاصفهانى : البستان الجامع لوحة ١١٣ ، ابن الاثير التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ١٢١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٢٩ ، =

ولكن شيركوه اتجه مرة ثانية فى ربيع الأول سنة ٥٦٣ﻫ / ديسمبر ١١٦٧ م نحو مصر فلحق به الصليبيون بناء على استغاثة شاور ، واشتبكا فى معارك أدت إلى انهزام الصليبيين وجلاء كل منهما عن مصر . ولكن الملك عمورى ترك فى هذه المرة حامية صغيرة للدفاع عن شاور ، فأخذت تحث الملك على ضرورة الحضور إلى مصر وامتلاكها للضعف الذى تعانيه . فخرج بالفعل على رأس جيشه ووصل مصر فاستنجد الخليفة الفاطمى بنور الدين الذى أسرع بتلبية النداء ، لأنه كان يعتمد على هذه الحملة فى قدرتها على القضاء على المذهب الشيعى وإعلان المذهب السنى (¹) . فلما وصلت القوات النورية إلى مصر سنة ٥٦٤ ﻫ / ١١٦٩م لم تصطدم بالصليبيين بسبب مغادرتهم البلاد عندما شعروا باقتراب قوات المسلمين . واجتمع شيركوه بالخليفة العاضد الذى خلع عليه لقب الوزارة وأمره فيما بعد باغتيال شاور . وتولى شيركوه مركز الوزارة فى ربيع الآخرة سنة ٥٦٤ ﻫ/يناير ١١٦٩م ، ولكنه مات فى جمادى الآخرة من نفس العام / مارس ١١٦٩م (²) ، ليخلفه ابن أخيه صلاح الدين

= ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٧٧ ، انظر كذلك ابن ايبك : در التيجان لوحة ٤٨٣ ، العينى عقد الجمان ج ٢١ لوحة ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ، مؤلف مجهول: شفاء القلوب لوحة ٦ ، الخزرجى: العسجد المسبوك ج ٢ ورقة ٧٦ .

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٠١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ لوحة ٢٥٠ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين ورقة ٧٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر لوحة ٩ راجع كذلك :

Watson, The Story of Jerusalem, d. 205.

(٢) ابو شامه : الروضتين ص ١٥٧ ، ابو الفدا : المختصر ج ١ ص ١٤٨ ، ابن بهادر : فتوح النصر لوحة ٩ ـ ١٠ ، على بيومى : قيام الدولة الايوبية فى مصر ص ١٣٩ ـ ١٤٠ راجع أيضا :

Treece, The Crusades, p. 144, Watson, op. cit., p. 206.

بموافقة الخليفة العاضد ، ولقب بالملك الناصر (١) . وبدأ صلاح الدين فى تطهير البلاد من الفساد . وكان موقفه غريبا ، فهو وزير خليفة مصر الفاطمى الشيعى، وفى نفس الوقت قائد جيش نور الدين صاحب الشام السنى . وكان نور الدين كثير الالحاح عليه من أجل قطع الخطبه للخليفة الفاطمى وإقامتها للخليفة العباسى ولكن صلاح الدين آثر التمهل بقصد تمهيد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة دالا على ذكائه وبعد نظره(٢) فلما تمت اقدامه فى مصر عزم على قطع الخطبة للخليفة العاضد . ولكنه لم يعرف كيف البداية ، وكان قد دخل ديار مصر فى ذلك الوقت رجل أعجمى يعرف بالأمير العالم ، فلما رأى ماهم فيه قال « أنا ابتدىء بها » . فلما كان يوم الجمعة أول محرم سنة ٥٦٧ هـ/ ٤ سبتمبر ١١٧١ م صعد على المنبر ودعا للخليفة العباسى المستضىء بالله فلم ينكر ذلك أحد عليه . فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة قطع الخطبة للعاضد وأقامتها للخليفة العباسى فتم ذلك وكان العاضد فى أشد مرضه فمات يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ / ١٤ سبتمبر ١١٧١م(٣).

وبهذا الوضع عاد المذهب السنى مرة أخرى إلى مصر واندثر المذهب

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : جـ ١١ ص ١٥٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ١٧ ، مؤلف مجهول : شفاء القلوب لوحة ١٧ انظر كذلك :

Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury, p. 238.

(٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٢٠٧ ، جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١ ص ١٦٣ ، ابن أبى سرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار لوحة ٢٧ .

الشيعي منها ، وأصبحت في بغداد هي رأس للعـالم الاسلامي في ذلك الوقت بعد خوض صراع مذهبي عنيف من أجل تحقيق هذا الغرض كانت له أوخم الآثار والصليبيون يطرقون البلاد(١). وكان هذا الخبر صدمة كبرى بالنسبة لراشد الدين سنان زعيم الحشيشية بالشام ، حيث تألم كثيرا له وخاصة لما فعله صلاح الدين من تشريد الاسماعيلية وتعذيبهم وحرقه المكتبـة الإسماعيليـة الموجودة بدار الحكمة بعدتشتيت كتبها ، ولذلك أرسل أحد فداويته المدعو حسن الاكري وأمره بالذهاب إلى القاهرة وتهـديد السلطان . وتمكن هـذا الفداوي من دخول القصر الملكي والوصول إلى حجرة السلطان حيث وجده غارقا في نومه فترك خنجرا مسلولا ملوثا رأسه بالدم بقرب الوسادة ، كما ترك بطاقة كتب عليها من أحد فداوية سيد الاسماعيلية وشيـخ الجبل وحجة الامام الامام راشد الدين سنان إلى يوسف صلاح الدين السلطان الأيوبي بمصـر وتوابعها : « أعلم أيها السلطان المغتصب للعاتي الظالم الفاسق انك وان اقفلت الأبواب ووضعت الحراس والسلاح لاتستطيع أن تنجو مـن القصاص ومن انتقام الاسماعيلية. أراك قد بالغت في الفحشـة وتطاولت في الجريمـة واستبـديت وظلمت وقتلت وصلبت دون أن تحسب حسابا لشيخ الجبل الاسماعيـلي الذي يقف لك بالمرصاد لدرجة لو أردنا قتلك الليلة لفعلنا . ولكن عفونا عنك لعلك تقدر هذا وإننا نذكرك لتصليح من سيرك وتعيـد الحـق المغتصب إلى ذويه . ولاتحاول أن تعرف من أنا فذلك صعب عليك وبعيد عنك بعد السماء عن الأرض إذ قد أكون أخاك أو خادمك أو حارسك أو زوجك وأنت لاتدرى (٢)

---

(١) Lewis, Saladin and the Assassins, p. 442.

(٢) مصطفى غالب : تاريخ الدعـوة الاسماعيلية ص ٢١٢ ، ميشيل لباد : الاسماعيليون ودولة الاسماعيلية بمصياف ص ٩٦ .

وفى الواقع يجب أن نتقبل هذا التهديد بشىء من الحذر والتحفظ لأن الدكتور مصطفى غالب قد أنفرد بنشره فى كتابه « تاريخ الدعوة الاسماعيلية » نقلا عن مخطوطه اسماعيلية ، دون سواه من المؤرخين والكتاب المحدثين ، فضلا عن أن الرواية المذكورة لم ترد فى المصادر العربية التى تحت أيدينا من خطية ومطبوعة . ورغم ذلك فان دل هذا الخطاب على شىء فانما يدل مدى ثقة شيخ الجبل فى نفسه وفى اتباعه . ويدل أيضاً على بعد نظره ، إذ ربما يكون تعمد عدم التخلص من السلطان صلاح الدين حينذاك حتى يكون التهديد بمثابة درس يتعظ منه ويدرك مدى قوة راشد الدين سنان فيصرف النظر عن معاداته أو محاولة محاربته والقضاء على طائفته . ولعل الهدف منه أيضاً - وأن صحت الرواية - أبراز شهرة الاسماعيلية أمام القوى الثالثة فى المنطقة وهى الفرنج . وكل هذا فروض واحتمالات لاتزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث .

كيفما كان الأمر يعتبر هذا هو التهديد الأول الذى وصل صلاح الدين من تلك الطائفة . وستتلوه سلسلة طويلة من التهديدات والاحتكاكات التى دارت بينهما عند إنتقال صلاح الدين إلى الشام لاستكمال طريق الوحدة الاسلامية . وكان خبر زوال الخلافة الفاطمية بمثابة السيف الذى سلط على رقبة الدولة الاسماعيلية لأنها فقدت مركزا هاما من مراكز الدعوة الشيعية فى منطقة الشرق الأدنى . فضلا عن تقوية المذهب السنى وتثبيت إقدامه وتغلغله فى المنطقة الأمر الذى يقرب من بداية نهايتها ، وغنى عن القـــول أنه كان فى نفس الوقت تهديدا خطيرا موجها إلى القوى الصليبيه فى الشام ، وعاملا من عوامل التقارب بين الصليبيين والاسماعيلية لمواجهة هذا الخطر المشترك بالنسبة لكليهما ، ولكل هذا جد الاسماعيلية من أجل العمل على إعادة المذهب الشيعى والقضاء على السنيين حتى ولو آدى الأمر إلى التفاهم مع الصليبيين . ففى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م

أراد جماعة من الشيعة الوثوب بمصر من أجل تحقيق إقامة الدعوة الشيعية، وكان منهم الشاعر عمارة اليمنى (١). و داعي الدعاة ابن عبد القوى وغيرهما من جند مصر وحاشية القصر. وكانت خطتهم تتلخص فى أن يعمل عمارة اليمنى على تحريض صلاح الدين بارسال أخيه تور انشاه إلى اليمن لأن الظروف الموجوده هناك تحتم فتحة، وكان غرضه من هذا أبعاد أكثر عساكر السلطان عن مصر مما يساعد المتآمرين على نجاح خطتهم. وبعد هذا كتبوا إلى الفرنجة فى صقلية والشام خفية وعرضوا عليهم ما أستقروا عليه وطلبوا مساعدتهم مقابل منحهم شيئا من المال والبلاد. وكانت خطتهم أنه فى نفس الوقت الذى تصل فيه القوات الصليبية وخروج صلاح الدين بنفسه للقائها يقوم المتآمرون باشعال نيران الثورة فى الداخل فيقع السلطان بين نار الثورة بالداخل ونار وجود الفرنجة خارج البلاد الأمر الذى يعمل على تشتيت جموعه مما يساعد على هزيمته على يد الصليبيين من ناحية وسيطرة عمارة اليمنى وإتباعه على مقاليد الأمور بالبلاد من ناحيه أخرى (٢). ثم إنهم لم يكتفوا بمراسلة الصليبيين بل

---

(١) هو ابو محمد عماره بن أبي الحسن على بن زيد أن أحمد الحكمي اليمنى الملقب بنجم الدين، أنه من تهامة باليمن من مدينة يقال لها مرطان، اعتغل بالفقه أربع سنوات وحج عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م، وسيره صاحب مكة الى الديار المصرية فدخلها سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م وله عدة مؤلفات أهمها النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية هذا فضلا عن ديوانه فى الشعر. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٣٦ - ٥٣٨.

(٢) العماد الاصفهانى: البستان الجامع لوحة ١١٩، أبو شامة: الروضتين ص ٢١٩-٢٢٠، النويري: نهاية الارب جـ ٢٦ لوحة ١٢٤، أومبرتو ريتزيتانو: صفحة من تاريخ علاقات بين وليم الثانى النورماندى وصلاح الدين، انظر مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - المجلد الخامس (١٩٤٩) ص ٥٣.

كاتبوا سنانا زعيم الحشيشية بالشام ، وطلبوا منه المساعدة من أجـــل إعادة الدعوة العلوية . ويتضح ذلك من واقع الخطاب الذى أرسله صلاح الدين إلى السلطان العادل نور الدين محمود يوقفه على تفاصيل المؤامرة وكيفية القضـاء عليهما بعد أن ألم بتفاصيلها من الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا الذى تظاهر أمام عمارة اليمنى بموافقته على الاشتراك فى هذه المؤامرة واندس بين المتآمرين حتى عرف خطتهم المذكورة وأحاط السلطان علماً بها . وقد صادف وصول هذا الخطاب يوم وفاة نور الدين محمود ، وأورد ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب نص هذا الخطـاب . ومن فقـراته ما يلى : « . كاتبوا سنانا صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحـده والكلمـة جامعة وانة ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصره واستدعوا منه من مقيم على الملوك غيلة ويثبت عليه مكيدة وحيلة ، فقتل الله بسيف الشرع جماعة من الغواه الغلاه الدعاة إلى النار الحاملين لاثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار فشنقوا على أبواب قصورهم وصلبوا على الجذوع الواجهة لدورهم وشرد طائفة الاسماعيلية ونفوا ونودى أن يرحل طائفة كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى الصعيد...(١).

ولعلنا نستنتج من صيغة الخطاب أنه كان من ضمن المهمة التى عهد بها المتآمرون إلى راشد الدين سنان العمل على استخدام خناجر الفداوية للقضاء على صلاح الدين الأيوبى وكبار رجال دولته . ومما يؤسف له أن المصادر العربية والأجنبية لم تمدنا بمعلومات توضح موقف الصليبيين من هذه الرسالة .

---

(١) أبو شامه : الروضتين ص ٢٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٤٩ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ـ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ جـ ١ ص ٥٣

على أية حال، لما علم الفقيه زين الدين بخيوط المؤامرة أفصح عنها للسلطان صلاح الدين الذي أمره بإظهار تعاطفه منهم وتواطئه على ما يريدون فعله، وأخباره بما يتجدد من أخبار ففعل ذلك. ثم وصل رسول من قبل الصليبيين بالساحل الشامي إلى صلاح الدين بهدية ورسالة وهذا هو الظاهر، أما في الباطن فكان هدفه هو أولئك الجماعة، فكان يرسل لهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم. فأتى الخبر للسلطان وعند ذاك تم القبض على المتآمرين فقتلهم وصلبهم (١). ولكن خيوط المؤامرة لم تنته بهذا الشكل لأنه في الوقت الذي فكر فيه الملك الصليبي بالشام في الانسحاب والعدول عن مهاجمة الاسكندرية حسب الخطة المتفق عليها، رفض ملك صقلية وليم الثاني هذه الفكرة وقرر الاستمرار في حملته. ففي السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ / ٢٠ يوليو ١١٧٤ م ظهر الأسطول الصقلي أمام شواطيء الاسكندرية. وتمكن أهالي الاسكندرية من صد الحملة مما أضطرها إلى الانسحاب (٢).

ويحتمل مما تقدم أن يكون قد حدث نوع من التنظيم والتنسيق بين القوات الصليبية والحشيشية يجمع بينهما هدف مشترك واحد هو القضاء على نفوذ السلطان صلاح الدين الذي كان يهدد كليهما بخطر كبير ... ففي اتفاقهما ضد السلطان مصلحة مشتركة لكليهما. فالمصلحة بالنسبة للحشيشية هي إعادة المذهب الشيعي، وأما بالنسبة للصليبيين فهي تفويت الفرصة على صلاح الدين

---

(١) ابو شامه : الروضتين ص ٢١٩ ، ميشيل آماري : المكتبة الصقلية جـ ٢ ص ٣٠٩ أحمد البيلي : حياة صلاح الدين ص ١٢٠ .

(٢) أومبر توريتزينانو : صفحة من تاريخ العلاقات بين وليم الثاني وصلاح الدين ص ٥٤ .

فى تطويقهم وتضييق الخناق عليهم بحصرهم بين فكى الكماشة فى الشام شمالا حيث توجد قوات نور الدين وفى مصر جنوبا حيث يوجد صلاح الدين .

وهكذا نرى أن الحشيشية قد مدوا نشاطهم إلى مصر بهدف الحفاظ على استمرار المذهب الشيعى ولإحساسهم بأن إنتهاء هذا المذهب يعنى تقليل شأنهم ونفوذهم والتهوين من قوتهم . ولم تكن هذه المؤامرة التى اشتركت فيها جماعة الاسماعيلية بالشام هى الأولى من نوعها . فاذا رجعنا قليلا إلى الوراء نجد أنهم كانوا يتآمرون ضد أى دولة تهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية ولو كانت هذه المحاولة من شأنها رفـــع علم الإسلام والوقوف فى وجه القوى الصليبية وتحرير الأراضى المقدسة . وذلك لأن مجرد قيام دولة إسلامية سنية قوية كان يشكل خطراً على وجود اسماعيلية الشام ودعوتهم الشيعية . فنراهم يتخـذون من خناجرهم سلاحا يطعنون به صدور القادة المسلمين الذين دفعتهم شجاعتهم وإيمانهم بضرورة إستعادة الأراضى المغتصبة وكان فى إقدامهم على هذه الخطوة خدمة للصليبيين الدخلاء . وكان خير ما يتمناه الصليبيون هو وقوع مثل هذا الشقاق المذهبى بين المسلمين الأمر الذى يعود عليهم وحدهم بالنفع والفائدة فى وقت كان فيـه مركزهم فى الشام قد أخذ فى الاهتزاز وفى وقت أصبح فيه زمام البلاد فى قبضة المسلمين وميزان القوى يميل بقوة إلى جانبهم ، وعلى هذا تتشابك الأطراف وتتداخل المصالح بين هـذه القـــوى الثلاث : الصليبيين والحشيشية والمسلمين فى رقعة الشرق الأدنى . ولعل خير مثل لذلك هو إغتيال جناح الدولة أمير حمص السنى (١) . ولكى تتضح الصورة بكل ما فيها يحسن أن نعرض لأهم القادة المسلمين الذين عجلت بهم المنيـة بسبب خناجر الفداوية

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣٠ .

المسمومة ، والذين كانوا يشكلون فى نفس الوقت خطراً على كل من اسماعيلية الشام والصليبيين خلال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى). وكان مودود بن التونتكين صاحب الموصل هو أول ضحية للفداوية ضمن حملة ضحاياها القواد المسلمين السنيين الذين لاقوا نفس المصير .

بدأ مودود سياسة التقرب إلى بعض الأمراء المسلمين بالشام بهدف إقامة حلف إسلامى موحد يقف ضد التحركات الصليبية فى المنطقة وذلك بعد أن استشعر المسلمون بالخطر وأخذوا يستعدون لمواجهته . وقد سأم الحشيشية هذا الوضع لتنافيه مع سياستهم . ومن ضمن هؤلاء الأمراء طغتكين اتابك دمشق الذى اتفق مودود معه على مهاجمة الصليبيين فى طرابلس . ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئا يذكر لحلول فصل الشتاء ، ورحل مودود عن الشام (١) . ولكن ما لبث أن استنجد به طغتكين بسبب هجوم الملك بولدوين الأول ملك بيت المقدس على دمشق سنة ١١٠٣ م / ٥٠٧ هـ ، فأسرع مودود فى الحال لتلبية هذا النداء . ووقعت معركة بين الطرفين انتصر فيها المسلمون . وعند ذلك سمح مودود لعساكره بالعودة إلى ديارهم والاستراحة على أن يتم تجميعهم مرة ثانية فى فصل الربيع لمعاودة الهجوم على الصليبيين وبقى مودود مع خواصه ودخل دمشق فى ربيع الأول سنة ٥٠٧ هـ / سبتمبر ١١١٣ م ، وقرر البقاء فيها حتى حلول فصل الربيع (٢). وأقام فى خيمه ببرج باب الحديد

---

(١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ٢٠٨ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٤٢ ، انظر أيضا المراجع الأجنبية التالية :

Defrémery, op. cit., p. 389, Runciman, op. cit., t. II, p. 126

بدمشق (١) ولما كان متعوداً للدخول فى جامع دمشق يوم الجمعة ليصلى به ويتبرك بمصحف عثمان ، فقد إتجه فى يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧ هـ / سبتمبر سنة ١١١٣ م نحو الجامع برفقة خواصه ومعه اتابك طغتكين . ولما انقضت الصلاة وخرجوا جميعا إلى صحن الجامع يتقدمهم مودود وطغتكين متشابكى الأيدى وحولها خواصه مسلحين بخناجرهم، اقترب منه حينذاك أحد فداوية الإسماعيلية كأنه يدعو له ويطلب منه صدقة ،وطعنه بخنجره فى سرعة فائقة أسفل سرته ضربتين أحدهما نفذت إلى خاصرته والثانية إلى فخذه. وفى الحال أرتفعت سيوف الحرامر على رقبة الجانى وقطعوا رأسه وجسده واشعلوا النار التى ألقى فيها . أما بالنسبة لمودود فأنه أخذ يواصل طريقه مشياً على الأقدام حتى قرب الباب الشمالى للجامع ووقع فحمل إلى لدور الاتابكية وخيط جرحه. ولكن رغم ذلك توفى بعد ساعات قليلة فى ذات اليوم المذكور (٢) . وكان صائما ورفض تناول الطعام إذ قال « لا ألقى الله إلا صائما فانى حيث لا محالة سواء أفطرت أم أصبحت » (٣) . وقام الملك بوالدين الأول بارسال كتاب إلى طغتكين يقول « إن أمة قتلت

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ انظر كذلك :

Setton, op cit. t I, p 40.

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٥٧، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١١١ ، الخزرجى : العسجد المسبوك جـ ٢ ورقة ٤٠ ، العينى عقد الجمان جـ ٢٠ لوحة ٦٧٩ - ٦٨١ راجع كذلك :

Grousset, op. cit, t. I: p. 275 Defrémary, op. cit., p 35 .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٣٢، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٧ .

عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها » (١) .

ولقد قيل فى شأن مقتله أن الباطنية بالشام قد توجسوا خيفة منه لازدياد نفوذه من ناحية ، ولأنه كان قائدا قويا للجيش الشرقى السلجوقى الذى لم يكف عن اضطهاده لهم بفارس من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى يجعل منه عدوا خطيرا للحشيشية بصفة عامة سواء فى فارس أو فى الشام(٢). ويضيف المؤرخ متى الرهوى رأيا آخر فى هذا الشأن إذ يذكر أن طغتكين هو المحرض الأول على تدبير هذه الجريمة لأنه خشى على سلطانه من مودود حيث نمى إلى علمه أنه أثناء رحلة مودود إلى دمشق قد عزم على الاستيلاء عليها وتدبير الحيلة لابادة طغتكين . وحيال هذه الخيانة اتصل طغتكين بأحد الباطنية الموجودين فى سجن دمشق والمحكوم عليه بالاعدام ووعده بالعفو عنه وإعطائه خمسة مائة قطعة من الذهب إذا خلصه من مودود . وهكذا تم اغتياله على النحو الذى ذكرناه(٣). وقد أيد البعض هذا الرأى من حيث إتهام طغتكين فى التحريض على قتله مستندين فى ذلك إلى التحالف الذى تم بينه وبين الصليبيين فيما بعد (٤) .

---

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٧٦ .

(٢) ابن الاثير الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ص ٢٠٩ : أنظر أيضا :
Setton, op. cit, t. I, p. 113.

(٣) Mathew d'Edesse, Cf. R H. C – Doc. Arm., t I, pp 107 – 108 .

(٤) محمد الشيخ: الجهاد المقدس ص ٢٤٤ ، عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ص ٥٤ .

ومهما يكن من أمر ، فالرأى المرجح هو أن طغتكين برىء من دم مودود وأن تدبير هذه الجريمة يرجع إلى وجود إتفاق سابق بين الباطنية والصليبيين رغم عدم إشارة المصادر أو المراجع الأوروبية إلى ذلك . فاذا أمعنا النظر فى مجريات الأحوال لوجدنا أن المصلحة المشتركة لكليهما تنحصر فى التخلص من مودود . فالباطنية من مصلحتها إزاحة مودود من طريقها لأنه سنى المذهب ويعمل على إيجاد وحدة إسلامية سنية تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد الأمر الذى يهدد كيانها ووجودها . أما بالنسبة للصليبيين فهم يرون أن وجود مودود كقائد ماهر محنك وخصم فى الحرب التى دارت بينهم وبين طغتكين كان عاملا هاما فى رجحان كفة المسلمين فى وقت بدأت فيه بوادر الإفاقة الاسلامية تظهر فى المنطقة مع مدة الوجود الصليبى فيها . ولهذا أدركوا أن نتيجة الجولة القادمة بينهم وبين المسلمين لن تكون فى صالحهم بعد أن بدأ ميزان القوى فى الاعتدال لصالح المسلمين الأمر الذى يجعلهم يعجلون فى التخلص منه قبل أن يفتك هو بهم وحتى تتفكك قوى المسلمين كما كان الحال فى بداية الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أخريات القرن الخامس الهجرى) عندما تمكن الصليبيون الغربيون من تحقيق أطماعهم فى رقعة الشرق الأدنى الإسلامى فى بضع سنوات على حساب الضعف والانقسام السياسى والمذهبى بين المسلمين . أما فيما يتعلق بالخطاب الذى أرسله الصليبيون إلى طغتكين فلا يعدو أن يكون أكثر من تمويه لإبعاد أى شك قد يحوم حولهم . ومما يعزز الرأى أن طغتكين كان أحب الناس إلى مودود ، وقد حزن عليه حزنا شديداً وشق ثوبه وأقام عزاءه مدة سبعة أيام فضلا عما تصدق به عنه من مال جزيل (١) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليس من

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥١ .

المعقول أن يكون لطغتكين يد فى هذه الجريمة وهو يعلم أنه لولا مساعدة مودود له ضد بولدوين الأول فى المعركة السابقة لمنيت قواته بالفشل والهزيمة ولاستولى الفرنجة على دمشق . هذا بالاضافة إلى أنه كان يعلم بقرب جولة أخرى بينه وبين الصليبيين الذين وضعوا نصب أعينهم دائما فكرة الاستيلاء على دمشق . أما ما أعتبره البعض بجعـل التحالف الذى تم بين طغتكين والصليبيين فيما بعد سببا لتوجيه أصابع الاتهام إليه ، فهو الآخر ليس سببا كافيا ، لأنه من المحتمل أن يكون طغتكين قد أضطر إلى طلب التحالف مع خصومه الصليبيين طلباً للامان ، خاصة بعد أن افتقد القيادة النشطة التى كان يرتكز عليها بعد موت مودود .

وعلى كل حال ، كان مقتل مودود خسارة كبيرة لقضية الجهاد الدينى واليقظة الاسلامية لا تزال فى بدايتها . ولكن السلطان محمد بن ملكشاه لم يتقاعس عن متابعة خطة الجهاد الدينى ضد الصليبيين . فلم يكد يعلم بنبأ مصرع مودود حتى عين أباسعيد البرسقى الغازى الملقب قسيم الدولة خلفا له فى حكم الموصل سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤ م ، وأمره بالأستعداد لمواصلة الجهاد ضد الصليبيين(١) ولم يلبث البرسقى وهو على الموصل أن تلقى نداء أعيان حلب لنجدتهم ضد الصليبين الذين لم يكفوا عن توجيه نشاطهم العدائى تجاه المدينة ومحاصرتها . ولكنه وقتها كان راقداً على فراش المرض ، ولذا وعدهم بتلبية نداءهم إذا شفى وبالفعل بعد أن برىء من مرضه قاد جيشه واتجه نحو حلب ، فلما علم الصليبيون بذلك أنسحبوا إلى انطاكية ، والحق بهم الهزيمة ثم دخل حلب وتسلمها كما تسلم القلعة وكان يرافقه فى دخول المدينة طغتكين أتابك دمشق وكان ذلك فى أواخر ذى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١١ .

الحجه سنة ٥١٨ هـ / أواخر يناير سنة ١١٢٥ م (١). وبتسلمه حلب تكون حلف موحد بينها وبين الموصل ، وكان هذا صدمة كبيرة للصليبيين ، وبهذا يحسون بتزعزع موقفهم في الأراضي المقدسة . وبعد أن رتب البرسقي أمور حلب واطمأن إلى استقرار أحوالها ، ترك عليها ابنة عز الدين مسعود وقفل عائداً إلى الموصل (٢). وفي يوم الجمعة ٩ ذو القعدة سنة ٥٢٠ هـ / ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ م ، أتجه آقسنقر البرسقي إلى الجامع العتيق بالموصل كعادته ليؤدى فريضة الصلاة ، ورغم انه كان على غاية في الاحتراس والتحفظ من وثوب الفداوية عليه وذلك بالاستكثار من الحراس حوله ، الا ان الحذر لم يمنع قدرا مكتوبا لأنه أغتيل في نفس هذا اليوم (٣). فلما دخل الجامع صادف هذه الجماعة في زى الصوفية يصلون بجوار المقصورة ، فلم يأبه لهم ولم يرتاب منهم ، فلما بدأوا الصلاة وثب عليه جماعة منهم وطعنوه بخناجرهم عدة طعنات ، ولكن ذلك لم يؤثر فيه لانه كان يرتدى قميصا حديديا ، وقد غفل أصحابه عنه . ولكنه تمكن من سحب سيفه وضرب به أحدهم فقتله وحينذاك صاح أحدهم عندما وجد أن الخناجر لا تؤثر فيه « ويلكم أطلبوا رأسه وأعلاه » وفي الحال تحولت طعناتهم إلى حلقه وجرحوه جرحا خطيرا . فأدركه أصحابه وجماعته وقتلوا كل من وثب عليه ، وحمل البرسقي بآخر رمق إلى بيته وهرب كل من في الجامع وبطلت الصلاة ، وقد فارق الحياة في حينه . ومما يذكر انه

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٥٢ — ١٥٣ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) محمد راغب الطباخ : أعلام النبلاء جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٥٣ ، العيني : عقد الجمان جـ ٢٠ لوحة ٨٤٧ ، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٠ .

صائما فى هذا اليوم (١) . وكان أقسنقر قد رأى فى منامه ليلة مقتله أن عدداً من الكلاب قد ثاروا عليه ولكنه تمكن من قتل بعضها ونال منه الباقون أذى شديداً . ولما قص هذه الرؤيا المنامية إلى أصحابه أشاروا عليه بعدم الخروج من داره عدة أيام تجنبا لمحاولات أغتياله فقال « لا أترك الجمعة لشيء أبداً » حيث كان دائماً مواظبا على حضورها (٢) . ورغم أتفاق المؤرخين على وفاته سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، الا ان سبط ابن الجوزى وابن كثير حددا اغتياله بسنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م . ولعل ذلك يرجع الى خطأهما عندما نقلا هذه الحادثة عمن سبقها من المؤرخين . واننـــا نرى طالما أن أحد المؤرخين المعاصرين لهـذه الحادثة مثل ابن القلانسى قد حددها فى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م فهو أصدق من غيره ويكون الاساس الذى اتخذه باقى المؤرخين من بعده .

وعلى أية حال ، فى اللحظة التى تم فيهـا قتل البرسقى كان أبنه عز الدين مسعود موجوداً فى حلب وكانت وقتها مهـددة من قبل الصليبيين. ولكنه ما أن علم بالنبأ حتى أسرع إلى الموصل بحثـاً عن حقيقة القتله. وعلم أن خيوط هذه المؤامرة قد نسجت عند أحد صناع الأحذية ، فتوجة اليه ووعده بمكافأة كبيرة إذا أفضى له بالحقيقة كاملة فأعترف بأنه قد وفد عليه جماعه من الباطنية

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١١ ، العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٦١ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٤٩ ، الذهبى : العبر جـ ٤ ص ٤٦ انظر أيضا المراجـع الأجنبية التالية :

Michaud, op. cit., t. III, p. 245, Stevenson, The Crusaders in the East, p. 118. Runciman, op. cit., t II, p. 175.

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣١ . النويرى : نهاية الارب جـ ٢٥ لوحة ٥

ومعهم نية أغتيـال البرسقى ، وكانوا يتحينون الفرصة المناسبة حتى ينفذوا خطتهم . ولكن بعد سماعه القصة قبض عليه وقتله بعد أن قطعت يداه ورجلاه وبعض من أجزاء جسده (١) .

ويرى المؤرخ ابن خلكان فى شأن مقتل البرسقى أن الحشيشية قد خافوه لانه تصدى لاستئصال شأفهم وتتبعهم وقتل مجموعة كبيرة منهم (٢) . ولكننا لا نميـل إلى الاخذ بهذا الرأى ، لأن ابن خلكان أنفرد به دون سواه من المؤرخين فضلا عن أن الباحث فى تاريخ هذه الطائفة لا يجد أية أشتباكات أو أضطهادات من كلا الجـانبين ويحتمل أن يكون انشغال البرسقى فى جهـاده ضد الصليبين قد جعله يرجىء محاربتها أو القضاء عليها . وإذا ألقينا الضوء على الظروف التى سبقت مقتله نجد أن الصليبيين وحدهم هم أصحاب المصلحة الكبرى فى أبعاد البرسقى عن مسرح الأحداث . هـذا بالاضافة إلى المصلحة الواضحة التى ستتحقق للحشيشة باغتياله وازاحته من أمامها ، لأنه كان متزعما حركة الوحدة الاسلامية والجهاد ضد الصليبيين . كما أنه ساعد الحلبيين فى تخليص المدينة من أيديهم بعد ما كانت على وشك السقوط . فضلا عن النتائج الضارة التى ستلحق بهم من وراء تحـالف حلب الموصل ، حيث يـؤدى هذا إلى قطع خطوط المواصلات بين الرها وبقى الأمارات الصليبية فى الشام وكانت هذه الشبكة من المواصلات من أهم وسائل الأرتباط بينها . لكل هذه الأسباب ربمـا يكون الصليبيين قد اتفقوا مع الحشيشة من أجل التخلص من البرسقى لمصلحة الجانبين . وأن نظرة فاحصة مدققة إلى سير مجريات الأمور

---

(١) Defrémery, op. cit., p. 104. Grousset, op. cit., t. I, p. 65.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٩ .

وسخطهم عليه (١) . ومما يؤسف له أن المؤرخين لم يمدونا بتفسيرات كثيرة توضح مدى علاقة سنان بنور الدين محمود على غرار ما قيل فى شأن علاقة الاسماعيلية بصلاح الدين مثلا . ولا ندرى على وجه اليقين ما السبب فى هذا ، وهل راجع إلى قلة العلاقات بينهما أو إلى عدم قدرة نور الدين فى الوقت ضد سنان وجميع نشاطه الأمر الذى أدى إلى تعمد المؤرخين إلى طمس ما لديهم من معلومات ربما لو كانوا قد نشروها لا ساءوا بها إلى سمعة نور الدين نفسه بصفته أحد زعماء العالم الإسلامى .

على أية حال، كان أنشغال نور الدين محمود فى حروبه ضد الصليبيين عاملا هاما فى عدم توجيه جيوشه لغزو أراضى الاسماعيلية والقضاء عليهم بالصورة التى تحتم عليه الاكثار من غزواته ضدهم . ولكن ليس معنى ذلك أن موقفه كان سلبيا تجاه كل تصرفاتهم وأمام تزايد قوتهم ونموها ، بل لقد فكر أكثر من مرة فى ضرورة التخلص من الرأس المدبرة لهم والمتمثلة فى راشد الدين سنان ، فأمر بإعداد جيشه لقتالهم ، وشن عليهم حرباً شعواء فى فى منطقة جبل السماق (٢) . وفى صباح أحد الأيام وجد عند أستيقاظه من النوم خنجراً مستلا بجوار رأسه وهو من النوع الذى لا يحمله الا الحشيشية وكان معه خطاب موجه اليه من سنان جاء فيه « إذا لم ترحل فى الليل ، هذا

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ .

(٢) هو جبل عظيم من أعمال حلب يشتمل على مدن وقرى وقلاع أكثرها الاسماعيلية وسمى بهذا الاسم لكثرة ما ينبت فيه من السماق . وهو مكان طيب . ومن عجب هذا الجبل أن فيه بساتين ومزارع كلها عذير فينبت جميع الفواكه والحبوب . انظر عن ذلك القزوينى : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ١٦٤ .

وسخطهم عليه (١) . ومما يؤسف له أن المؤرخين لم يمدونا بتفسيرات كثيرة توضح مدى علاقة سنان بنور الدين محمود على غرار ما قيل فى شأن علاقة الاسماعيلية بصلاح الدين مثلا . ولا ندرى على وجه اليقين ما السبب فى هذا ، وهل راجع إلى قلة العلاقات بينهما أو إلى عدم قدرة نور الدين فى الوقت ضد سنان وجميع نشاطه الأمر الذى أدى إلى تعمد المؤرخين إلى طمس ما لديهم من معلومات ربما لو كانوا قد نشروها لا ساءوا بها إلى سمعة نور الدين نفسه بصفته أحد زعماء العالم الإسلامى .

على أية حال، كان أنشغال نور الدين محمود فى حروبه ضد الصليبيين عاملا هاما فى عدم توجيه جيوشه لغزو أراضى الاسماعيلية والقضاء عليهم بالصورة التى تحتم عليه الاكثار من غزواته ضدهم . ولكن ليس معنى ذلك أن موقفه كان سلبيا تجاه كل تصرفاتهم وأمام تزايد قوتهم ونموها ، بل لقد فكر أكثر من مرة فى ضرورة التخلص من الرأس المدبرة لهم والمتمثلة فى راشد الدين سنان ، فأمر باعداد جيشه لقتالهم ، وشن عليهم حرباً شعواء فى فى منطقة جبل السماق (٢) . وفى صباح أحد الأيام وجد عند أستيقاظه من النوم خنجراً مستقلا بجوار رأسه وهو من النوع الذى لا يحمله الا الحشيشية وكان معه خطاب موجه اليه من سنان جاء فيه « إذا لم ترحل فى الليل ، هذا

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ .

(٢) هو جبل عظيم من أعمال حلب يشتمل على مدن وقرى وقلاع أكثرها الاسماعيلية وسمى بهذا الاسم لكثرة ما ينبت فيه من السماق . وهو مكان طيب . ومن عجب هذا الجبل أن فيه بساتين ومزارع كلها عذير فينبت جميع الفواكه والحبوب . انظر عن ذلك القزوينى : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ١٦٤ .

الخنجر سيغمر فى قلبك » فأزعج نور الدين هـــذا وقرر الانسحاب فى الحال (١) . وقد فكر نور الدين فيما بعد الخروج لمهاجمة سنان ، ولكن حال الموت بينه وبين تنفيذ مشروع (٢) . وكان لخطابات التهديد الاستفزازية المتبادلة بينهما أثر كبير فى تعميق الكراهية بينهما ، وبصفة خاصة تلك الخطابات التى كان يرسلها شيخ الجبل إلى نور الدين وما تتضمنه من أسلوب لا زع لا يليق بملك ذو شأن كبير مثله . فمثلا أورد المستشرق جويارد نصاً لخطاب تهديد أرسله سنان إلى نور الدين رداً على تهديد وصله منه يقول فيه « أن تهديدك لنـــا بالحرب مثل تهديد البطة بالقاء نفسها فى المـاء . . . . هل من حمامة تهدد وتقتل نسراً ... أن تهديدك بقدرتك على تمزيق عنقنا وتدمير قلاعنا وتأمل فى النصر أن هذا الخيال باطل وبعيد تحقيقه » (٣) . وهناك صورة أخرى فى تهديدات سنان الموجهة إلى نور الدين ذكرت فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان . وكانت فى هيئة أبيـات من الشعر نظراً لإلمـام سنان الشديد بهـذا النوع من الآدب . يقول :

ياذا الذى بقراع السيف هـــددنـا ... لاقام مصرع جنبي حين تصدقـــه
قام الحمـــام إلى البازى يهـــدده ... واستيقظت لاسود الـــبر أضبعه
أضحى يسد فـــم الأفعى بأصبعه ... يكفيه ما قد تلاقى منه أصبعه (٤)

---

(١) Guyard, op. cit., p. 366, Défremery, op. cit., p. 13
راجع أيضا ميشيل لباد : الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بعصيان ص ٥٣

(٢) Lane - Poole, Saladin, p. 138.

(٣) Guyard, op. cit., p. 367.

(٤) قراع السيف هو حد السيف ، والبازى : طائر جارح . انظر القاموس المحيط ج ٣ ص ٦٦ ، ج ٢ ص ٣٠٤ وأراد سنان أن يوضح لنور الدين بأنه اذا ما فكر=

ويستطرد قائلا « وقفنا على تفاصيله وجملة وسلمنا ما هددنا به من قـوله وعمله ، فبالله العجب من ذبابه تطن في أذن فيل وبعوضه تعد في التماثيـل .
ولقد قالها مثلك قوم آخرون فدمرنا الذين ظلموا أى مُنقلب ينقلبـون.
وأما ماصدر من قولك في قطع رأسي فان الجواهر لاتزول بالأعـراض ، كما أن الأرواح لاتضمحل بالأمراض كما بين قوى وضعيـف ودنىء وشريف .
وأن عدنا إلا الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنـــا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله ما أذوى بيبق ما أوذيت. وقد علمتم ماجرى على عترته وأهل بيته وشيعته . والحال ما حال والأمر مازال ولله الحمد فى الأولى والآخـرة . إذ نحن مظلمـــون لاظالمون ومغضبون لا غاضبون ، وإذا جاء الحق زهق الباطل أن الباطل كان زهوقا . ولقد علمـتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا ويتمنون من الموت ويتقربون به إلى حياض الموت.
قل فتمنوا الموت أن كنتم صادقين ولايتمنونه أبدا بمـا قدمت ايديهـم والله عليم بالظالمين . وفى أمثال العامة السائرة أو للبط يهددون بالشط فهيء للبلايا جلبابا وتورع المرزايا أثوابا ، فلأظهرن عليـك منك ولأفنيبم منــك عنك فتكرن كالباحث عن حتفه بظلمه والجادع مارن انفـه بكفه وما ذلك على بعزيز (١).

يتضح من معانى الخطابين سالفى الذكر قوة أسلوب كاتبه ومدى الثقـة

= فى معاداته فلن ينجـو من الموت .وعرفه أيضا بأنه بالنسبة لى ليس الا طائرا صغيراً يحاول أن يعتدى على سيده من كبار الطيور ، أو ضبع ضعيف يحاول الوقوف أمام أسد كبير .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

التى كان يتمتع بها سنان ، وقدرته فى الوقوف ضد أعدائه والقضاء عليهم حتى ولو كانوا أقوياء أشداء وعدم خشيته منهم . ففى الوقت الذى يعمل فيه الصليبيون لنور الدين حسابا كبيرا لشدة ضرباته الموجهة اليهم ، نوى سنان يتهدده بالصورة المذكورة . ولعل نور الدين وهو يعمل على تكتيل الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين الدخلاء كان لا يريد إتاحة أى فرصة للاسماعيلية وشيخهم سنان للقضاء على ماحققته فى هذا السبيل . فآثر التريث حتى تكتمل عملية التوحيد و يتفرغ حينذاك لمواجهة أعدائه من صليبيون وحشيشية على السواء .
كذلك يدل الخطاب على غرور سنان الدرجة أنه شبه نفسه برسول الله صلى الله عليه وسلم . ويبدو أن نور الدين كان يرسل مبعوثيه إلى سنان ليكونوا حلقة الاتصال بين الطرفين . ويلقى أحد المخطوطات الاسماعيلية المتعلقة بسيرة راشد الدين والتى كتبها المؤرخ الإسماعيلى أبو فراس المزيد من الضوء على ذلك إذ يقول أن نور الدين أرسل فى أحد الأيام رسله من كبار رجال دولته إلى سنان فى حصن الكهف . وكان سنان جالسا فوق أحد أبراج الحصن المقابل للباب الخارجى . فلما إقترب الرسل تجاهه ووجدوه على حاله هذا إستهزأوا به وبما عليه من الثياب وتهامسوا فيما بينهم . ولما واجهوه قال لهم « تسخرون منها وتستهزأون بثيابنا وتزعمون أن قماشكم خير من قماشنا » ثم استكمل قائلا .

على ثياب دون قيمتها فلس ... ومن تحتها تقاسى بها الأنس
ثيابكم صبح ومن تحتها الدجى ... وثيابى دجى ومن تحت أذيالها شمس(١)

---

(١) أراد سنان أن يوضح لهم أن الثياب الجميلة لا تدل على نفس صاحبها لأنه رغم فقر ملابسه الا أن كثيرا من الملوك والقادة يخشونه ويرهبون جانبه وان كانوا هم يمتنون—

وبعد ذلك اعترف الرسل بذنبهم وتأسفوا لما حدث منهم وأنهوا مهمتهم التي جاءوا من أجلها وقفلوا عائدين إلى نور الدين[1] . ولم يذكر المؤرخ أية تفسيرات أخرى عن هذه السفارة وما أنجزته وما تم بشأنها . ولا تسعفنا المصادر التي تحت أيدينا بما يشفي الغليل في هذا الشأن .

وعلى أية حال ، سواء أكانت هناك اتصالات أخرى قد تمت بين نور الدين والحشيشية بالشام لم نظهرها بعد الخزائن الاسماعيلية أو لم توجد ، فانه بموته بدأ الحشيشية يواجهون خصماً عنيداً ظهر لهم في الشام يهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية من أقصى الشمال في الشمال إلى أقصى الجنوب في مصر والعمل على تحرير الأراضي المقدسة من أيدي الصليبيين، ونعني به صلاح الدين الأيوبي الذي تركت سياسته أعمق الأثر على طبيعة العلاقات بين المسلمين من سنة واسماعيلية من ناحية وبين الاسماعيلية وافرنج الشام من ناحية أخرى . وإذا كنا قد أشرنا في الصفحات السابقة إلى الحلقة الأولى من سلسلة الاتصالات التي تمت بين الحشيشية وصلاح الدين أثناء وجوده في مصر، فسوف نستكمل باقي حلقات هذه السلسلة في الشام .

لقد أحدث موت نور الدين في شوال سنة ٥٦٩هـ/مايو ١١٧٤م رجة عنيفة في العالم الاسلامي كله . فنلاحظ أنه بدلا من أن يجتمع ولاته يداً واحدة ليتدارسوا الموقف وينظروا في أمر هذه الدولة المترامية الأطراف خشية تدخل الفرنج ، وبدلا من الحفاظ على حقوق الصبي الصالح اسماعيل بن نور الدين

= بملابسهم فان هذا على حساب عدم الاعتناء بنفوسهم من حيث العلم والمعرفة الأمر الذي هو غنى عن معرفته لأنه يتمتع به بالفعل ، كما يدل البيتان على ذلك .

(١) أبو فراس : فصل من مناقب اللفظ الشريف ص ٤٧٩ .

الوارث الوحيد لهذه المملكة والذي لم يكن بلغ من العمر إلا الحادية عشر ، بدلا من كل هذا نجدهم يتهافتون كالذئاب لارغبة لهم إلا الفوز بأكبر جانب من الغنيمة مستغلين صغر سن الصالح اسماعيل . وانتهى الأمر بأن نجح سعد الدين كمشتكين ـ أحد كبار قواد نور الدين ـ فى السيطرة على الملك الصالح[١] وكان صلاح الدين في هذا الوقت يرقب الموقف بعين القلق ، وقد أرسل له أمراء دمشق يطلبون منه سرعة الحضور لتسلم المدينة . لذا غادر مصر متجها نحو الشام ودخل دمشق فى ربيع الثانى سنة ٥٧٠هـ/أواخر اكتوبر سنة ١١٧٤م واستولى على قلعتها[٢] . ثم استولى بعد ذلك على حمص وواصل طريقه نحو حلب فنزل على جبل جوشن [٣]. ونادى فى أهل المدينة بضرورة التسليم ولكن دون جدوى ، فما كان منه إلا أن شدد الحصار على حلب[٤]. وحيال هذا الموقف قرر الملك الصالح مع أمرائه مراسلة راشد الدين سنان للاستنجاد

---

(١) حسين مؤنس : نور الدين محمود ص ٣٥٦ ، جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الاسلامية جـ ١ ص ٤٣ .

(٢) أحمد البيلى : حياة صلاح الدين ص ١٢٦ ـ ١٢٨ انظر أيضا :
Treece, op. cit., p. 146.

(٣) يقع هذا الجبل غربى حلب وهو مشهور بكثرة معدن النحاس الأحمر فيه . ويقال أن زوجة الحسين بن على كانت حاملا فأسقطت هناك فطلبت من الصياغ فى ذلك الجبل ماء فمنعوها وسبوها فدعت عليهم. فأصبح من عمل فيه لا يربح . انظر القزوينى : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ١٠٧ .

(٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ، ص ١٧٨ ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ لوحة ١٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢٩.

وتفويضه للتخلص من صلاح الدين . فقام سعد الدين كمشتكين بالكتابة اليه ووعده بالمال الكثير فضلا عن بعض الضياع الموجودة بالمنطقة . ولما كان الاسماعيلية يرون في تقدم صلاح الدين خطرا داهما على سلطانهم، فقد أرسل سنان في جمادى الثانى سنة ٥٧٠هـ/ديسمبر ١١٧٤م جماعة من فداويته من أجل إغتياله . فلما وصلوا إلى معسكره رآهم الأمير ناصح الدين خمارتكين صاحب حصن بوقابيس فعرفهم لأنه كان جارهم في البلاد ومنازعا لهم فقال ولأى شيء جئتم وكيف تجاسرتم على الوصول ؟ وأسرع إلى خيمة السلطان لاخباره، ولكنهم أدركوه على باب الخيمة وقتلوه خوفا من غائلته . ثم أراد أحدهم الهجوم على صلاح الدين ، ولكن اعترضه أمير جنوده سيف الدين طغريل وقتله واجتمع الغلمان على باقى الفداوية وقتلوهم[١]. وبهذا اخفق الفداوية في إغتيال صلاح الدين . ولذا استنجد الحلبيون بالصليبيين للعمل من أجل أبعاد السلطان عن حلب ، وبالفعل اتجه الصليبيون نحو حمص وحاصروها لاجبار السلطان على فك الحصار . وقد نجحت خطته ورحل صلاح الدين عن المدينة[٢].

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٧٩، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٢٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ لوحة ١٨٩ انظر ايضا : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤ ، ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٧ ، مؤلف مجهول : شفاء القلوب لوحة ٣٢ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٢٨ . ومن المراجع الأجنبية انظر :

Grousset , op. cit ., t . II, p. 6 2 , Lewis Saladin and the Assassins, p. 39' Setton, op. cit., t. I. p, 1 9, Philip Hitti, The Arabes Heritage , p. 178, Hollis, Between tow Crusades , p. 59.

(٢) Runciman, op. cit., t. II, p. 408

وحاول السلطان محاصرتها مرة أخرى سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م، ولكنه لم ينجح لقوة تحصيناتهما ، فاتجه نحو بزاعة ومنبج وعزاز واستولى عليها(١).

وفي أثناء حصار عزاز في ذي القعدة سنة ٥٧١ هـ/ مايو ١١٧٦م أرسل سنان جماعة من الفداوية إلى معسكر صلاح الدين متنكرين في زي عساكره وتمكنوا من أن يندسوا بينهم دون أن يعرفهم أحد وأخذوا ينتظرون الفرصة المواتية حتى ينقضوا عليه . وبينما كان السلطان جالسا في أحد الأيام في خيمة أحد أقربائه ويدعى جاولي الأسدي يتابع سير القتال ، وثب عليه أحد الفداوية وضربه بخنجره على رأسه ، وكان السلطان يحذر غدرهم بارتداء الدروع المصفحة . ولذلك حالت قلنسوته الصلبة التي يرتديها على رأسه دون إصابته، فحول الفداوي عند ذلك طعناته إلى صدغه فأصابه بجرح بالغ . فأمسك

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ وتقع « بزاعة » شمال شرق حلب وفيها بساتين كثيرة ولها حصن منيع استولى عليه الصليبيون سنة ١١٣٦م/ ٥٣١هـ، ولكن استرده منهم عماد الدين زنكي سنة ٥٣٧ هـ / ١١٣٨م . أما منبج فهو بلد قديم وقيل أن أول من بناه هو الملك كسرى عندما تغلب على الشام وسماه منه هرب الى منبج . ومنبج بلدة فسيحة الأرجاء كثيرة البساتين ، بها قلعة حصينة ، وبينها وبين حلب مسيرة يومين . أما « عزاز » فهي تقع شمال حلب تميل نحو الغرب ، وعلى بعد مسيرة يوم واحد منها . والعزاز هو الأرض الصلبة ، وقد استولى عليها الروم من المسلمين سنة ٩٦٢ م / ٣٥١ هـ ثم فتحها نصير الدولة أبو المعالي ابن سيف الدولة سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م. وحدث زلزال أخرب قلعتها ، وقد خربها المغول سنة ١٢٠٩م / ٦٠٨هـ . انظر ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٢٨ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٦٠٣ ، جـ ٣ ص ٦٠٤ ، جـ ٤ ص ٦٥٤ — ٦٥٥ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٦٧ ، ابن الشحنة الدر المنتخب ص ١٦٨ ، ١٧٣ ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٤٧ .

السلطان يد الفداوى بيدية ، ولكنه لم يتمكن منعه من الضرب فظل يضربه في عنقه ضربا عنيفاً ، ولكن ضرباته كانت تصطدم بحافة سترته . وعندئذ أدرك السلطان أحد أمرائه فهجم على الفداوى وقتله ، فجاء فداوى آخر فقتل أيضاً ثم تلاه ثالث ولكنه لقى نفس مصير زميليه . وإتجه السلطان بعد ذلك إلى خيمته بنا به حالة من الفزع الشديد حيث لا يصدق بنجاته (١). وقد أعد السلطان بعد هذه ذلك الحادثة برجين خشبيين حول خيمته كان يجلس رينام فيهما ولا يدخل عليه إلا من يعرفه (٢). ورغم ما حدث فقد استمر فى حصار عزاز ثمانية وثلاثين يوما حتى سلمت له القلعة ، وبعد ذلك إتجه نحو حلب وحاصرها ثم وقع معاهدة مع أهلها فى العشرين من محرم سنة ٥٧٢ هـ / التاسع والعشرين من يوليو سنة ١١٧٦ م على أن يتم التنازل من قبل أمراء الشام على كل ما أستولى عليه من بـــلاد وأن يقسم الجانبان على المحافظة على السلام (٣). وبعد ذلك منح قلعة عزاز إلى اغاثون ابنة نور الدين محمود بناء على طلبها وإكراما لذكرى والدها (٤).

---

(١) الاصفهانى : البستان الجامع لوحة ١٢٠ ، ابن الاثير الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ — ٤٥ ، النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ لوحة ١٢٦ ، تاج الدين شاهنشاه منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه ص ٢٧٢ راجع كذلك :

Michel le Syrien, Cf. R. H. C. - Doc. Arm. t. I, p. 382

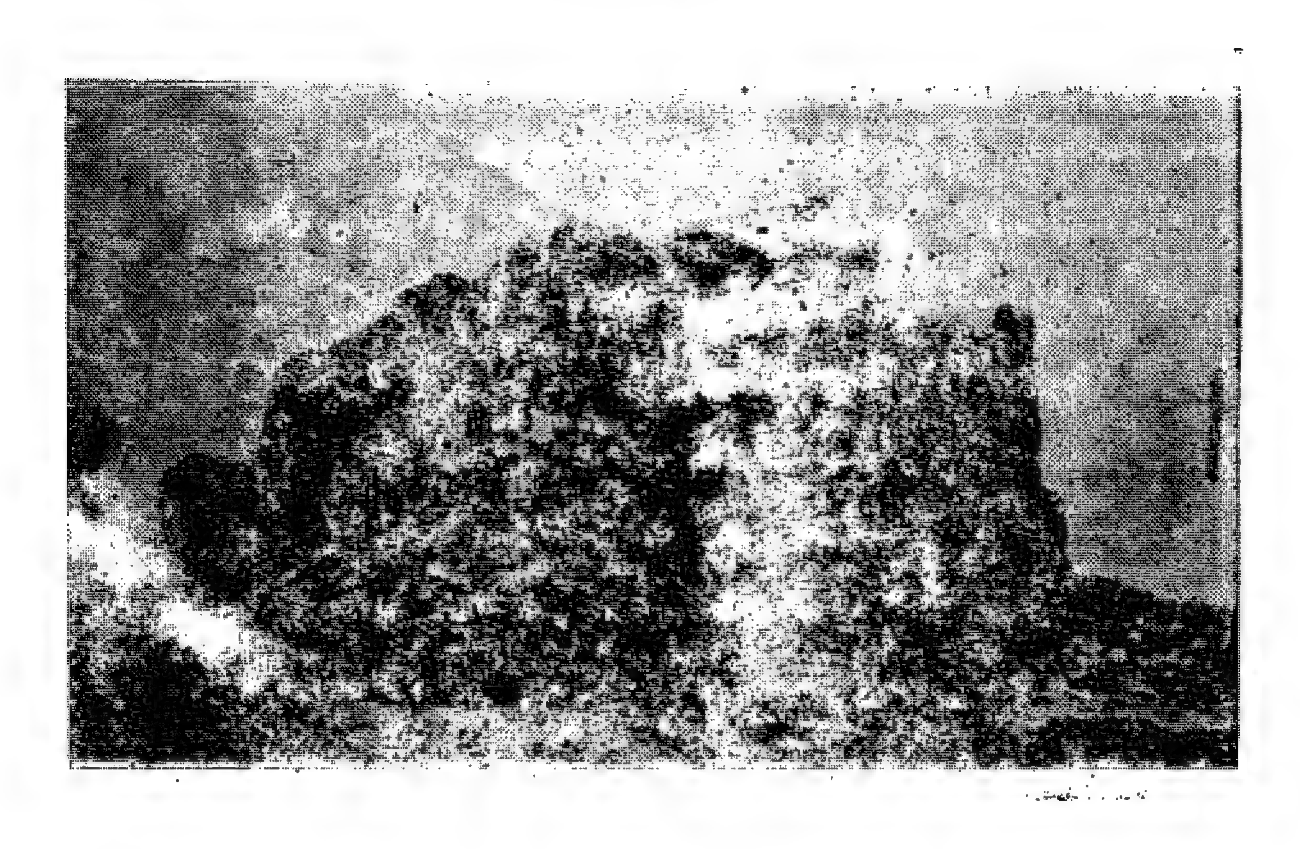
Lane - Poole, Saladin, p. 1.0 .

(٢) Setton, op. cit, t. I, p. 123.

(٣) Runciman, op. cit., t. II, p. 409.

(٤) تاج الدين شاهنشاه : منتخبات من كتاب التاريخ ص ٢٧٢ .

(لوحة رقم ٣)



منظر للمبنى القديم لقلعة مصياف مأخوذ من كتاب :

Dussaud, La Syrie Antique et Medievale Illistrée Planche, 128.

وجدير بالذكر أن المصادر المعاصرة والمتأخرة زمنياً عن الفترة موضوع البحث ، من عربية وغير عربية ، لم تشر إلى الدافع الذى أدى إلى وثوب الحشيشية على صلاح الدين هذه المرة .

ولكن ابن ابى طي أوضح أن استيلاء السلطان على منبج وبزاعة أثار خوف الحلبيين وايقنوا خروج ما بأيديهم من المعاقل والقلاع مما جعلهم يطلبون من سنان مرة أخرى التخلص منه [1] .

وغنى عن القول فى صدد الكلام عن العلاقات الصليبية الاسماعيلية ، ومحاولات اسماعيلية الشام وشيخهم سنان القضاء على صلاح الدين والتخلص منه ، غنى عن القول أن أقصى ما كان يتمناه الصليبيون آنذاك هو العمل على توسيع شقة الخلاف بين الحشيشية والسنيين مما يعود عليهم وحدهم بالنفع والفائدة ، فى وقت بدأ فيه الشرق الاسلامى يتكتل تحت راية صلاح الدين لمواجهة الخطر الصليبي ، وفى وقت كان فية الصليبيون أنفسهم يدركون تماماً حقيقة مركزهم وتخلخل وجودهم . فلا عجب أن ينظروا بعين الرضا والارتياح إلى هذا الصراع الدائر بين المسلمين من سنيين وشيعة وأن يعملوا على تأججه ، ولا عجب أيضاً أن يزداد العداء بين سنان وصلاح وأن تتكرر محاولات شيخ الجبل فى الشام لاغتيال صلاح الدين . وأخيراً لا عجب أن تتصل السفارات بين الاسماعيلية وبين أفرنج الشام لتكوين جبهة واحدة لاتينية آسيوية لمواجهة هذا الخطر المشترك الذى يهددها . وفى ضوء هذه الحقائق يمكن تفسير مختلف المواقف التى وقفها كل من سنان وصلاح الدين والافرنج فى الشام حيال الآخر .

---

(١) ابو شامه : الروضتين : نقلا عن أبى على ص ٢٥٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٣ .

زعيم الاسماعيلية في بلاد الشام . أعلم يا سنان أنك وإن كنت قد أغلقت أبواب مدينتك في وجهي وأقمت عليها الحراس فأنت لا تقدر أن تنجو من صلاح الدين، والآن فاني أنذرك بأن تجيء إلى خاضعاً أنت وجميع الزعماء والفداوية وتسلمون إلى مفاتيح الحصون والقلاع والمدن صاغرين وإلا حطمتكم بالمجانيق ولا أبقي عليكم ولا أذر وقد أعذر من أنذر والسلام » (١) . ولما قرأ سنان الخطاب سخر منه وأرسل مع الوفد خطاباً إلى صلاح الدين رداً على رسالته يتضمن عبارات السخرية وتهديداً بالدمار إذا ما حاول محاربته . وقد توالت بعد ذلك المفاوضات والتهديدات بين الرجلين فأرسل له سنان يقول له :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت ... بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا أستوى ... مغاربها منا وفينا حديدها (٢)

وشعر سنان أن الرسائل لن تجدي ، فتفكر في أن يذهب إلى السلطان ليزيد من رعبه . فانتظر حتى جنح الظلام ، وغلب النوم على النيام فنزل من الجبل وتمكن من الدخول إلى معسكره وخيمته دون ان يراه احد . وكان

---

(١) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٣٠٨ ، عارف تامر : سنان وصلاح الدين ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٥٣ .

تأثلت معناها عظمت : أما اشمخر فالمقصود بها ارتفع وطال . انظر القاموس المحيط ج ٢ ص ٦٤ و ج ٣ ص ٢٢٧ يقصد سنان من هذين البيتين ان يوضح لصلاح الدين بأن القوة والمركز الذى وصل اليهما انما كان بفضل الاسماعيلية . وعلى [illegible] ألا يقف عائقا أمامهم .

زعيم الاسماعيلية فى بلاد الشام . أعلم يا سنان أنك وإن كنت قد أغلقت أبواب مدينتك فى وجهى وأقمت عليها الحراس فأنت لا تقدر أن تنجو من صلاح الدين ، والآن فانى أنذرك بأن تجىء إلى خاضعاً أنت وجميع الزعماء والفداوية وتسلمون إلى مفاتيح الحصون والقلاع والمدن صاغرين وإلا حطمتكم بالمجانيق وإلا أبقى عليكم ولا أذر وقد أعذر من أنذر والسلام » (١) . ولما قرأ سنان الخطاب سخر منه وأرسل مع الوفد خطاباً إلى صلاح الدين رداً على رسالته يتضمن عبارات السخرية وتهديداً بالدمار إذا ما حاول محاربته . وقد توالت بعد ذلك المفاوضات والتهديدات بين الرجلين فأرسل له سنان يقول له :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت ... بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا أستوى ... مغاربها منا وفينا حديدها (٢)

وشعر سنان أن الرسائل لن تجدى ، ففكر فى أن يذهب إلى السلطان ليزيده من رعبه . فانتظر حتى جنح الظلام ، وغلب النوم على النيام فنزل من الجبل وتمكن من الدخول إلى معسكره وخيمته دون ان يراه احد . وكان

---

(١) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٣٠٨ ، عارف تامر : سنان وصلاح الدين ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٥٣ .

تأثلت معناها عظمت : أما اشمخر فالمقصود بها ارتفع وطال . انظر القاموس المحيط ج ٢ ص ٦٤ و ج ٣ ص ٢٢٧ يقصد سنان من هذين البيتين ان وضح لصلاح الدين بأن القوة والمركز الذى وصل اليهما انما كان بفضل الاسماعيلية . وعلى ذلك يجب ألا يقف عائقا أمامهم .

السلطان حينذاك مستغرقا في نومه ، فبدل سنان مصابيح النور التي عند رأسه ورجليه كل منهما مكان الأخر ، كما وضع بالقرب منه كعكا ساخناً وهو من النوع الذي لايخبزه غير الحشيشية وارفق به خنجراً مسموماً ، ثم وضع فوق الكعك خطاباً متضمناً أبياتاً من الشعر يقول فيها :

انا منحناك ثوباً للحياة فان .. كنت الشكور وإلا فسوف نخلعه
قد قام قف إلي قلب يزعزع ... كضفدع تحت صخر رام بقلعة
ما يستحي تطلب صفر همته ... يرسل الى اسد الغابات يفزعه (١)

ولما استيقظ السلطان من نومه ووجد التغييرات التي حدثت في خيمته صاح صيحة ازعجت الجميع . وتجمع حوله امراؤه واخبرهم بما حدث ، وقد اكد حراسه بأنهم لم يروا انسا ولم يسمعوا صوتا طوال حراستهم للمنطقة واذ ذاك خرج السلطان مسرعا فرأى آثار اقدام على الجير الذي كان قد نشره حول الخيمة كحيلة يعرف بها ان كان هناك شخص قد دخل الى خيمته ام لا . وتأكد السلطان من ان سنان لو أراد قتله لفعل ، ولذا قرر مصالحته . وكان من شروط الصلح اشتراك الفداوية في المعارك الصليبية القادمة مع تعهد السلطان بعدم التعرض لهم (٢) . واضاف العماد الحنبلي رأيا آخر في سبب

---

(١) أراد سنان أن يوضح للسلطان بأنه لو كان يريد قتله لفعل . وطلب منه تقديم فروض للشكر لعدم المساس به وأراد أيضا أن يوضح له بأنه مهما فعل فهو في نظره ليس الا ثعلباً ضعيفاً يحاول تهديد أسد عظيم .

(٢) أبو فراس : فصل من مناقب النفظ الشريف ص ٤٦٠ - ٤٦٢ ، مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٣٠٢ راجع كذلك :

Runciman, op. cit. I t .p . 410., Lanepoole, op. cit., p. 150, Campbell, The Crusades, p. 244, Treece, op. cit., p. 147.

تعجيل صلاح الدين بالصلح مع سنان ، إذ ذكر أن سنان قد سير في أحد الأيام رسولا الى صلاح الدين ، وامره عدم تأدية رسالته اليه الا بخلوة فلما وصل الى مقر السلطان تم تفتيشه . ولما لم يجد معه ما يخافه أخلى له المجلس الا نفراً يسيرا فامتنع من أداء الرسالة حتى يخرج الموجودون كلهم . وأمر صلاح الدين بخروج الجميع ما عدا مملوكين صغيرين ورفض اخراجهما لانهما مثل اولاده . وحينذاك التفت الرسول اليهما وقال « إذا امرتكما عن مخدومي بقتل هذا السلطان هل تفعلانه ؟ » قالا نعم وجذبا سيفهما فبهت السلطان وطلب صالح سنان وخروج المملوكان والرسول (١) .

ويحتمل أن تكون هذه القصة قد حدثت بالفعل ، لاننا إذا ربطنا بين كل الحوادث التي كان معسكر صلاح الدين مسرحاً لها ، وتلك التي سبق الاشارة اليها ، وبين هذه القصة يمكن أن نستنتج منها احتمال وجود عنصر الخيانة الذي مكن الفداوية من التسلل ، داخل معسكر صلاح الدين عندما حاولوا اغتياله اثنـــاء حصار حلب وعزاز ، وهو الذي مهد أيضا لدخول سنان إلي خيمة السلطان اثناء نومه رغم شدة الحراسة المفروضة حول خيمته . وبهـــذا فالمملوكان المشار اليهما هما عنصرا الخيانة المقصودان . لانه ليس من المعقول ان يصل سنان إلى داخل خيمة السلطان دون أن يكون هنـــاك من مهد له الطريق . ولكن الشيء الذي لا يقبله العقل في هذه القصة هو ما ذكره المؤرخ من ان السلطان ترك هذان المملوكان يخرجان مع الرسول بسلام دون المساس بهما انتقاما منهما لعدم صيانة الثقة التي منحها السلطان لهما بالشكل المذكور . وأما لعدم اغتيـال سنان السلطان عندمـا دخل خيمته فمن المحتمل أن يكون شيخ الجبل قد اراد ان يقنع السلطان تماما بأنه لاجدوى من معداته وانه من الافضل توقيع الصلح بين الطرفين .

---

(١) العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٩٥ .

ولا شك ان الضربات القوية التى أخذ صلاح الدين يوجهها إلى اسماعيلية الشام فى قلب معاقلهم كانت جزءا اساسيا من خطته الرامية إلى توحيد الشرق الاسلامى استعدادا لتوجيه ضربته المؤثرة إلى اللاتين فى الشام ، وكانت فى نفس الوقت نذيرا لكل من الافرنج والاسماعيلية . هـــذا من ناحية ، ومن ناحيـة أخرى استشعر كل من الاسماعيلية والفرنج بالخوف من صلاح الدين ، وكان هذا مما ادى إلى ازدياد التقارب بينهما . ولكن تطور الاحداث بعد ذلك سوف يؤدى إلى تغيير المواقف والسياسات وفقا لما تمـليه مصلحة كل طرف من الأطراف حيال الآخر .

ومهما يكن من شيء ، ومهما كانت الدوافع التى جعلت السلطان يترك حصار مصياف ويسعى إلى التفاهم مع سنان ، ومهما قيل فى هذا الشأن من قصص وروايات يجب تداولها بشيء كبير من الحيطة والحذر ، فلقد حافظ كل من صلاح الدين وشيخ الجبل على وعدهما إذ لم نسمع عن أى اعمال أخرى وقعت ضد صلاح الدين من قبل الحشيشية منذ تركه مصياف ، كما لم يقم السلطان بأى اغـارات مضادة للاسماعيلية (١) . ومما يدل على استمرار صداقتهما تلك المعاهدة التى وقعها صلاح الدين مع الملك ردتشارد قلب الأسد سنة ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ عقب هزيمة الصليبيين فى الحرب الصليبية الثالثـة ، والتى اشترط صلاح الدين فيهـا دخول اراضى الاسماعيلية ضمن المعاهدة ، بمعنى عدم تعرض الصليبيين لهم (٢) . والواضح ان الهدف الاسمى من ذلك هو محاولة صلاح الدين تكتيل الجبهة الاسلامية من سنة وشيعة ضد الصليبيين .

---

(١) Guyard, op. cit., p. 368, Setton, op. cit., t. I, p. 125.

(٢) Defrémery, op. cit., p. -9.

وهكذا استطاعت الحشيشية أن تنجح فى تنفيذ سياستها تجاه القوى المعادية لها فى الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) وان تصل بها إلى الغرض المنشود الذى يتفق ومطامعها فى المنطقة . كما انها ظلت مصدرا خطيرا للانحلال السياسى والاجتماعى فى عصر الحروب الصليبية الذى عاشت فى كنفه وترعرعت بين احضانه وسوف تكشف الفصول التالية عن ذلك .

الفصل الرابع

موقف الحشيشية من القوى الصليبية فى الشام

الخطوط العريضة لسياسة الصليبيين حيال فداوية الشام ـ الحشيشية يغتالون زعماء الصليبيين : مقتل ريموند الثانى صاحب طرابلس ـ مقتل كونراد دى مونتفرات صاحب صور ـ مقتل ريموند بن بوهيموند الرابع صاحب انطاكية ـ مقتل فيليب دى مونتفرات صاحب صور ـ محاولة إغتيال الملك إدوارد الأول ملك إنجلترا ـ تحالف الاسماعيلية مع الصليبيين لمواجهة نور الدين محمود ـ سفارة سنان إلى الملك عمودى ـ إغتيال فرسان المعبد للرسول الاسماعيلى وآثاره ـ مناقشة موضوع تعلق شيخ الجبل بالديانة المسيحية ـ زيارة هنرى أوف شامبانيا لقلاع الدعوة ودلالتها ـ أوجه الشبه بين كل من الجاليات التجارية الايطالية والجماعات الرهبانية العسكرية من ناحية وبين اسماعيلية الشام من ناحية أخرى .

اوضحنا فى الفصل السابق الخطوط العريضة للسياسة التى أتبعتهـا اسماعيلية الشام تجاه السنيين فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس من الهجرى) والوسائل التى استعانوا بها والطرق التى لجأوا اليها لتنفيذ هذه السياسة. ويحسن أن نلقى نظرة مركزة على الجانب الآخر من الموضوع ، ونعنى به موقف الحشيشية من الصليبيين حتى تكتمل الصورة .

أن الدارس لتاريخ العلاقات بين الصليبيين واسماعيليـة الشام فى الفترة موضوع البحث يجد أن كلا منها كان يعمل على استغلال الآخر لمصلحته الشخصية رغم ما كان يجمع بينهما من هدف واحد مشترك هـو العمل على إزالة القوى الإسلامية السنية من الميدان حتى يسهل عليهما تحقيق مصالحها ومطامعها . فاذا نظرنا إلى الصليبيين نجد انهم كانوا يهدفون إلى توسيع رقعة مملكتهم الصليبية وتثبيت دعائمها فى منطقـة الشرق الأدنى . وكانوا يعرفون جيدا مدى الضعف الذى وصل اليه العالم الإسلامى وقتذاك بانقسامه بين شيعة وسنة فضلا عن التفكك السياسي ، وادركـو أيضا أن الطائفة الإسماعيليـة ستكون خير عون لهم ضد أعدائهـم السنيين الذين بدأو يستشعرون الخطر الصليبى الداهم وأخذوا يفيقون من سباتهم ويعملون على توحيد جبهتهم لدرء هذا الخطر ودفعه عن ديارهم. واذا وجدوا أن أسلم الطرق لتحقيق مآربهم فى هذه الفترة بالذات هو العمل يدا واحدة مع الحشيشية ، لأن ذلك سيكون بمثابة الورقة الرابحة فى أيديهم يستخدمونها إذا دعت الضـرورة إلى ذلك ، تحقيقا لأهدافهم فى القضاء على خصومهم المسلمين السنيين الذين كانو يهددونهم من حين لآخر ويعملون على إجلائهـم عن الأراضى المقدسة . ولعلهم أيضاً كانوا يعملون على زيادة الايقاع بين المسلمين من سنيين وشيعة بما يعود عليهم وحدهم بالنفع والفائدة . وعلى هذا فقد سعى الملك بولدوين الثانى (١١١٨ —

١٠٣١ -١١٩٢م/٥١٢ - ٥٢٦ هـ) ملك بيت المقدس إلى محالفة طائفـــة الاسماعيلية بالشام وتمكينها من إشاعة الفوضى فى المجتمع الاسلامي بالشام وقتل كل من يمكن قتله من أعلام المجاهدين(١). وكانت زيادة هنرى صاحب شامبانيا وملك بيت المقدس لمعاقل الاسماعيلية فى الشام فى أواخر القرن الثانى عشر الميـلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) ، تدعيما لهذه السياسة وعاملا ساعـد على تقوية أواصر الصداقة بين الطـرفين (٢) . ولم يكن تقرب الصليبيين من اسماعيلية الشام راجعا إلى ضمان الوقوف معا ضد أعدائهم السنييـين فحسب ، بل كانوا أيضا يخشون خناجرهم وسياسة الارهاب والفتك التى يتبعونـها (٣). ولذا ظلوا يعملون لهم حسابا كبيرا طوال فترة وجودهم فى الشام . وخير دليل على ذلك مبادرة الملك عمـورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ -١١٧٣ م/ ٥٥٨ هـ ٥١٩ هـ) بالاعتذار لشيخ الجبل الاسماعيلى راشد الدين سنان عندما تعرض رسله لهجمات الفرسان الداوية الذين أجهزوا عليهم . ولعـل خوف الملك الصليبى من إنتقام شيخ الجبل ، وحرصه على مستقبل العلاقات بينهما هما الاذان جعـــلا الملك يسرع بتقديم الاعتـــذار اليه حتى لا تسوء العلاقات بينهما (٤) .

وقد سارت سياسة الصليبيين على هذا المنهاج خلال القرن الثالث عشر الميلادى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤٧٨، راجع أيضا :
Setton; op. cit., t. I, pp. 119 - 120 .

(٢) سنتعرض لهذه الزيارة فى شيء من التفصيل فى الصفحات التالية .

(٣) الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣ .

(٤) سنتناول هذه الحادثة فى شيء من التفصيل والتحليل فيما بعد .

(القرن السابع الهجرى) إلى أن تم القضاء على معاقل الاسماعيلية فى الشام على يد الظاهر بيبرس ، فى وقت كانت فيه معاقل الصليبيين هى الأخـــرى تتهاوى وتنتظر الضربة الأخيرة . إذ أرسل الأمبراطور الألمانى فردريك الثانى فى عام ١٢٢٦ - ١٢٢٧ م / ٦٢٣ - ٦٢٤ هـ إلى ماجد الدين شيخ الجبل بالشام وقتذاك بعثة محملة بالهدايا الثمينة فضلا عن ثمانين ألف دينـار ، وذلك تدعيما لعلاقات الود والصداقة القائمة بينهما ، وطلبا للأمان منه (١) . وترتب على هذا أن رفض الحشيشية دفع الجزية المفروضة عليهم لجماعة الاسبتارية ، إذ قالوا لهم متسائلين « ملككم الأمبراطور قد أعطانا فهل ستأخذون منا ؟! » ونتيجة لهذا الرفض شن الفرسان الاسبتارية على الاسماعيلية هجوما عنيفـــاً وسلبوا منهم الشيء الكثير وأرغموهم على الاستمرار فى دفع الجزية التى كانوا يدفعونها لهم (٢). ولقد سعى الصليبيون فى ضوء هذه السياسـة إلى التفاوض مع راشد الدين سنان من أجل الوقوف معاضـد صلاح الدين ولكن الشيـخ الاسماعيلى رفض هذا العرض لما كان يربطه بصلاح الدين من أواصر الصداقة والعنصرية واللغة والدم فضلا عن وحدة الدين(٣) .

ورغم تشككنا فى صحة هذه الرواية، لأن العلاقة بين صلاح الدين وسنان لم تكن دائما على ما يرام ، وأن التفاهم بينهما لم يحدث إلا مؤخرا ، فضلا عن عدم تحديد تاريخ معين لهذا الاتصال الصليبي الاسماعيلى رغـم تشككنا فى

---

(١) Berchem, op. cit., p. 501

(٢) Setton, op. cit, t. I, p. 128.

(٣) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٣٠٢ ، عارف تامر : سنان وصلاح الدين ص ٨٢ .

الرواية المذكورة ، فإننا نرى أن هذه الواقعة لو كانت قد حدثت فمن الواضح إنها تمت بعد معاهدة الصلح التى عقدت بين صلاح الدين وشيخ الجبل سنة ١١٧٦م/٥٧٢ هـ وليس قبلها ذلك أن العداء كان شديدا والصراع سافراً بين هذين القطبين السنى والاسماعيلى قبل التحالف المذكور الأمر الذى لم يكن يسمح بوجود نوع من التفاهم بينهما . وكان سنان نفسه يترقب الفرصة المواتية للقضاء على خصمه القوى صلاح الدين ، وعلى هذا ما كان يتردد إطلاقا فى التفاهم مع الفرنجة ضده بناء على طلبهم لو كان هذا قد تم قبل تحالفه مع السلطان .

ولا شك أن سنان لو كان قد استجاب لنداء الصليبيين لربما كان قد تغير وجه التاريخ أو على الأقل لتغيير مسار الأحداث في رقعة الشرق الأدنى خلال الفترة المتبقية من العصر الوسيط ، ويرجع ذلك إلى كثرة المؤامرات التى كان سيواجهها السلطان الأيوبى من جانب التداوية رمقدمهم بقصد إغتياله وهو إذا كان قد سلم فى المرتين السابقتين فلن يكون هذا مضمونا بالنسبة للمرات التالية .

وعلى أية حال ، رغم سياسة التقرب والصداقة التى انتهجها الصليبيون حيال الحشيشية ، نجدهم فى كثير من الأحيان يظهرون عداءهم لهم ويحاربونهم إذا وجدوا أن مصلحتهم تحتم عليهم ذلك مثال ذلك أن الصليبيين بقيادة الملك بولدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ – ١١٦٢م/ ٥٣٩ – ٥٥٨ هـ) انتهزوا فرصة مرض نور الدين محمود فى رمضان ٥٥٢هـ/ نوفمبر ١١٥٧ م وطمعوا فى الاستيلاء على شيزر فهاجموها وقتلوا وسلبوا من فيها ، وذلك رغم علمهم أن الاسماعيلية يتمكنون من بعض نواحيها . فكان رد الفعل الاسماعيلى سريعاً ، إذ قام رجالهم بصد العدوان الصليبى

وتمكنوا من إخراج الفرنج من المدينة (١) . ونجد مثالا ثانيا فى موقف بوهيموند صاحب انطاكية من الحشيشية، إذ شن عليهم هجوما شديدا فى قلعة القدموس سنة ١١٢٩م/٥٢٤ هـ والتى كانت فى قبضتهم حينذاك واستولى عليها، إلا أنهم تمكنوا فيما بعد من استعادتها (٢).

وأمام هذه السياسة الصليبية ذات الحدين والتى تتأرجح بين التفاوض والمعاداة وبين طلب التحالف والصداقة وشن الهجوم والقتال، أمام هذه السياسة كانت حشيشية الشام يكيفون مواقفهم حسبما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة . ولذا لم توجه خناجرهم صوب صدور المسلمين السنيين فحسب بل وجهت أيضا إلى صدور بعض القادة والملوك الصليبيين . ولعل من أبر الذين راحو ضحية خناجر هذه الجماعة الأمير ريموند الثانى Raymond II صاحب طرابلس والمركيز كونراد دى منتفرات Conrad de Montfrat صاحب صور وملك بيت المقدس . ورغم أن هاتين الحادثتين تركتا أثرا بالغا فى نفوس الصليبيين وسياستهم فى الشرق الأدنى ، إلا أن المسلمين قد استقبلوا أمر مقتلها بكل إرتياح وسرور لأكثر من سبب منها تخلصهم من عدوين قويين فضلا عن إتاحة الفرصة لهم لزيادة الاستعدادات والتحصينات خلال فترة الاضطراب الذي حدث فى معسكر الصليبيين أثر إغتيال كل منهما .

وكان الضحية الأولى وهو ريموند الثانى قد تولى حكم طرابلس سنة ١١٣٧م/٥٠٢ هـ ولم يكن قد تجاوز من العمر إثنتين وعشرين عاما ، وظل متوليا أمرها

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٩ ؛ محمد راغب الطباخ : أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) Stevenson, op. cit., p. 128.

حتى مقتله عام ١٩٥٢ م/٥٤٧ هـ ورغم أن الجناة كانوا معروفين لدى المؤرخين إلا أنهم لم يتوصلوا إلى الدافع وراء اقترافهم هذه الجريمة(١). وقد قيل فى شأن مقتل ريموند الثانى أن النزاع قد اشتد بينه وبين زوجته هـــودير نا Hodirna ابنة بولدوين الثانى فى أواخر أيامه من سنة ١١٥٢ م / ٥٤٧ هـ مما أدى إلى توجه شقيقها الملك بولدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميليسند Millssond إلى طرابلس لفض هذا النزاع. ولكنه اخفض فى التوفيق بين الزوجين المتخاصمين، فاضطرت هوديرنا Hodirna إلى الرحيل مع اختها، بينما آثر بلدوين البقاء بعض الوقت فى طرابلس وعندما أشيع أن نور الدين يتأهب لمهاجمتها. وفى أحد الأيام أثناء عودة الأمير ريموند الثانى من المدخل الجنوبى لعاصمته، وعند دخوله بوابة الولاية هجم عليه جماعة من الفداوية وطعنـوه بخناجرهم فأصابوا منه مقتلا، وسقط على الأرض مفارقا للحياة (٢) ولقـد حاول أحد الفرسان المرافقين له واسمه رادولفوس دى مـرلو Radulphus de Morlo الدفاع عنه ولكنه لقى مصرعه هو الآخر. وحينذاك تعالت الأصوات والصياح، فاندفع رجال الحامية بسلاحهم وتدفقوا فى الشوارع يذبحون كل من يشاهدونه من المسلمين انتقاما لسيدهم. وكان من ضمنهم جماعة الفداوية الذين اغتالوا الأمير. هذا بينما يشير المؤرخ رانسيمان أن الجناة تمكنوا من

---

(١) Runciman, op. cit., t. II, p. 3 3.

(٢) Guillaume de Tyr, op. cit, t. I, p. 791, Cf. also : Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem p. 270, Iroga, Histoire des Croisades, p. 101.

. وراجع أيضا السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص١٠٦

الفرار (١) . وكان اغتيال ريموند الثاني يمثل الضحية الأولى للحشيشية في الشام ، كما كان مقتله صدمة كبرى الملك بلدوين الثالث ، إذ حزن عليه حزنا شديدا وتشتت عقلة وأصبح غير قادر على السيطرة على دموعه حسبما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الصوري(٢). وبمقارنة هذه الروايات المتضاربة ببعضها ، وبنظرة دقيقة فاحصة إلى تتابع سير الأحداث يمكن القول أن مقتله ربما كان بتدبير من زوجته الغاضبة منه الحانقة عليه وبالتواطؤ مع شقيقتها بعد فشل محاولات الاصلاح بينهما ، خاصة وأن مقتله حدث عقب مغادرتها طرابلس بوقت قصير . وجدير بالذكر أنه على الرغم من إتفاق المصادر على أن واقعة الاغتيال قد حدثت سنة ١١٥٢م/ ٥٤٧ هـ ، فقد ذكرها الكاتب روجر أوف وندوفر ضمن حوادث سنة ١١٥٠ م/٥٤٥ هـ دون أن يذكر تعليلا لذلك (٣) . وإننا نستبعد هذا الرأى ونؤيد ما اجمع عليه المؤرخون من أن اغتياله قد تم سنة ١١٥٢ م / ٥٤٧ هـ ، اذ من الثابت أن الخلاف الذى وقع بينه وبين زوجته كان في أواخر السنة المذكورة .

ومهما يكن من أمر ، فان وفاة ريموند الثاني كان صدمة كبرى للصليبيين

---

(١) Runciman, op cit., t I, p. 120.

(٢) Guillaume de Tyr, op cit' Loc cit, Cf. also : Setton, op cit., t. I, p. 120.

(٣) Roger of Wendover, Flowers of History, t. II, p. 503

بعامة ، اذ قام عامة الفرنج بثورة شديدة مطالبين لانتقام من القتلة . كما انهم استعدوا لشن حرب شعواء على الحشيشية . فضلا عن أن الفرسان الفداوية أبدوا استعدادهم للانتقام منهم ، وكان رد الفعل انهم شنوا هجوما عنيفاً على أراضي الاسماعيلية وسطوا على ممتلكاتهم واجبروهم على عقد معاهدة معهم يلتزمون بموجبها بدفع جزية سنوية تشتمل على مبلغ كبير من المال قدره ثلاثة آلاف بيزنط Bezant (١)، فضلا عن مقدار من القمح والشعير(٢). وكان هذا الهجوم الكبير على الاسماعيلية بمثابة الاتصال العدائي الأول والسافر الذي وقع بين الطرفين الصليبي والاسماعيلي .

وغير خاف أن الفوضى التي حدثت في صفوف الصليبيين أثر اغتيال هذا القائد الصليبي قد أتاحت الفرصة للمسلمين لتجميع قواهم والاستعداد بصورة أكثر فاعلية لبدء قتالهم مع الصليبيين ، كما أنها رفعت من روحهم المعنوية . هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كان أغتيال ريموند بمثابة ورقه رابحة في أيدي السنيين يستغلونها للضغط على خصومهم . فقد ضمنوا عدم تأييدهم الحشيشية

---

(١) البيزنط في الأصل عملة ذهبية بيزنطية نسبة الى بيزنطه عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية وتعرف هذه العملة باسم « صول » أو الصلدي. وكانت متداولة في أوربا في العصور الوسطى من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الأول حتى الخامس الهجري) تقريبا . وليس من السهل تقدير القيمة الحقيقية للبيزنط نظرا لاختلاف وزنه باختلاف الزمان والمكان، ومع هذا يمكن القول أن متوسط قيمته المتداولة وقتذاك كان يبلغ حوالي نصف جنيه انجليزي انظر :

Rey, le Colonies Franques de Syrie aux XIII me Siecles, p. 452

(٢) Defrémery, op. cit., p. 21.

للصليبيين على الأقل فى هذه الفترة التى كانوا يستعدون فيها لتجميع قواهم ولم شملهم ، وذلك بسبب ماحدث بينها من نفوذ وعداء . ولكن رغم هــذا الكسب الكبير بالنسبة للسنيين ، الا أن المصادر سواء كانت عربية أم أجنبية، قد أغفلت ذكر كل ماهو محتمل حدوثه من قبلهم حيال هـذا التوتر والنفور بين الفريقين الصليبى والاسماعيلى الذى نشب وقتذاك

على أية حال ، بعـد أربعين عاما من اغتيال الامـــير ريموند الثانى وجه اسماعيلية الشام ضربة قاصمة أخرى إلى المملكة الصليبية فى الأراضى المقـدسة وذلك بانقضاضهم على المركيز كونراد دى مونتفرات صاحب صـور وملك بيت المقدس والاجهاز عليه سنة ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ . ولقـــد إتخذ نفر من المؤرخين المحدثين العداء القائم بين المركيز كونراد ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا سببا فى توجيه أصابع الاتهام إلى الملك الانجليزى ، واعتباره المحـرض على قتله . ولكى نتعرف على حقيقة هذا الرأى لابد أن نرجع قليلا إلى الوراء لقد كان الملك ريتشارد واحدا من بين كبار ملوك الغـرب الاوروبى الذين قادوا الحملة الصليبية الثالثة من أجل غزو مدينة بيت المقدس بعـد سقوطها فى قبضة صلاح الدين عقب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م . ولكن يبدو أن الخلاف الذى دب بين القواد والحكام الصليبيين كان عاملا هاما فى تشتت القوى الصليبية بل وفى فشل الحملة الصليبية نفسها . وقد ظهر هـذا الخـلاف بشكل واضح بين رتشارد وكونراد دى مونتفرات صاحب صور ، وصاحب الحق الشرعى فى تتويجه ملكا على بيت المقدس(١) ، وكان هذا العداء والخلاف ناتجا عن حقد كل منهما على الآخر ، فضلا عن لوم كونراد له على تقاعسه عن

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٨٤ .

المسير لإنقاذ عسقلان عندما خربها صلاح الدين ، إذ أرسل اليه في هذا الشأن خطابا لاذعا مهينا لكرامته (١) . يضاف إلى ذلك أن كونراد أغرى عساكر الملك رتشارد بالتخلي عنـه والدخـول في زمرتـه ، كما كان يفشي أسرار الصليبيين لمعسكر صلاح الدين (٢) . كل هـذا كان كفيلا بأن يولد العداء بينها . ورغم هذا فقد وافق رتشارد على تتويج كونراد ملكا على بيت المقدس ولكنه لم يهنأ بهذا الملك لأن اجراءات التتويج قد تأخرت وكان مقتله سابقا عليها (٣) .

على أية حال ، أرسل شيخ الجبل راشد الدين سنان أثنين من فداويته الى صور بقصد إغتيال كونراد ، وكانا متنكرين في زى الرهبان وادعيا المسيحية وأظهرا الزهد والتعبد حتى اكتسبا احترام رجال الدين وثقتهم (٤). وتمكن أحدهما من الدخـول في خـدمة باليان صاحب ايبلين Ballian d' Ibelin والآخر في خدمة رينو Rinaud صاحب صيدا وذلك لقرب وجودهما مـن المركيز ، وعملا على اكتساب ثقتها بالاضافة إلى ثقة كونراد نفسه وظلا في خدمتها مدة ستة أشهر يترقبان خلالها الفرصـة المناسبة للوثوب على غريمهما وقتله (٥) . وفي يوم ٢٨ أبريل سنة ١١٩٢م الذى يوافق ٩ ربيـع أول سنة

---

(١) ابن الاثير : الـكامل في التاريخ جـ ١٢ ص ٣٤ .

(٢) Campbell, The G usades, p. 323.

(٣) Calthro , The Crusades, p. 57; King, he Knights Hospitali rs in tue Holy Land, p. 15 .

(٤) Michau l. op. cit.. t. III, p. 426

(٥) Defrémery, op. cit., p. 7 Browne, op cit., t. II, p. 0 , Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem p. 6.5.

٥٨٨ هـ ذهبت إيزابيلا زوجة كونراد لتأخـذ حماما ، ومكث كونراد فى إنتظارها لتناول العشاء معا ولكنه علم بأنها ستتأخـر بعض الوقت ، ولذا أمتطى صهوة جواده ، واتجه إلى فيليب أسقف بوفيـه Beauvais لتناول العشاء معه . وبعد إنتهاء العشاء استأذن كونراد فى الخروج، وأثناء مروره فى أحد الشوارع الضيقة اعترض طريقه شابان ملثمان وقدم له أحدهما خطابا فمد يده لاستلامه فوثب عليه الآخر وأنزله من فـوق جواده وطعنـه فى قلبه بخنجره المسموم . وقد قتل أحد هذان الفداويان ، أما الآخر فقد تمكن من الفرار والدخول فى إحدى الكنائس المجاورة فى المنطقـة . ولما التف أتباع كونراد حوله طلب منهم حمله إلى هذه الكنيسة . وهناك لاحظ الفداوى أنه مازال على قيد الحياة ويتكلم فقفز عليه وطعنه طعنـة عجلت بوفاته . وقـد قبضوا عليه فى الحال وجروه من الكنيسة إلى الشوارع المجاورة لها وعذبوه حتى أعترف بأن ملك انجلترا هو الذى حرض شيخ الجبل على قتل كونراد ، وتم قتل الفداوى فى الحال (١) .

---

(١) العماد الاصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى — تحقيق محمد صبيح ص٥٨٩ ابن بهادر : فتوح النصر لوحـة ٣١ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٤ ، تاج الدين شاهنشاه : منتخبات من كتاب التاريخ ص ٣٠٣ . القاضى الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ١ ص ٣٤٠ ، ومن المراجـع الاجنبية انظر الآتى :

Eracles, Cf. R. H. C. – H. Occ., t. II, p. 19.; Ambroise, The Crusade of Richard, p.335, Rapin, History of England, p, 252 Cf. also Campell, op. cit., p. 3 2; De laville le Roulx, les Hospitaliers en Terre Sainte p. 133.

ورغم أن المصادر والمراجع من عربية وغير عربية قد أجمعت على أن اقتل المركيز كان على أيدى الفداوية ، إلا أنها اختلفت حول شخص المحرض على إقتراف هذه الجريمة . فيرى البعض أن عملية الاغتيال لم تتم بتأثير خارجى على شيخ الجبل وإنما نفذت بمحض إرادته كنتيجة للعداء القديم المستحكم بين الرجلين . ذلك أنه فى أحد الأيام دفعت الرياح إحدى المراكب التجارية التى يمتلكها شيخ الجبل والتى كانت تحمل بضائع ثمينة خاصة به عن مسارها وأجبرتها على الرسو على الشاطىء الصورى ، فاستولى عليها كونراد وسلب كل مايوجد بها من بضائع وكنوز وقتل رئيسها ورفض رد الحمولة إلى الاسماعيلية ، بل لم يعرهم هو وزعيمهم أى اهتمام (١) . ولما رجع هؤلاء التجار إلى شيخ الجبل سنان وقصوا عليه ماحدث أمر بإيفاد رسله إلى المركيز كونراد يطالبونه بتسليم باقى رجاله الذين كانوا بالمركب وإعادة كل البضائع التى استولى عليها مع دفع التعويض اللازم . ولكن المركيز لم يهتم لطلب الرسل ، فعاد سنان وبعث رسولا آخر اسمه إدريس ولم يعره كونراد أى اهتمام بل كاد أن يلقى به فى البحر ، مما أضطره لعودة سريعة إلى سيده ليبنبأه بسوء المعاملة التى لقيها من المركيز . وعند ذلك قرر شيخ الجبل اغتياله إنتقاما لما جدث منه (٢) . ويضيف الكاتب الانجليزي هارولد لامب H. Lamb أنه من بين الاسباب التى دفعت سنان فى التفكير فى التخلص من كونراد دى مونتفرات أنه شعر بالمخطط الذى يهدف اليه الحاكم الصليبي من أجل امتلاك

---

(١) Eracles, op. cit., p. 191, Roger of Wondover, op. cit., t. II, p. 192, Cf. Maimbourg, Histoir des Croisades, t II, p. 295, Davis, A History of England, t II, p. 308.

(٢) Eracles, op. cit., pp. 182 - 193.

كل من بيروت وطرابلس ، مما يعرض حصون الحشيشية وقلاعهم للخطـر الشديد لقربها من مينائى هذين البلدين (١) .

أما المصادر العربية المعاصرة للفترة موضوع البحث والمتأخرة عنها زمنيا من أمثال العماد الاصفهانى وابن شداد وبدر الدين العينى فترى أن الملك رتشارد قلب الأسد هو الذى حرض راشد الدين سنان لإغتيال المركيز الفرنسى وذلك بسبب العداوة التى بينهما . واستندوا فى ذلك إلى الاتهام الذى وجهه الامبراطور الالمانى هنرى للملك رشارد بتدبيره مؤامرة لاغتياله (٢).

وأما بن الأثير فقد انفرد برأي فى شأن هذه الجريمه دون باقى المؤرخين، إذ أتهم صلاح الدين الايوبى بأنه هو الذى أرسل إلى سنان طالبا منه قتل كل من الملك رتشارد وكونراد دى مونتفرات مقابل منحة عشرة آلاف دينار . ولما فكر سنان فى هذه الصفقة انتهى به الأمر باغتيال الامير الفرنسى فقط لأنه وجد فى وفاة الملك الانجليزى ضررا على الدولة الحشيشية إذ سيخلو الجو لصلاح الدين بعد التخلص من هذين الزعيمين الصليبيين ويتفرغ لمناولة الحشيشية أنفسهم (٣) .

ويبدو أن ابن الأثير قد بعد عن الحقيقة فى هذا الاتهام وليس ذلك راجعا

---

(١) Lamb, op. cit., p. 114.

(٢) عماد الاصفهانى: الفتح القسى ص٥٨٩ ، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٠٢ ، العينى : عقد الجمان جـ ١ لوحة ١٤٢ انظر أيضا :
Rapin op. cit., p. 52.

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ٢٧ .

لمخالفته بقية المؤرخين المعاصرين له والمتأخرين عنه فحسب ، بل لأن ذلك يتنافى مع سياسة صلاح الدين واخلاقه . لأنه لو كان من خلقه الغدر والخيانة لكان قد استخدمها في التخلص من أمراء الموصل والشام الذين كانو حجر عثرة في طريق الوحدة الاسلامية التي كان يهدف اليها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لما كنا علمنا باطلاقه سراح أولئك الافرنج الذين كانو يقعون في أسره من وقت لآخر وهم أشد الناس عداء له . هذا بالإضافة إلى ما أشارت اليه المراجع من أن صلاح الدين لم يسر لهذا القتل لأن وجود العداء بين كونراد والملك الإنجليزي كان يعمل على أضعاف الصليبيين وتفكك قوام الامر الذي يسهل عليه توجيه ضربة قوية مؤثرة إلى الفرنجة ومعاقلهم في الأراضي المقدسة . وفي نفس الوقت كان سيتيح الفرصة للسلطان باستغلال هذا العداء لصالح القضية الاسلامية وقتها. أما وقد وقع ما وقع فقد ترتب على إغتيال المركيز توحيد كلمة الصليبيين ، ولم يكن هذا في مصلحة صلاح الدين والمسلمين(١).

ثمة رأى آخر يعبر عن الأحداث من وجهة النظر الاسماعيلية ، وهو أنه لما نمى إلى علم سنان ان الملك الصليبي يخطط من أجل الهجوم على صلاح الدين في حملة كبيرة ، رأى أن هذا سيعمل على ارباك صفوف الفرنج فأرسل اثنين من فداويه لإغتياله وارسال رأسه إلى السلطان (٢) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٨٦ انظر ايضا :
Sotton, op cit., t. I, p. 126.

(٢) أبو فراس : فصل من مناقب اللفظ الشريف ص ٤٦٣ ، راجع كذلك :
Guyard, op. cit., p. 371.

وفى ضوء مختلف الاراء المذكورة فى شأن هذه الجريمة وفى ضوء التسلسل الطبيعى للاحداث وطبيعة العلاقة بين سنان وكونراد ، يحتمل أن تكون الأعمال الاستفزازية التى تعرض لها سنان من قبل كونراد هى التى جعلته يفكر فى التخلص منه وارسال فداويته لاغتياله . ولا يستبعد أيضا أن مما عجل بتنفيذ هذه العملية ما نمى إلى علمه باستعداد المركيز للهجوم الشامل على السلطان صلاح الدين ، إذ وجد أن واجبه يملى عليه الحفاظ على صداقته للسلطان طبقا للمعاهدة المبرمة بينهما وقتذاك . أما بشأن اتهام الملك رتشارد بانه المحرض على إغتيال كونراد ، فاننا نستبعد هذا الرأى . ولعل ذلك يتضح عندما نطلع على فحوى الخطاب الموجه من شيخ الجبل بالشام إلى الدوق ليوبولد صاحب النمسا والذى حفظه لنا المؤرخ روجر أوف وندوفر (١) . إذ مرمان ما توجه الملك رتشارد إلى شيخ الجبل عقب معرفته باتهام الإمبراطور هنرى له . وطلب منه الكتابه اليه أو إلى صاحب النمسا ليثبت فيه براته من عملية اغتيال كونراد المنسوبة اليه . وبالفعل استجاب الشيخ الاسماعيلى لرجاء الملك الإنجليزى فأرسل الى صاحب النمسا ينفى التهمة عن رتشارد حيث يقول فى رسالته الية « من شيخ الجبل الى ليوبولد دوق النمسا . » بعد التحية، رغم أن كثيرا من الملوك والأمراء فيما وراء البحر قد اتهموا الملك رتشارد قلب الأسد بقتل المركيز ، الا أننى اقسم بالله وبالقانون أنه ليس هناك لوم يمكن توجيهه اليه فى حادثة موت المركيز ، وأعلن قتله كان للسبب الآتى : أبحر أحد رجالنا فى مركب متجها الى بلادنا، ولكن عاصفة عاتية قادته الى صور ، وقبض عليه

---

(١) Mattew of Westminstre, Flowers of History, t. II, p. 64, Roger of Wendover, op. cit., t. II, p. 129, Cf. Conder, op. cit., p. 284.

المركيز وسجنه ثم قتله ، واستولى على كل الأموال التى سلبها وتعويضاً عن هذه الحادثة وتلك الخسارة ، ولكنه أهان رسلنا وأتهم رينو صاحب صيدا بقتل المبعوث الاسماعيلى . ومع ذلك استطعنا أن نقف على الحقيقة من أصدقائنا ، وتتلخص فى أن المركيز نفسه هو المسئول عما حدث . وقد بعثنا اليه مرة أخرى رسولا يدعى ادريس ، ولكن المركيز كاد أن يلقى به فى البحر ، فعجل أصدقاؤنا بترحيله من صور قبل أن يجهز عليه المركيز ، وعندما عاد ذكر لنا ما حدث ، ومنذ تلك اللحظة كانت رغبتنا فى موته . وبناء على ذلك أرسلنا اثنين من فداويتنا الى صور حيث اغتالوه علنا أمام أعين سكان المدينة . وها نحن قد ذكرنا الحقيقة ونؤكد لاد خل للملك رتشارد فى هذا الموضوع فانه ظلم بدون سبب . ولتكن متأكدا بأننا لا نقوم باغتيال أى رجل بقصد مكافأة أو طمعا فى مبلغ من المال ، وانما من أجل القصاص فحسب » .

ويبدو ان سنان كتب هذا الخطاب فى الوقت الذى بعث فيه خطابا آخر الى جميع ملوك اوروبا يختلف فى صيغته عن الخطاب سالف الذكر ، وذلك من اجل اثبات براءة الملك رتشارد فى قضية مقتل كونراد . وقد اثبت المؤرخ الفرنسى ميشو نص هذا الخطاب (١) ، وهو « من شيخ الجبل الى جميع الملوك والى الشعب المسيحى ... بعد التحية ... اننا لا نرغب فى اى سوء اليه (٢) ابراءته وإننا لا نسمح بأن يحاسب البرىء عن ذنب الآخرين ويوضع موضع الشبهه والاتهام بسبب عمل فعلناه نحن ، وانى اشاهد على ما

---

(١) Michaud, op. cit., t III, pp 434 - 435.

(٢) المقصود بذلك الملك رتشارد قلب الأسد .

أقول يحدونى الأمل فى انقاذ نفسى لأن قتل المركيز لم يكن مكيدة مدبرة منه بل قتل بمحض ارادتنا وبواسطة إتباعنا ، لانه قد أساء الينا رغم تحذيره ، ولم يعمل على ترضيتنا رغم مطالبته بذلك . كما نحيطكم علماً بأنه ليس من شيمتنا اغتيال أعدائنا أو أعداء أصدقائنا إلا بعد تحذيرهم ولقد نمى الى علمنا بأنه قيل أن الملك قد استخدم فداويتنا فى محاولة لاغتيال الملك الفرنسي أيضاً . وهنا أوكد بأن هذا كذب وافتراء والله شاهد لنا على ذلك ، كما أن أمانتنا لاتسمح بعمل أى شىء شرير ضد أى شخص لا يستحق ذلك »

واضح اذن من هــــذين الخطابين براءة الملك رتشـــارد من دم المركيز كونراد . كما يلاحظ وجود علاقة متينة بين شيخ الجبل والملك الانجليزى فى هذا الوقت بالذات مما دفعه إلى أن يعلن أمام عامة الناس والملوك والأمراء فى الغرب الأوروبى ، وفى جرأة مطلقة مسئوليته عن قتل هذا الأمير الفـرنسى وذلك دون أى رهبة من انتقام الصليبيين .

ومهما يكن من شىء فقد كانت خسارة الصليبيين بالشام بفقـد كونراد بعد مقتل ريموند الثانى خسارة فادحة لانه كان الرجـل الذى يستطيع أن يرعى حقوقهم ويدافع عن كيانهم (١) . ولقد تم تتويج هنرى صاحب شامبانيا ملكا اسميا على بيت المقدس خلفاً لكونراد وذلك بعد زواجه من ايزابيـلا أرملة سلفة (٢) . والواقع انه لم يسدل الستار على سياسة الاغتيال التى كانت الحشيشية تنتهجها حيال الصليبيين بمقتل كونراد ، وانما ظل الصليبيون يعانون

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٨٥ .

(٢) Miche, le Syrien, Cf. R. H. C - Doc. Arm., t. I, p. 403, Cf. Archer and Kingsford, The Crusades, p. 341.

منها طوال القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) فمثلا أرسل شيخ الجبل فى سورية بعض من فداويته لإغتيال الأمير ريموند بن بوهيموند الرابع صاحب انطاكية وطرابلس ، وكان عمره حينذاك ثمانية عشر عاما ، فتربصوا له ووثبوا عليه فى كنيسة طورطوسا سنة ١٢١٣م / ٦١٠ هـ وقتلوه(١) ورغم أن المصادر لم تشر إلى السبب الذى من أجله عمد الحشيشية إلى اغتياله، الا أنه يبدو أن لفرسان المعبد يد فى التحريض على مقتله لما يكنونه من عداء لابيه بوهيموند (٢) . ولقد اهتز الصليبيون لتلك الجريمة وقرروا الانتقام من الاسماعيلية فشنوا هجوما عنيفا على بلادهم سنة ١٢١٤ م/٦١١هـ، وحاصروا قلعه الخوابى ، فاستغاث الاسماعيليه حينذاك بالظاهر « ملك حلب » الذى خرج فى عساكره متوجها لفك هذا الحصار ، وأنذر الصليبيين بأنه لن يمكنهم من ضرب الاسماعيليه والاضرار بهم . وأرسل لهم جيشاً كبيرا فضلا عن فرقة أخرى بعث بها لمضايقة الفرنجة من جهة اللاذقية الامر الذى أدى إلى فزعهم ، فأضطروا إلى فك الحصار عن المدينه والانسحاب والتصالح معهم (٣) .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٥ ص ١٣١ انظر ايضا :
Hethoum, Comt de Goriges, Cf. R. H. C. - Doc. Arm, t. I, p 482.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٣٤، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٧٩ ومن المراجع الاجنبية انظر الآتى :

Defrémery, op. cit., p. 40, Setton, op. cit., t. I, p. 128, Grousset, op. cit., t. III, p. 196.

ويبدو أن النزاع الذى كان قائماً بين الشيعة والسنة قد خفت حدته فى هذا الوقت بالشكل الذى جعل الملك الظاهر السنى المذهب يدفع بقواته ضد الصليبيين من أجل انقاذ الاسماعيلية. ولاشك أن الملك الظاهر عندما ساعد هذه الطائفة فى محنتها إنما كان يستهدف إمكان استخدام خناجر الفداويه ضد أعدائه الصليبيين، فضلا عن السيطرة عليهم مما يسهل له مهمة توجيه ضربة قوية الى الفرنج بالشام من ناحية، وأضعاف اسماعيلية الشام توطئة للقضاء عليهم من ناحية أخرى

وإذا كان كل من ريموند الثانى وكونراد ردى منفرات قد ذهب ضحية خناجر الفداوية كذلك لم ينج من خناجرهم فيليب دى مونفورت صاحب صور. اذ تنكر اثنان منهم فى زى عاربى الثوب واتجها الى صور وطلبا التعميد فاستقبلهم فيليب وأدخل أحدهما فى خدمته (١). وفى يوم الاحد الموافق الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٨ هـ/ السابع عشر من أغسطس سنة ١٢٧٠ م بينما كان الكونت فيليب متواجدا فى كنيسته تقدم أمامه أحد الفداوية، وفى اللحظة التى كان يسلم فيها نقودا من أجل تقديم القرابين وثب عليه هذا الفداوى وضربه بخنجره المسموم ثم القى بنفسه على ابنه جان الذى كان يصلى فى مكان قريب قاصدا قتله، ولكنه تنبه لهذا واستطاع الفرار، فخرج الفداوى وراءه للحاق به وفى هذه اللحظة استطاع فيليب بصعوبة بالغة الخروج من الكنيسة طالبا النجدة لانقاذ ابنه، وقد نجحت محاولته، إذ تم القبض على الفداوى وقتله. أما فيليب فقد فارق الحياة فى حينه(٢). وحاول

(١) Rohricht, op. cit., p. 128.

(٢) Chronique de Terre Sainte, Les Gestes, Cf. R. H. C. - Doc. Arm., t. II, p. 775, Annales de Terre Sainte, Cf: A.O. L, t. II, p. 454, Cf. also Grousset, op. cit., p. t. III 345.

الاسماعيلية ايضاقتل الملك ادوارد الاول ملك انجلترا الذى وصل الى عكاسنة ١٢٧١م/٦٦٩ هـ بقصد الاستيلاء على مصر والقسطنطينية لتأمين صليبيين فى الشام ولما شعر الحشيشية بخطورة هذه الخطوة أرسل شيخ الجبل بسورية أحد فداويته متنكرا فى زى راهب وتنصر ثم دخل فى خدمة الملك ، وأخذ يترقب الفرصة المناسبة من اجل الوثوب عليه وإغتياله . وفى يونيو ١٢٧٢ م/ ذى القعدة سنة ٦٧٠ هـ دخل عليه الفداوى محاولا قتله اثناء تسلمه احد الخطابات منه . وكان الملك حريصا إذ استطاع مقاومته واسقاط الخنجر من يده على الارض ولكن بعدما اصيب بثلاث طعنات فى ذراعه . وقامت بينهما معركة شديدة استطاع الملك خلالها الايقاع به على الارض وقتله ([1]) . ونظرا لخطورة الجراح التى اصابت ذراعه فقد قامت زوجته بمص السم من من ذراعه حتى لايسرى فى جسده ، وبعد اربعة عشر يوما شفى الملك من جراحة ([2]) .

وهكذا ظلت خناجر الفداويه تعمل فى صدور كل من المسلمين الصليبيين ليس فقط خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، بل طوال الوجود الصليبى فى الاراضى المقدسة

ولم تكن خناجر الفداوية فقط هى حلقة الوصل بينهم وبين الصليبيين ، وانما كان هناك نوع آخر من الاتصالات التى تمت بينهما بعيدة عن أسلوب

---

(١) Hethoum, Cf. R. H. C. – Doc. Arm., t. I, p. 54?; Cf. Rapine, op. cit., p. 345.

(٢) Rohricht, op. cit., p. 464, Cf. Archer and Kingsford, op cit., p. 406.

الغدر والاغتيال . وهى تتمثل فى سياسة التحالف معهم والتقارب منهم تحقيقا لمصالحهما المشتركة وجدير بالذكر فى هـذا المقام ان المصادر الاسلامية والصليبية المعاصرة للفترة موضوع البحث والمتأخرة عنها زمنيا ضنت علينا بكثير من الحقائق والمعلومات المتعلقة بطبيعة الاتصالات التى جرت بين الصليبيين من ناحية ، واسماعيلية الشام من ناحية أخرى . فلم نعثر الا على النذر اليسير من المعلومات التى تخص هـذه الفترة الهامة الغامضة فى تاريخ العلاقات الصليبية الاسماعيلية . وهـذه المعلومات مبعثرة هنا وهناك فى شتى المصادر والمراجع ، وهى لا تشفى غليل الباحث [١]. ولانجد لذلك تفسيرا مقبولا اللهم الا القول بأن اسماعيلية الشام لانوجد لهم بصفة عامة كتب مستقلة على غرار الحوليات التى سجلها مؤرخو المسلمين السنيين فى مصر وفى غيرها من البلدان الاسلامية . وليس لنا أن نتوقع معلومات مفصلة فى تآليف المؤرخين السنيين عن هذه الاحداث التى أشرنا اليها لما كان بينهم وبين الشيعة من تناحر وعداء، ولانهم كانوا ينظرون إلى هـذه الفرق الشيعية ومنها فداوية الشام نظرة ريبة وتوجس كما اسلفنا . ولعل هذه الاتصالات والسفارات التى قامت بين الصليبيين واسماعيلية الشام قد تمت بطريقة شفوية دون وثائق مدونة حرصا على سريتها حتى لاتقع فى أيدى السنيين فيتفضح الاسماعيلية ويتعرف السنيون على حقيقة أمرهم وتفاصيل خططهم فيتخذون الحيطة من جانبهم ويستعدون لمواجهة كافة الاحتمالات المتوقعة .

على اية حال ، كان من أهم مظاهر الاتصال الذى تم بين الصليبيين واسماعيلية الشام تعاونهما معا للوقوف ضـد قوة نور الدين محمود [٢]. فـلم يكتفيا

---

(١) Setton, op. cit., t. I, p. 119.

(٢) Treece, op. cit., p. 141.

انسحاب الصليبيين من الشام عقب فشلهم فى الحملة الصليبية الثانية التى قام بها الغرب لاستعادة الرها من المسلمين حتى جمع ريموند دى بواتية صاحب انطاكية جيشه واستعد لمحاصرة حلب سنة ١١٤٩م / ٥٤٤ هـ لتحقيق هدفه فى الاستيلاء عليها . وهو الهدف الذى استحث ريموند قواد الحملة الصليبية الثانية لتحقيقه ، ولكنهم لم يستجيبوا اليه (١) ولقد قام ريموند بالاتصال بعلى بن ابى الوفا الكردى رئيس الحشيشية بالشام ليكونا عونا له فى حربه ضد المسلمين ، فوافق على ذلك لما كان بينه وبين نور الدين محمود من عداء وكراهية شديدين يفوقان مايكنه للمسيحيين انفسهم (٢). ولما علم الزعيم المسلم بخطة ريموند فى محاصرة المدينة جمع قواه واستعد لمقاتلته قبل أن يبدأ هو بالهجوم . فدارت بينهما معركة شديدة فى مكان يعرف باسم « يغرى » إلى الشمال الشرقى من بحيرة العمق ، كان النصر فيها لنور الدين . ثم توجه نحو حصن أنب الواقع على الضفة الشرقية لنهر العاصى والذى ظل تحت ايدى الصليبيين مدة طويلة . وعندما علم ريموند بذلك أصر على الخروج على رأس قوة من رجاله تدعمها جماعة من حلفائه الحشيشية بزعامة على بن ابى الوفا . ولما كان جيش المسلمين الذى يبلغ عدده ستة آلاف فارس يفوق فى العدد جيش الصليبيين الذى كان يتألف من أربعة آلاف فارس والف راجل ، فقد أشار عليه زعيم الاسماعيلية بالبقاء حيث هو نظرا لقلة الامكانيات . ولكن هذه المشورة لم تلق اذنا صاغية من قبل القائد الصليبى . ولم ينتظر وصول الامدادات الصليبية التى سبق ان طلبها ،

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٣٦ .

(٢) Runciman, op. cit., t. II, p. 32 , Setton. op. cit., t. I, p. 15.

وتحرك بقواته نحـــو حصن انب . وتمكن نور الدين من حصار الجيش الصليبي ، وادرك ريموند حينذاك ومن معه من الحشيشية أنه لاسبيل لهم في النجاة إلا باقتحام صفوف المسلمين ، ولكن طبيعة الارض حالت دون ذلك . فبينما كان الفرسان الصليبيون يحثون خيولهم لترتقي المنحدرات هبت رياح شديدة وامتلأت اعينهم بالرمل . ولم تمض ساعات الا وكان الجيش الصليبي قد تعرض للفتك والدمار . وقتل في هذه المعركة علي بن أبو الوفا الكردي زعيم الاسماعيلية بالشام مع عدد كبير من اتباعه أما ريموند فكان مصيره القتل هو الآخر ، ولكن على يد أسد الدين شيركوه الذى أرسل رأسه فى صندوق من الفضه هديه إلى الخليفة العباس فى بغداد (١).

وليس هناك من شك فى أن الاسماعيلية كانوا يترقبون الفرصة المناسبة من أجل الحاق الهزيمة بالمسلمين السنيين والقضاء على مذهبهم . وفى نفس الوقت كانوا يسعون إلى تقوية صلتهم بالصليبيين فى المنطقة من أجل الوقوف معا ضد عـــدوهما المشترك المتمثل فى السنيين . ولذا لم يتردد على بن أبى الوفا فى الاستجابة لنـــداء الصليبيين ، لانه رأى فى ذلك تحقيقا لسياسة الاسماعيلية وأطماعهـا .

وكان هناك نوع آخر من التقارب بين الحشيشية فى عهد شيخ الجبل راشد الدين سنان وبين الملك الصليبي عمورى الاول ملك بيت المقدس . إذا راد سنان أن يتخذ سياسة جديدة فى تقربه للصليبيين تحقيقا لمصالحـه واطماعه (٢). فى

---

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٧٩ ـ ٨١ انظر أيضا :
Michel le Syrien, Cf. R. H. C.- Doc. Arm., t. II, p. 287, Cf. also Runciman, op. cit., t, II, pp. 325 - 326 .

(٢) انظر الملحق الثالث بآخر الكتاب

سنة ١١٧٢م / ٥٦٩ ﻫ أوفد أحد رسله إلى الملك عمورى يعرض عليه التحالف بين جماعة الحشيشية والصليبيين لمناهضة سياسة نور الدين محمود في الشام . كما اشار عليه بأنه سيسرع هو اتباعه بالتعميد واعتناق الديانـة المسيحية إذا امتنع فرسان المعبد عن أخذ الجزية السنوية التى سبق أن فرضوها على بعض القرى المملوكة له مع صرف النظر عنها تماما (١).

ورغم أن هـذه الحادثة قد رواها أحد مؤرخى الحروب الصليبية القدامى وهو وليم الصورى والذى كان فى خدمة الملك الصليبى آنذاك ، إلا أنه يجب تقبلها بشيء من الحذر لاكثر من سبب . أولا لانه ليس من المستبعد أن يكون الأمر مدسوسا عن عمد من جانب المؤرخ اللاتينى من أجل التقليل من شأن طائفة الاسماعيلية بوجه خاص والاسلام بعامة ، الامر الذى يبرز المسلمين فى صورة الضعفاء المنقسمين سياسيا ومذهبيا . وثانيا لانه ليس من المعقول أن يعرض سنان على الملك اللاتينى أن يدخـل فى المسيحية هو واتباعه ثمنا لهـــذا التحالف المقترح وأملا فى اعفائه من الجزية السنوية التي كان يدفعها

---

(١) Guillaume de Tyr, op. cit., p. 996, Cf. Runciman, op. cit., t. II, p. 397.

راجع أيضا السيد عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا ص ١١٢ . وقد حدث شيء شبيه بذلك قبل سنة ١٢٣٢ م / ٦٢٩ ﻫ بعدة سنوات اذ رغبت الحشيشية فى أن يصبحو مطيعين لكنيسة روما ، ولهذا أوفد أحد رسلهم الى عكا بحيث حدثت مفاوضات بينهم وبين الصليبيين فى هذا الشأن . ولكن الرسول قتل فى ظروف غامضة وهو فى طريق عودته الى بلاده انظر :

Burchard, Description of the Holy Land, Cf. Palestine Pilgrims Text Society, p. 105.

لجماعة الفرسان الداوية . ولو أنه يجب أن ندخل فى الاعتبار بأن سياسة الدهاء والمواجهة التى لجـأ اليها الحشيشية حيال الخصوم والاصدقاء كانت تدفعهم أحيانا إلى عرض رغبتهم على الفرنج بالشام باعتناق المسيحية (١). وفى ضوء ما تقدم يكونُ الامر مقتصرا على طلب سنان الغاء الجزية المفروضة على اتباعه مقابل تحالفه مع الصليبيين . ومما يعزز هذا الاحتمال أن الحادثة المشار اليها لم يرد ذكرها في أى من المصادر العربية السنية . وبطبيعة الحال لو كانت هذه الواقعة صحيحة لكانت المصادر السنية أولى بالاشارة اليها لاتخـاذها ذريعة للتشهير بهذه الطائفة الشيعية والنكاية بها ، فتكون نقطة سوداء فى تاريخها .

ومهما يكن من أمر ، فقد استقبل الملك عمورى رسول شيخ الجبل بكل ارتياح وسرور ورحب به وباقتراحه ، وابدى استعداده بدفع قيمة الجزيـة من حسابه الخاص إلى فرسان المعبد ترضية للطرفين . ولعل الدافع الذى جعله يتحمل هذا العبء هو ادراكه أن الصليبيين يمرون باشد الاوقات حرجا كما ايقن أن هذه الطائفة بنظمها السرية المحكمة وخبرتها التامة باوضاع البلدان الإسلامية المجاورة وحكامها يمكن أن تـكون ذات فائـدة عظيمة بالنسبة للصليبيين ولذلك كتب إلى فرسان المعبد يطلب اليهم قبول هذا العرض .

وبعد انتهاء مباحثاته مع المبعوث الاسماعيلى ارسل معه أحد رسـله ليكون عونـا له فى الطريق (٢). ولـكن حدث شىء خطير لم يـكن فى حسبان الملك عمورى توترت بسببه العلاقات بينه وبين شيخ الجبل راشد الدين سنان .ذلك

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٤٢

(٢) Besant, The History of Jerusalem, p. 357, Archer and Kingsford, op. cit., pp. 245 - 246 .

أن فرسان المعبد عندما ادركوا أن موافقتهم على أعفاء الاسماعيلية من دفع الجزية سينقص من مواردهم المالية الثابتة خاصة وانهم كانوا يشكون فى وعد الملك الصليبي بدفع المبلغ المفروض على الحشيشية من جيبه الخاص بدلا منهم ، قاموا بتدبير كمين من أجل التخلص من رسول شيخ الجبل . وكان هدفهم أن يكون لهذه الحادثة أثرها السيء فى تطور العلاقات بين الاسماعيلية والملك عمورى. ولهذا حرضوا أحد كبار فرسانهم ويسمى والتردى ميسنيل Walter de Maisnil بارساله رجاله لذبح رسول سنان . وبالفعل ارسل اثنين من نبلائه هما سيهردى ما مندون Seiher de Mam - endon وجود تشالك دى توروت Godescha de Tor ut ، وانتظراه بالقرب من طرابلس عند مدخل بلاد الاسماعيلية وهجما عليه بالسيوف وذبحاه [1].

ويدلى أحد الكتاب الغربيين المحدثين وهو بيزانت Besant بدلوه فى هذا الموضوع . إذ يقول أن فرسان المعبد كانوا دائما شديدى الطموح والرغبة فى انهيار الملكية واضعاف باروناتها ، مما يسهل عليهم السيطرة على المزيد من القلاع والحصون الأمر الذى يقوى من نفوذهم ويزيد من مواردهم. ويستطرد أنه إذا مات الملك عمورى وتولى ابنه الابرص خلفا له ، يبدأ عند ذلك هؤلاء الفرسان فى السيطرة على المملكة وتحقيق اطماعهم . ولما كان تحالف الملك الصليبي مع الحشيشية يعنى تدعيم اركان الملكية فقد عملوا على أن تسوء العلاقات

---

(١) Guillaume de Tyre, op. cit., p, 996, Roger of Wondover, op. cit., t. II, p. 504. Cf. also L'Abbé de vertot, Histoir de L'ordre de Chevalier, t. I, pp 190 - 191.

بينهما من طريق قتل هذا الرسول (١). وهم بهذا التصرف أنما يحققون أكثر من غرض فى آن واحد . ويبدو أن هذا الرأى قد بعد عن الواقع ، لان فرسان المعبد فى هذا الوقت كانوا قوة لها وزنها ويخشى بأسها ، ولم تكن بحاجة إلى الانتظار سنوات طويلة غير معروف مداها تنتهى بموت الملك عموري حتى يبدأوا فى تدعيم مركزهم وسيطرتهم على المملكة الصليبية . وبناء على ذلك فالرأى المقبول فى هذا الشأن هو انهم أرادوا باغتيال الرسول الاسماعيلي أن يعبروا عن عدم موافقتهم على عرض الملك الصليبي، وأن يشعروا الحشيشية فى نفس الوقت بأنهم إذا ما فكروا فى اعادة هذا العرض سوف يلاقون نفس المصير ، ومعنى هذا أيضا انهم كانوا يصرون على أن يستمر الاسماعيلية فى دفع الجزية اليهم تعبيرا عن نوع من الخضوع والتبعية . فضلا عن رغبتهم فى توتر العلاقات بين الملك الصليبي وهذه الجماعة حتى لا يتعرضوا لأدنى خطر من جانب كل منهما . وحتى لو ضمن فرسان المعبد وفاء الملك عمورى بوعده فى دفع الجزيه لهم بدلا من الاسماعيلية ، فانهم لن يضمنوا أخذها من الملوك الآخرين بعد وفاته . كما أن الوضع يختلف فى نظرهم بين أخذ هذه الجزية من الاسماعيلية أنفسهم وبين تحصيلها من الملك الفرنجى ، لأنه فى الحالة الأولى سيظهرهم أمام العالم بأنهم ـ أى الحشيشية واقعين تحت تأثير وسيطرة فرسان المعبد الذين لايخشونهم ولا يرهبون جانبهم وهذا ما يرفع من شأنهم ويعمل على تثبيت أقدامهم والتهوين من شأن الاسماعيلية .

على أية حال ، لقد أصاب الملك عمورى نوبه من الحزن والهياج الشديدين لما حدث وتولاه القلق واستبدت به الحيرة فيما يجب اتخاذه فى هذا السبيل ، فدعا باروناته وقص عليهم ما حدث ، واختار اثنين منهم للتوجه إلى زعيم

(١) Besant, op. cit., p. 358.

فرسان المعبد المسمى أودودى سانت آماند و Odo de Saint - Amando يطلبون منه باسم الملك وباسم مملكة بيت المقدس تسليم المدبر لهذه الجريمة وهو والتردى مسنيل Walter do de Meisnil حتى ينال عقابه . وهنا ظهر كبرياء فرسان المعبد ، حيث رد زعيمهم على رسول الملك بشكل ازدراء مبينا أن الحكم على الجانى بالاعدام هو من سلطة البابا فحسب ، ولذا سوف يرسل اليه للبث فى أمره (١). ولكن هذا الرد اثار الملك الصلبي وزاد من سخطة ، فتوجه بنفسه على رأس قوة إلى صيدا التى كان بها مقدم الداوية ، وتمكن من القبض على الرجل المتهم بتدبير عملية القتل ثم القاه فى سجن صور تمهيدا لمحاكمته . وارسل فى نفس الوقت إلى سنان يعتذر له عما حدث ويطلعه على حقيقة الأمر ، ونجح فى اقناعه ببراءته . ولكن رغبة سنان فى تحالفه مع الصليبيين كانت قد تضاءلت ، وهبط حماسة اثر هذا الحادث ، وفقد كل أمل لتعاونه معهم على الأقل فى ذلك الوقت (٢). وهكذا نجح الداوية فى توجيه ضربتهم القاصمة إلى الملكية الفرنجية فى الأرض المقدسة نتيجة لفعلتهم هذه .

ولاغرو ان هذا الشرخ الذى حدث فى جدار العلاقات الصليبية الاسماعيلية كان فى صالح الجانب السنى رغم عدم تعرض المصادر المختلفة له . إذ أتاح لهم فرصة العمل على الافادة منها من أجل أكمال وحدة الصف الاسلامى بتحقيق اتحاد المسلمين من سنة وشيعة والوقوف معا ضد الصليبيين الدخلاء أو على الاقل ضمان الجانب السنى حياد اسماعيلية الشام فى فترة الاعداد للمعركة الحاسمة التى

---

(١) Guillaume de Tyre, op. cit., p 996, Cf. Treece, op. cit., p. 145, L'Abbé de vertot, op. cit., t. I, pp. 190 - 191 .

(٢) Defrémery, op. cit. p. 13, Besant, p. cit., p. 368, Campbell, op cit , p. 240 .

كان بقاهب لخوضها ضد الصليبيين ، وحتى تكون كل امكانيـــات المسلمين للمعركة دون ان يشغلهم غدر خناجر القداوية ، وحتى لا تكون هذه الطائفة عائقا دون استكمال مراحل الافاقة الاسلامية .

ومن الغريب انه رغم العداء الذى يكنه الاسماعيلية لفرسان المعبد فى هذا الوقت الا انهم قد وافقوا على مشروع التحالف الذى عرضه عليهم الداوية فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى (أوائل القرن السابع الهجرى) للوقوف معا ضد أى عدو يهددهما (١) . وهنا نجد تطبيقا عمليا واضحا لسياسة الحشيشية تجاه الصليبيين . فتراهم سرعان ما يتناسون عداءهم للداوية ويتحدون معهم ، لانهم وجدوا فى ذلك خير مصلحة لهم .

ويبدو ان ظاهرة دراسة الديانة المسيحية لدى شيوخ الجبل فى سورية كانت طريقا يزيد من تقربهم للمسيحيين تحقيقا لمصالحهم وأغراضهم أو وسيلة يتخذون منها مخرجا لتحقيق تلك المصالح والاغراض. وآية ذلك ما ذكره المؤرخ جان دى جوانفيل فى كتابه عن سيرة لويس التاسع من ان الراهب الدومينيكانى ايف لبرتسون Yves le Berton الذى أوفده الملك الفرنسي إلى شيخ الجبل بالشام سنة ١٢٥٠ م / ٦٤٩ هـ (٢) لتقديم الهدايا الثمينة اليه والتفاهم معه ، قد وجد عند مقدمة فراشه كتابا يتضمن عبارات كثيرة موجهة من عيسى بن

---

(١) La Croix, La Chevalerie et les Croisades, p. 228.

(٢) لم يستدل على اسم شيخ الجبـل الذى كان معاصرا لفترة الملك لويس التاسع ، ولكن يرجح أن يكون من خلف شيخ الجبل أبو الفتوح الذى حكم من سنة ١٢٣٩ حتى سنة ١٢٤٩ م (٦٣٧ ـ ٦٤٦ هـ) وسيلى تفصيل لهذا فيما بعد عند التعرض لعلاقة هذا الشيخ بالملك لويس التاسع .

مريم ـ عندما كان على الارض ـ إلى القديس بطرس. ويذكر جرانفيل ان ايف علم من الشيخ الاسماعيلى حبه الشديد للقديس بطرس لاعتقاده انه فى بداية العالم قد حلت روح هابيل ـ بعد قتله ـ فى جسد نوح ، فلما مات انتقلت الى ابراهيم ثم حلت بعد موته فى جسد القديس بطرس (١) . وليس من المستبعد أن تكون هذه المناقشات بين شيخ الجبل ورسول الملك الفرنسى قد حدثت بالفعل خاصة إذا عرفنا ان الاسماعيليه يؤمنون بالتناسخ (١) .

وعلى آية حال ، لم تقتصر الاتصالات التى قامت بين الحشيشية والصليبيين على تبادل الرسل فحسب كما حدث فى عهد الملك عمورى الاول بل تعدته إلى حد زيارة هنرى صاحب شامبانيا وملك بيت المقدس الاراضى الاسماعيلية (٢) . وقد تمت هذه الزيارة سنة ١١٩٧ م / ٥٩٣ هـ بعد تتويجه ملكا آسميا على بيت المقدس . فعندما كان متجها فى أحد الايام إلى ارمينية الصغرى لتصفية بعض المشاكل الناشئة بينها وبين انطاكية ، مر بأراضى الحشيشية . ولما علم

---

(١) مذكرات جوانفيل ـ ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ٢٠٧ .

(٢) يقول القلقشندى فى هذا الشأن أن الاسماعيلية يؤمنون بأن الأرواح مسجونة فى الأجساد ، فاذا كانت على طاعة الامام تنتقل الى الأنوار العليا أما اذا كانت تعصيه فتهوى فى الظلمات السفلى . انظر القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ .

(٣) فيليب هتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ٢ ص ٢٤٧ ، السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٢٧٦ انظر ايضا من المراجع الاجنبية :
Eracles, op. cit., p. 210, Cf. Treece op. cit., p. 163, Browne, op. cit, t II, p 208, Grousset, op. cit, t. III, p. 193.

شيـخ الجبل (١)، بذلك خرج لاستقباله ورحب به ترحيبـا كبيراً ، وكان هذا سـبباً فى تدعيم أواصر الصداقة والتحالف بين الجانبين . وقد حرص مقدم الاسماعيلية فى نفس الوقت على أن يبهر أنظار الملك الصليبي بقوته وثرائه ومدى الطاعة العمياء التى يحملها اتباعه . وقدم هدايا ثمينة وعرض عليه محالفته كما أبدى استعداد فـداويته لاغتيال من يريد . وصحبه فى جولة عامة لزيارة قلاع الدعوة وما بهامن تحصينات(٢) . وأثناء وجودهما فى قاعة الكهف سـأله شيـخ الجبل « هل رجالك يفعلون لاجلك ما يفعله أتباعى من أجلى ؟ » فرد الملك الصليبي بالايجاب فأشار شيـخ الجبل حينذاك بمنديل كان بيديه فألقى أثنان من فداويته بنفسيهما من قمة أحد الأبراج الموجودة بالقاعة فسقطا أسفله وماتا فى الحال(٣). وقد تأثر هنرى من هذا المنظر ورجا زعيم اسماعيلية الشام الا يكرر هذا التصرف ، ثم دخلا القلعة ليطلعا على ما بداخلهـا ، فشاهد بعض الغلمان على صفين يرتدى كل منهم ثيابا بيضاء . وعندما صعدا سويا إلى أعلى البرج ، يبدو ان شيـخ الجبل لم يعر أهتماما لرجاء الملك الصليبي ، إذ قال له سأريك مرة أخرى ، ماذا يقدم رجالى من أجل أرضائى . فأشار بيـده إلى أثنين آخرين من فداويته فأخرج كل منهم خنجرة الحاد المسموم وطعن نفسه به ، وخراصريعين واضطرب هنرى ، عند ذاك وبدت على وجهه علامات الضيق

---

(١) لم تشر المصادر أو المراجع الأجنبية والعربية الى اسم شيخ الجبـل الذى كان موجوداً أثناء هذه الزيارة ، ولـكن مما لاشك فيه أنه خلف راشد الدين سنان المتوفى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م .

(٢) انظر الملحق الثانى باخر الكتاب .

(٣) Eraclas, op. cit , p. 231, Cf. Michaud, op. cit., t. II, p. 424.

والأسلياء وعندئذ قال له شيخ الجبل (هاهم باقى رجالى باشارة أخرى منى يقدمون على الموت بذات الطريقة بكل ارتياح وسعادة ترضية لى (١) .

يتضح من هذه الزيارة ان اسماعيلية الشام أرادوا تحقيق نوع من التوازن فى علاقتهم بكل من الصليبيين والايوبيين الامر الذى يتيح لهم البقاء على حساب جميع الاطراف المتصارعة مع الاحتفاظ بحريتهم والعمل على تثبيت اقدامهم فى سورية (٢) . ويبدو كذلك أن شيخ الجبل أراد من كل ما جرى أثناء هذه المقابلة أن يوهم الملك الصليبي بجبروته وسطوته ، وأن يزيد من أضطرابه بحيث يعمل لهذه الطائفة حسابا كبيراً ، ويتمهل كثيراً إذا ما فكر هو أو غيره من القادة الصليبيين فى غزو أراضى الحشيشية . وفى نفس الوقت يكون ما حدث بمثابة تذكرة للصليبيين بان شيخ الجبل مازال فى مركز القوة بالنسبة لاتباعه ، وان الفدواية مازالوا على طاعتهم العمياء له ورهن أشارة منه .

هذا هو حال العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام فى الفترة موضوع البحث . فنراها أحيانا تتسم بالغدر من جانب الحشيشية وكثرة اغتيالاتهم التى ذهب ضحيتها بعض القادة الصليبيين ، وأحيانا أخرى يسودها الود والتقارب والتحالف بين الطرفين من أجل الوقوف معا ضد العالم السنى . وإذا كنا قد أوضحنا طبيعة هذه العلاقات وخطوطها العريضة ، فيجب ألا نغفل فى

---

(1) Eracles, op. cit., p. 210; Cf. Browne, op. cit., t. II, p. 209, Grousset, op. cit., t. III, p. 134. Ency. of the World History, p. 272.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٠٦ انظر أيضا :
Grousset, op. cit., Loc. cit.

هذا المجال الاشارة إلى إحدى الفئات الصليبية التي كان لها دور كبير في عصر العدوان الصليبي على العالم الاسلامى والتي تقارب إلى حد بعيد اسماعيلية الشام من حيث تكوينها وسياستها ومسلكها ، ونعنى بها الجماعات الرهبانية العسكرية التي كانت من نتائج الحركة الصليبية نفسها ، ونخص بالذكر جماعتي الفرسان الداوية والمعروفة باسم فرسان المعبد وكذلك جماعة الفرسان الاسبتارية وسنعقد مقارنة بين هذه الجماعات الرهبانية العسكرية الصليبية وبين جماعة الحشيشية في الشام خلال الفترة موضوع البحث ، مع بيان طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بينها والاثار المترتبة عنها نظراً لما كان لهذه الجماعات الصليبية من أثر كبير في تاريخ الحروب الصليبية بعامة وفي علاقاتها بهذه الطائفة الشيعية بصفة خاصة . لقد نشأت هذه الجماعات بالشام أثناء الفترة العصيبة المضطوبة التي كان يمر بها الشرق الأدنى الاسلامي في بدايات القرن الثاني عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) وكان ذلك لبواعث وظروف دينية بحته ، ثم انقلبت فيما بعد إلى جمعيات سرية مجاهدة اتخذت من العسكرية والفروسية صفة تميزها عن غيرها من مختلف الفئات الصليبية [1] . وقد قيل أن فارسا من

---

(١) عبد الله عنان : تراجم اسلامية ص٥٦. وبالنسبة للاسبتارية Hospitallers فهم جماعة من الفرسان جمعوا بين الفكرة الدينية والروح العسكرية . وترجع تسميتهم بهذا الاسم عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي الايطالية في بيت المقدس سنة ١٠٧٠م/٤٦٣هـ جمعية خيرية في بيمارستان قرب جنوبى باب الضريح المقدس وذلك للعناية بفقراء الحجاج ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى التى حرفت فيما بعد الى اسبتارية . ثم تطورت هذه الجماعة فيما بعد لحماية الحجاج ، وأبدى رجالها من ضروب الفروسية والاقدام ما جعلهم موضع احترام الملك جودفرى دى بوبون ملك بيت المقدس فأقطعهم احدى الضواحى وتوالت عليهم الهبات والاقطاعات ، وكان أول رئيس لهم اخة جيرار ، ثم تحولت هذه =

فرسانهم يدعي جيوم دي مونبار Guillaume de Monbar قد تلقى مذهب الاسماعيلية على يد أحد شيوخ الجبل في إحدى المغـــارات الموجودة بجبل لبنان (١) وان كـان ليس هناك من الدلائل القاطعة ما يدعم ذلك .

ومن الملاحظ أن نشاط هاتين الجماعتين وكذلك نشاط طائفةاسماعيلية الشام قد برز إلى حيز الواقع فى وقت متقارب . ولعل في ذلك ما يبرر وجود

= الجماعة فيما بعد الى منظمة عسكرية الطابع كان لهـا شأن كبير فى تاريخ الحروب الصليبية وتحول أعضاؤها أيضا الي رجال دين ودنيا فى نفس الوقت ، فكانوا يلبسون مسوح الرهبان ويحاربون من فوق ظهور الخيل ثم أصبحت لهم متاجر وحوانيت وحصون وقلاع يتمتعون فيها ويتحصنون فيها انظر عن ذلك :

Delaville Le Roulx, les, Hospitalliers en Terre Sainte et à Chypre, pp. 31 - 34 ; Woodhouse, The Military Religious Orders of the Middle Ages, pp. 23 - 30, King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, pp. 21 - 23, Landone, The Middle Age, t. III, p.172 .

وبالنسبة لفرسان المعبد Templars فهم من أصل فرنسي وقـد قام بانشاء هذه الجماعة عصبة من تسعة من السادة الفرنسيين برئاسة هيوج دى باينزا Hugh de Paienza وقد أوضحوا أن هدفهم حماية الحجاج المسيحيين فى بيت المقدس وحماية معبد سليمان ، فضلا عن محاربة أعداء المسيح . وأعطاهم الملك بولدوين الثانى ملك بيت المقدس منزلا يقيمون به بجوار معبد سليمان وذلك سنة ١١١٨ م ٥١٢ هـ ، ولذا فقد لقبوا باسم فرسان المعبد وتطورت هـذه الجماعـة فيما بعـــد بحيث أصبحت قوى يخشى بأسها فى تاريخ الحروب الصليبية أنظر :

La Croix, La Chevalerie et les Croisades, p. 220, Watson, The Story of Jerusalem, p. 189, Hardwick, A History of the Christion church pp. 754 - 255 .

(١) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٦٣ .

نوع من الشبه بينهما و بين الحشيشية سواء كان فى نظمهم أو فى سياستهم وتصرفاتهم . فنرى مثلا انهم قد اتفقوا فى الاستقرار فى المعاقل القوية و الحصون والقلاع المنيعة ، متخذين من سياسة الغزو والنهب وسيلة لامتلاك هذه القلاع وتعزيز وجودهم فيها ، بل والاغارة منها على المناطق المجاورة . وقد ساعد هــذا فى أن يكون لكل منهم دوره الخطير فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) وهو القرن الذى تبلورت فيه حركة الافاقة الاسلامية فى منطقة الشرق الأدنى لمواجهة الخطر الصليبى . كذلك اتفقت هذه الجماعات الرهبانية المسيحية وطائفة الحشيشية فى الثراء واتساع النفوذ . وكما كانت أيضا هذه الهيئات الدينية المسيحية مستقلة تماما فى بلاد الشام عن كل نفوذ سياسى ، ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا فى روما مباشرة حيث تستمد منه التأييد الروحى والمادى مما جعل منهما دولة داخل الدولة [1] ، كذلك نجد ان الاسماعيلية بالشام فى هذا الوقت كانت لهم دولتهم المستقلة فى الاقاليم الواقع بين طرابلس واللاذقية حيث كانوا لا يعترفون إلا بتعيينهم للامام المتمثل فى شخصية شيخ الجبل بالموت . وبالاضافة إلى ما تقدم ، ثمة وجه شبه كبير بين هذه الجماعات المسيحية وبين اسماعيلية الشام فى الزى ، حيث أتخذ فرسان المعبد من اللونين الابيض والاحمر زيا رسميا لهم وهما اللونان اللذان استخدمها الحشيشية فى زيهم . كذلك نجد أن للطائفتين قد أتبعا نفس النظام ونفس المراتب ، فكان من بين مراتب الحشيشية الفداوية والرفاق والدعاه تقابلها لدى فرسان المعبد مراتب المبتدىء والمنتهى والفارس . ولقد كان من أوجه الاتفاق أيضا بين هذه الهيئات المسيحية وبين اسماعيليه الشام استعداد كل منها للتحلى عن دينها إذا وجدت فى ذلك مصلحة لها . هذا فى نفس الوقت الذى

---

(١) King, op. cit., pp. 31 - 32.

يظهرون فيه أمام عامة الناس بمظهر المتدينين المحافظين على أركان دينهم (١) .
وهنا أيضا وجه شبه آخر يتمثل فى لقب زعيم كل منهم ، فبينما يطلق على زعيم الحشيشة أسم Grand Maitre أى « السيد الأعظم » والمقصود بذلك المقدم أو الكبير ، فنرى زعيم هاتين الجماعتين يسمى بلقب « Grand Master أى نفس التسمية(٢) وكما كان أسماعيلية الشام يعتمدون فى دخلهم العام على الجزية السنوية التى تصلهم من جيرانهم مقابل حمايتهم ، كانت الجزية السنوية التى تفرضها جماعتا الداوية والاسبتارية على كثير من سكان المناطق المجاورة مصدراً أساسيا من مصادر الدخل العام عندهم . وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يفرضونها على الاسماعيلية أنفسهم بالشام رغم القوة التي كانوا يتمتعون بها والرهبة التى كانوا يدخلونها فى قلوب الاعداء والاصدقاء على السواء (٣) . وظلت الجزية المفروضة عليهم منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى (أواسط القرن السادس الهجرى) حتى خلصهم منها الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ م / ٦٦٥ هـ (٤) .
وواضح من هذا عدم رهبة كل من الاسبتارية والداوية من هذه الطائفة التى كانت هى نفسها تثير الرهب والفزع فى النفوس . ولعل ذلك يرجع بسبب معرفة هذه الجماعات الرهبانية بأن أى من شيوخ الجبل لن يفكر فى أغتيال

---

(١) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٦٣ — ٦٤ راجع أيضا .
Besant, op. cit., p. 363, Lacroix, Vie. Militair et religiouse au moyen Age, p 139, Woodhouse, op. cit., p. 208.
(٢) Watson, op. cit., p. 189 .
(٣) Dfrémery, op. cit., p. 421.
انظر أيضاً ص ٢٢٦
(٤) المقريزى : السلوك ٢٢٦ جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٧ .

زعماء هاتين الجماعتين لأن ذلك لن يعود عليه وعلى جماعته بأي فائدة . ولأنه يدرك جيداً انه لو أمر بقتل أحد زعماء هاتين الجماعتين فسوف يحل مكانه رئيس آخر لا يقل عنه فى المقدره والكفاءة ويسير على نفس سياسته وينهج نهجه . ولذلك لم يكن شيخ الجبل برغب فى التضحية برجاله الفدواية فى عمل لانفع من ورائه ولا فائدة (١) . ولكن يبدو أن شيخ الجبل قد نظر إلى حياة دداويته قبل أن ينظر إلى مسألة كرامته وسمعته أمام الناس والعالم المعروف وقتذاك لانه فى الوقت الذى كان فيه ملوك أوربا وقادة المسلمين يرهبونه ويعملون حسابه ، كان هو نفسه يخشى بأس هذه الجماعات المسيحية الرهبانية دون أن يفكر جديا فى محاولته التخلص من هذا القيد المفروض عليه وعلى أتباعه ، اللهم إلا تلك المحاولة التى قام بها سنان لدى الملك عمورى حسبما ذكرنا سابقاً (٢) .

كيفما كان الأمر ، هناك مسألة هامة توضح التشابه العجيب بين هذه الجماعات الرهبانية العسكرية وبين اسماعيلية الشام . فلقد استفادت جماعتا الفرسان الداوية والاسبتارية كثيرا من وراء ضعف الحكام الصليبيين فى بيت المقدس وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم (٣) . وذلك هو نفس ماحدث بالنسبة لاسماعيلية الشام ، إذ اتخذوا من ضعف الحكام المسلمين والصليبيين الموجودين هناك وسيلة تساعدهم على تقدم نشاطهم وتحقيق سياستهم ، وآية ذلك ماكان

---

(١) Defrémery; op cit., p. 45, Lamb, op. cit., p. 329.
L'Abbé de vertot, op. cit., t. I, p. 190 — 191.

(٢) انظر ما سبق ص ٢٤٢ — ٢٤٣

(٣) Landone, op. cit., t. III, p. 174.

من أمر هذه الطائفة عندما انتقلت إلى بلاد الشام وتجاحها فى الاستيلاء على العديد من الحصون والقلاع .

واذا انتقلنا الى وجه آخر من أوجه المقارنة بين هذه الجماعات الرهبانية العسكرية وبين طائفة اسماعيلية الشام نراه قد امتد إلى القرن القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) . فكان كل منهما يتقلب فى خدمة الأصدقاء والاعداء وفق ما تمليه عليه مصالحه بصرف النظر عن الصالح العام. ويتضح هذا بجلاء من نشاط الحشيشية وسياستهم تجاه المسلمين السنيين من ناحية أخرى . وأما بالنسبة للجماعات الرهبانية الصليبية فقد طبقت هى الأخرى هذه السياسة على الصليبيين أنفسهم تحقيقا لمصلحتها فحسب. مثال ذلك التحالف الذى عقده الاسبتارية مع اسماعيلية الشام للوقوف ضد بوهيموند الخامس صاحب طرابلس ، لانهم احسوا أن ذلك سوف يخدم أهدافهم. وقد اضطر هذا الأمير الصليبي إلى تقديم شكوى للبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م /٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ، الذى سرعان ما كتب خطابا فى أغسطس ١٢٣٦ م / ذى الحجة ٦٣٣ هـ إلى رئيس أساقفة صور وإلى أسقف كل من صيدا وبيروت يلح فيه على ضرورة انهاء هذا التحالف الذى تم بين هذه الجماعة المسيحية الحربيه وبين طائفة الحشيشية (١) ولقد أورد أحد الكتاب الغربيين المحدثين وهو كنج King نص هذا الخطاب الذى جاء فيه «من البابا جريجورى خادم عبد الله إلى أبناء عمومته رئيس أساقفة صور والى أسقف كل من صيدا وبيروت . هل نسى سيد الاسبتارية نص الكتاب المقدس فى شأن زجر الملك

---

(١) King, op cit., pp. 234 - 235

ياهواشاقاط(١) . إذا كنت تحب الكافر وتساعده بما تغضب الآله فان اللعنة تحل عليك . فكان لايجب عليه مساعدة أعداء المذهب الكاثوليكى والوقوف ضد أبناء العقيدة المسيحية . فلقد نمى إلى علمنا من أمير انطاكية وبوهيمند الخامس صاحب طرابلس أن هذا السيد لم يعط أى اعتبار للضرر الذى لحق بالدين أمام الناس من مساندته الحشيشية ـ أعداء الله وأعداء المسيح ـ والذين تجرؤا قبل ذلك على اغتيال ريموند غدرا ، فضلا عن قتل كثير من الأمراء الكاثوليك. كما انهم يحاولون التغلب على عقيدتنا بالقوة ليقفوا ضد هذا الأمير (بوهيموند الخامس) الذى رغب فى محاربتهم . ومما أكثر خطورة أن سيد أورشاليم وأبناء عمومتنا قد وعدوهم بالمساعدة ضد هجمات المسيحيين مقابل أن يدفع لهم مبلغا من المال كل عام . وعلى ذلك فقد أرسلنا لهم تعليماتنا بالامتناع عن مساعدة هؤلاء الحشاشين وكذلك الامتناع عن الوقوف ضد الأمير بوهيموند . والآن قد ألقينا على كاهلكم مهمة إرغام هذا السيد واتباعه على العدول عن تحالفهم ويكون لزاما عليكم محاربتهم دون أى انذار مسبق وذلك فى حالة رفضهم لتنفيذ تعليماتنا ، وإذا تعذر محاربتهم بصورة جماعية فيجب على اثنين منكم على الأقل القيام بهذا العمل بغض النظر عن التعليمات الخاصة بيومى النزهة المنصوص عليهما فى المجلس العام ، وبشرط ايضا الا يتراجع احد منكم عن الافعال التى قررتموها بعد ثالث او رابع يوم».

يبدو من هذا الخطاب انه كان هناك اتفاق بين ملك بيت المقدس الصليبى وبعض الأمراء الصليبيون وبين الحشيشية من اجل القيام بعملية اغتيالية

---

(١) هو ملك يهوذا أنظر فى هذا الشأن لمزيد من التفصيلات أخبار الأيام الثانى الاصحاح التاسع عشر .

موجهة ضد عدد من الفرنج ، كما يتضح احتمال تفكير الأمير وهيموند الخامس في مهاجمة الحشيشية والقضاء عليهم . ولكنه تراجع عن ذلك بعد تحالف الاسبتارية معهم ، لانه خشى أن يقدم على هذه الخطوة أن يدخل في حرب مع الاسبتارية . وعلى أية حال فقد تمكن البابا من حل هذه المشكلة . إذ اقنع الاسبتارية بفسخ تحالفهم مع الحشيشية وعادت المياه الى مجاريها بينهم وبين بوهيموند الخامس .

وإذا كان هناك نواح شبه عديدة بين الداوية والاسبتارية من ناحية وبين اسماعيلية الشام من ناحية أخرى ، فثمة لون آخر من المقارنة يفرض نفسه بين جماعة صليبية أخرى وبين الحشيشية ، ويعنى بذلك الجاليات التجارية الايطالية التي لعبت هي الأخرى دورا كبيرا في تاريخ الحركة الصليبية بصفة عامة وفي القرن الثاني عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) بالذات ، لقد كان لهذه الجاليات دور ملموس زمن الحروب الصليبية وبخاصة الجنوية والبيازنة والبنادقة ، إذ كانوا يسهمون في نقل الجنود والعتاد من موانى أوربا إلى سواحل مصر والشام ، كما اشتركوا مع القوات الصليبية في الاستيلاء على الموانى الشامية تحقيقاً لمصالحهم واطماعهم التجارية في المنطقة . وقد جنوا من وراء ذلك ثروات طائلة . وكانت سياستهم تقوم على العمل من أجل الاحتفاظ بالامارات اللاتينية في الارضى المقدسة أطول مدة ممكنة تمكينا لمصالحهم وتثبيتا لوجودهم(١) . ويكفى أن شعار احدى هذه الجاليات وهى جالية البندقية كان : « لنكن أولا بنادقة، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين » فهم يجرون وراء المصالح

---

(١) جوزيف نسيم : علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية — مطبوعات جمعية الاثار بالاسكندرية سنة ١٩٧١ ص ٦٧ .

والمكاسب والاسلاب دون النظر إلى الصالح الصليبي العام . بل هم يتخذون من القضية الصليبية وسيلة لتحقيق مصالحهم واطماعهم فحسب ، ولا يشتركون في العمليات الصليبية الا بالقدر الذى يخدم أهدافهم .

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة تكاد تكون متفقة تماما مع سياسة الحشيشية بالشام . إذ كان من مصلحتهم هم أيضا إبقاء هـذه الإمارات اللاتينية فى الشام أطول وقت ممكن تحقيقاً لمصالحهم . إذ سوف يؤدى هـذا إلى كثرة حملات المسلمين السنيين ضد الفرنجة وهم الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إجلاء القوات الصليبية من الشام . وهـذا سوف يؤدى إلى إنشغال السنيين وإغفال عيونهم عن إتساع نشاط الاسماعيلية وسياستهم ، فضلا عن إنهاك قواهم ، الأمر الذى يؤدى إلى ضعفهم ثم ضعف مذهبهم فيما بعـــد ، ويترتب على ذلك إتاحة الفرصة لطائفة الاسماعيلية لنشر دعوتها الشيعية أملا فى إحياء المذهب الشيعى مرة أخرى ليتربع على عرش العالم الاسلامى بدلا من المذهب السنى .

ولقد كانت للمالك التجارية الايطالية تجرى وراء مصالحها حيثما وجـدت فكانت تشترك مع الصليبيين، إذا وجدت فى ذلك مصلحة لها. ولكنها سرعان ما تتحول عنهم وتشرع إلى التفاهم مـــع خصومهم المسلمين سواء فى مصر أو الشام وذلك وفقا لما تمليه عليها مصالحهـا الخاصة ، وكانت الحروب الصليبية مجرد ورقة يلعبون بها . لقد كانت مصالح هـذه الجاليات التجارية فوق أى اعتبار ، ويتضح هذا من أحد الخطابات الذى أرسله صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله يوضح له فيه سياسة البنادقة حياله وحيال الصليبيين فيذكر أنهم يتقربون إليه تارة ثم يتحولون عنه ويؤيدون الصليبيين تارة أخرى دون مراعاة لمصالح المسلمين (١). كذلك كانوا يبادرون بمساعـدة الصليبيين

(١) جوزف نسيم : المرجع السابق ص ٦٨ .

بأساطيلهم فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى (أواسط القرن السادس الهجرى) ليس خدمة للهدف الصليبى وإنما طمعا فى المزيد من الكسب والإثراء فقد كانو مسيحيين مثلهم ، ومع ذلك كانوا يتقاضون أجورا على العمل الذى يقومون به . وكانوا فى نفس الوقت يتقربون إلى السلطات المسئولة فى مصر خشية ضياع المكاسب التى كانوا يجنونها من وراء التعامل معها وقد استمرت هذه السياسة أيضا خلال القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجرى). فرغم صداقتهم للصليبيين وتقربهم اليهم فى ذلك الوقت ، إلا أنهم رفضـــوا مساعدة الملك الفرنسى لويس التاسع فى حملته على مصر لأنهم وجـــدوا أن مصالحهم فى ذلك الوقت مرتبطة بمصر(١) . ولعله يتضح من ذلك إتفاق هذه الجاليات التجارية فى سياستها وأهدافها مع سياسة اسماعيلية الشام وأهدافهم . إذ كانوا ينتهجون نفس النهـج ويسيرون فى نفس الطريق ويتبعـون نفس الوسائل والأساليب ويستغلون الحوادث والظروف ، ويتنلبون فى خـدمـة الأصدقاء والأعداء كلما وجـدوا فى ذلك غنما لهم . فتارة يقفون مع الصليبيين ويخدمونهم باغتيـال أكفأ القـواد المسلمين ، وتارة أخرى يؤيدون مواقف المسلمين السنيين ضـــد أعدائهم الصليبيين ، وثالثة يقفون مع الحشيشية ضد الصليبيين أوالسنيين أو ضد كليهما معا. وكان ذلك وفقا لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة . وكما كانت هذه الجاليات الايطالية لا يعنيها الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق مصالحها كذلك اتخذ الحشيشية من الدين الاسلامى ستارا يحققون من ورائه أهدافهم.

وهكذا قدر للعالمين المسيحى والاسلامى أن يشهدا فى فترة من أخطر

---

(١) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٧٢ — ٧٤ .

الفترات التي شهدها الشرق الأدنى ، وجـود ثلاث طوائف مختلفة الأديان والمذاهب ومتباينة في العادات والتقاليد ، ولكنها مع ذلك كانت تسير في خط واحد لا تحيد عنه وهو يتمثل في مصالحها الشخصية . فكانت تتقلب بين محالفة الأعداء ومعاداة الاصدقاء وفقاً لما تمليه عليها مصالحها بصرف النظر عن أي اعتبار آخر .

الفصل الخامس

تقييم العلاقات الصليبية الاسماعيلية

إختلاط تاريخ الاسماعيلية بتاريخ كل من الصليبيين والسنيين وأثر ذلك تخوف كل من الفرنجه والمسلمين من الحشيشية ونتائجه — تحليل المواقف والسياسات التى اتخذتها الاطراف المتصارعة ، ومدى الالتزام بها عند التطبيق العملى — أثر الخلاف المذهبي بين المسلمين على الوجود الصليبي فى الأراضي المقدسة ، ومدى ما حققه الفرنجه من وراء ذلك — مصير الاتصالات الصليبية الاسماعيلية — الموقف لو لم يظهر الحشيشية على مسرح الأحداث وقتذاك — الموقف لو ظهرت طائفة الاسماعيلية دون وجود صراع صليبي — زوال دولة الحشيشية فى الشام وأثره على الصراع الصليبي الأسلامى — أسباب فشل اسماعيلية الشام فى تحقيق اهدافهم فى المنطقة أهمية المصادر الادبية فى الكشف عن طبيعة العلاقات الصليبية الاسماعيلية .



بعد أن تعرضنا فى الفصول السابقة لنشأة طائفة اسماعيلية الشام ونظمها وقلاعها وشيوخها، وبعد أن كشفنا عن سياستها تجاه الطرفين المتصارعين على مسرح الاحداث ونعنى بهما الصليبيين والسنيين وموقف هذين الطرفين منها، ننتقل إلى تقدير الأثر الذى تركته تلك الطائفة وبيان مدى ماحققته من نتائج من وراء السياسة التى اتبعتها حيال كل من الفرنجة والمسلمين السنيين . ولا يتسنى هذا الا بعد تحليل وتقييم العلاقات المتشابكة التى قامت بين الاطراف الثلاثة خلال الفترة موضوع البحث ، حتى تكتمل الصورة من كافة جوانبها وزواياها .

شهدت بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس وخلال القرنين السادس والسابع من الهجرة (أواخر القرن الحادى عشر والقرنان الثانى عشر والثالث عشر) حروبا ومعارك دامية شنها الغرب الاوروبى ضد المسلمين فى الشرق الأدنى . وكان لظهور طائفة اسماعيلية الشام أثناء هذه المعارك أثره الكبير على مجريات الأمور والاحداث وعلى خط سير المعارك الحربية بل وعلى الأوضاع السائدة فى المنطقة وقتها ولفترات طويلة لاحقة . ذلك أن وجود هذه الطائفة التى تدين بالمذهب الشيعى وسط طرفين متحاربين أحدهما يدين بالمذهب السنى فرض عليها أن تتخذ سياسة معينة تتفق مع مصالحها أولا وقبل كل شىء ، كما دفعها الى تقوية نفوذها وتعميق وجودها وحد حدودها فى المنطقة على حساب الصراع الدائر فيها . وكان من الطبيعى أمام هذه الظروف المتشابكة المتداخلة المعقدة أن يكون هناك اختلاط وتشابك بين تاريخ الحشيشية وتاريخ كل من الصليبيين والسنيين . ذلك أن كل طرف من هذه الاطراف الثلاثة كانت له أهداف وغايات تشابكت وتداخلت فى بعضها أحيانا وتعارضت

وتنافرت . تباعدت أحيانا أخرى . وكانت المصالح والظروف والملابسات المحيطة هي التى تفرض هذا التضارب أو التباعد وذلك السلام أو الجفاء . ففى الوقت الذى استعد له السنيون للقضاء على الوجود الصليبى مع العمل على اجلاء الصليبيين الدخلاء من الاراضى المقدسة ، كان هناك طرف يتمثل فى الحشيشية يهدف الى ابقاء الوضع على ماهو عليه حتى يضمن وجوده هو كقوة مناوئة للسنيين تعمل علي اضعافهم والتهوين من شأنهم ، الامر الذى يسهم فى القضاء على المذهب السنى ونشر المذهب الشيعى فى شتى انحاء العالم الاسلامى المعروف وقتذاك . وكان هذا هو أقصى مايتمناه الشيعة واسماعيلية الشام وهذا هو نفس الشىء بالنسبة للصليبيين الغربيين من الحشيشية . فتراهم فى الوقت الذى يسعون فيه من أجل مد نفوذهم وزيادة قوتهم فى الاراضى المقدسة على حساب الفريقين المتصارعين ، نجدهم يعملون على تدعيم أواصر الصداقة مع الحشيشية ليضمنوا تأييدهم لهم فى حربهم ضد السنيين ، أو على الاقل يضمنوا حيادهم وعدم تعاونهم مع الفريق السنى الامر الذى يهدد الوجود الصليبى بشر كبير ويلاحظ أن السياسة الصليبية فى هذا الصدد قد حققت أغراضها فى كثير من الاحيان ، وان كان قد خانها التوفيق فى أحيان أخرى . ولقد كانت النتيجة الطبيعية فى مثل هذه الظروف العجيبة أن تشهد منطقة الشرق الادنى طوال القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) نوعا من الاختلاط والتلاحم في العلاقات بين هذه الاطراف الثلاثة كان له أثره المباشر أو غير المباشر على سير مجرى الاحداث التاريخية بالمنطقة خلال الفترة موضوع البحث وبعد ذلك بزمن غير قصير .

لقد نتج عن هذا الاختلاط أن التزم كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة بسياسة مستقلة تكيف وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال سار عليها عند تعامله

واتصاله بالطرفين الآخرين . ونرى أن الحشيشية قد تفانوا من أجل الحفاظ على سياستهم وتطبيقها تطبيقا عمليا سليما يتمشى مع أهدافهم وغايتهم، متمسكين في ذلك بمبادىء أسلافهم ، تلك السياسة التي ظلوا يكافحون من أجلها حوالى قرنيين من الزمان وعلى هذا كانوا يلتزمون في كل موقف من المواقف التي تواجههم بنفس سياستهم دون محاولة الإنحراف عنها . وجدير بالذكر هنا أن السنيين والصليبيين كانوا على وعي تام بهذه السياسة التي سار عليها الحشيشية والتي جعلتهم يلتزمون جانب الحيطة والحذر عند تعاملهم معهم أو احتكاكهم بهم . ولذلك كان الاسماعيلية بالشام دائما يتقلبون في خدمة الأصدقاء والأعداء حسبما تمليه عليهم مصالحهم التي كانت فوق كل اعتبـار ، محاولين القضاء على المذهب السني ، ومتخذين الدين الاسلامى ستارا دقيقا شفافا يخفى حقيقة اطماعهم فقد ظهروا أمام العالم الاسلامى باعتبارهم المحافظين على تعاليم الدين الاسلامى وشرائعه في الوقت الذى تتعارض فيه نظمهم وعقائدهم وتعاليمهم وتفكيرهم تعارضا تاما مع القيم العليا السامية التي ينادى بها هذا الدين . ونتج عن هذا أنهم أضحوا قوة سياسية كبيرة لا يستهان بها يعمل لها الخصوم والأصدقاء ألف حساب . ويتضح مدى التزامهم بتطبيق هـذه السياسة من موقفهم من السنيين والاتصالات التي تمت بينهما . إذ كانوا دائما يحاولون تحقيق الهدف الرئيسى لهم وهو التغلب على المذهب السني والقضاء عليه متخذين من سياسة الفتك بقادته وزعمائه وسيلة لتنفيذ مآربهم ، لأنهم وجدوا أن هؤلاء القادة بمثابة الرأس المدبرة والقوة المحركة لأى وحدة إسلامية سنية تقوم في المنطقة وبالتالى تهدد وجودهم. وخير مثال على ذلك موقفهم من الرواد الأول لحركة الإفاقة الإسلامية في بواكير القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجري) للوقوف في وجه الخطر الصليبي الذى كان قد استفحل أمره في

في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، وكان من نتائج هذه السياسة إغتيال كل مودود وآقسنقر البرسقي فضلا عن المحاولتين الفاشلتين للقضاء على السلطان صلاح الدين الأيوبي . وتتجلى سياستهم أيضا في وقوفهم بجانب الصليبيين ضد القوى الإسلامية السنية بزعامة نور الدين محمود (١) . كذلك وجد الحشيشية بصفة عامة أن مصالحهم واحدة ومشتركة مع الصليبيين الدخلاء ، ولذا سعوا إلى التقرب منهم لتكوين جبهة واحدة تمكن من تشتيت القوى السنية في المنطقة ، الأمر الذي يساعدهم على تحقيق أهدافهم والقضاء على هذه القوى ونشر المذهب الشيعي . ولا يعني هذا الالتزام على طول الخط بتلك السياسة الرامية إلى التفاهم مع العدو الصليبي . فكثير ما حل الجفاء محل السلام بين الطرفين ، وكثيرا ما اصطدما في مناوشات خفيفة أو معارك دامية . ثم أن محاولات التقارب والتفاهم بين الطرفين كانت تمليها عليهما اعتبارات المصلحة المشتركة في القضاء على العالم السني الذي كان يمثل عقبة كبيرة أمام مطامع كل منهما . وغير خاف أن سياسة التقارب والتفاهم بينهما كانت تمليها مصالحهما المشتركة برغم تباين الأهداف . فالصليبيون الغربيون يريدون القضاء على العالم السني لتحقيق أطماعهم في المنطقة بينما كان هدف حشيشية الشام تثبيت نفوذهم وتدعيم كيانهم على حساب العالم السني . لذلك لم يكن من المنتظر أن تستمر أو أن تدوم مثل هذه السياسة لعدم وجود الأسس المتينة الثابتة لاستمرارها ورسوخها . بل والأكثر من ذلك نجد أنه في بعض الأحيان كانت اعتبارات المصلحة المشتركة تربط بين اسماعيلية الشام وبين السنيين في المنطقة . وعلى

---

(١) تناولنا هذه الناحية في شيء من التفصيل في الفصل الرابع انظر ص ٢٤٠ - ٢٤١.

هذا الأساس نجد أنه في فترة من الفترات حـــدث صفاء فى سماء العلاقات بين الحشيشية والسنيين ، وكان ذلك فى العقد الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى (أخريات القرن السادس الهجرى) ، أى منذ إبرام معاهد الصلح بين السلطان صلاح الدين وبين مقدم الاسماعيلية راشد الدين سنان ١١٧٦ م / ٥٧٢ ه . ولكن هذا الصفاء الذى حدث لا يعنى البتة تخلى الحشيشية عن سياستهم التقليدية ، فهو لم يكن صفاء مذهبيا ، بمعنى إن لم تنته الخلافات المذهبية العميقة بين الطرفين ، ولم يؤد إلى تخلى أنصار كل من المذهبين السنى والشيعى عن سياسته ومبادئه وتجميد الوضع على ما انتهى إليه فى ذلك الوقت والذى يتلخص فى أن يسود المذهب السنى أرجاء العالم الاسلامى المعروف وقتذاك ويصبح زعيمه هو المتربع على العرش .

وعلى هذا كان الصفاء بينهما بكلمة أوضح فى للتعبير نوعا من الركود خلال فترة زمنية طالت أو قصرت يمتنع فيه كل طرف عن الاحتكاك بالطرف الآخر . ومع ذلك كان سكوتا مؤقتا اقتضته ظروف معينة بعد أن ظل كل منهما طوال رحلة شاقة طويلة من السنوات يحارب الآخر سياسيا وحربيا ومذهبيا ، ويستغل كل الأسلحة المتاحة له لتحقيق انتصاره على خصمه ومن المحتمل أن يكون كل من الطرفين قد افتعل هذا الركود من أجـــل خلق استراحة قصيرة أو هدنة مؤقتة يحقق كل منهما بعدها أهدافه ومكاسبه كيفما يشاء وبالأسلوب الذى يراه على حساب الآخر فبالنسبة للحشيشية كانوا يسعون إلى انهاك السنيين والقضاء عليهم وعلى قادتهم و تمثل هذا بجلاء فى موقفهم من صلاح الدين الذى كان عهده عبارة عن كفاح وجهاد مستمرين ضد الصليبيين والحشيشية على السواء . هذا بالنسبة للحشيشية ، أما بالنسبة للسنيين فربما رأوا فى تلك الاستراحة القصيرة فرصة ذهبية ينفرغوا لها من أجل

تحقيق الجهاد الأكبر وهو توحيد الشرق الأدنى الإسلامى توطئة للقضاء على الصليبيين واجلائهم من الأراضى المقدسة ، ثم التفكير بعد ذلك فى تصفية الموقف مع الاسماعيلية ومذهبهم ولكن يبدو أن القدر كان رحيما بأنصار المذهب السنى ، إذ عجل بوفاة سنان وأضعف حال أتباعه من بعده فى الوقت الذى تضاعفت فيه قوة السنيين وازدادت مكاسبهم على حساب الصليبيين . وقد أدى هذا إلى خيبة أمل الحشيشية بل وإلى ارتباك الخطط الذي خططوه واهتزاز سياستهم وقد ساعد على القضاء عليهم فى نهاية الأمر على يد السنيين بزعامة الظاهر بيبرس فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى) .

ولا شك أن الصليبيين قد واجهوا ضربة قاصمة من وراء فترات اتفاق الحشيشية والسنين ، لأنهم كانوا يصدون هجمات السلطان من جانب ، ويتصدن لخناجر الفداوية من جانب آخر . لذا كان عليهم أن يعملوا جاهدين من أجل توسيع شقة الخلاف المذهبى من جديد بين السنين والحشيشية حتى يتفادوا توحيد جهودها وبذلك يتهيأ الجو الملائم لتحقيق النصر على السنيين.

ومهما يكن من أمر ، فهناك صورة أخرى تلقى المزيد من الضوء على مدى التزام اسماعيلية الشام بسياستهم التى اختطوها وساروا عليها . ونعنى بذلك عداء الفداوية للصليبيين الذى انتهى باغتيالهم بعض كبار الفرنج مثل ريموند الثانى صاحب طرابلس وكونرادى مونتفرات صاحب صور . ولقد وجدوا فى الوقت الذى اغتالوا فيه هذين القائدين أن مصلحتهم تحتم عليهم اتخاذ ذلك الموقف ، فهى إذن سياسة متعددة الجوانب والزوايا ، متشابكة الخيوط ، ولكنها مع ذلك تلتقى عند غاية واحدة وهدف واحد وعلى هذا نراهم فى الوقت الذى يشعرون فيه أن مصلحتهم تفرض عليهم عدم وجود هذه الصداقة

مع طرف من الأطرا . المعنية سرعان ماينقلبون ضده وتتحول الصداقة إلى عداء سافر وهكذا . والأمثلة على ذلك عديدة نستقيها من أحداث البحث ووقائعه، مثلما حدث بالنسبة لحادثة إغتيال القائدين الصليبيين ، فقبل مقتلهما كانت علاقة الصليبيين باسماعيلية الشام يسودها الود والاستقرار . ولكنها تنقلب فجأة إلى عداء انتهى باغتيال زعيمين كبيرين للفرنج بالشام .

وإلى جانب ما تقدم ، نجد أن الصليبيين كانوا هم أيضا ثابتين فى سياستهم حيال اسماعيلية الشام . إذ كانوا يحاولون الاستفادة من كل مواقف العداء بين السنيين والحشيشية تحقيقاً لمصالحهم الخاصة فنراهم مثلا ينتهزون فرصة العداء الذى ظهر بجلاء بين اسماعيلية الشام والسنيين أيام تاج الملوك بورى صاحب دمشق ويبادرون بالتحالف معهم لأخذ دمشق مقابل أن يسلموا الحشيشية مدينة صور(١) ويتضح ذلك أيضا عندما انتهز الملك عمورى ملك بيت المقدس الصليبى فرصة العداء الشديد بين اسماعيلية الشام والسلطان صلاح الدين الأيوبى وأبدى موافقته على عرض سنان فى التحالف معه . وكان الملك الصليبى فى موقفه هذا بعيد النظر وهو يعمل لمصلحة الصليبيين ، لأنه سوف يضمن بتحالفه مع اسماعيلية الشام وقوفهم على الحياد فى الصراع الدائر بينه وبين السنيين من ناحية كما أنه سوف يأمن شرهم من ناحية أخرى (٢).

وهكذا تركت سياسة الأسماعيلية أعمق الأثر على موقف كل من الصليبيين والسنيين ، إذ تمكن كل منهما أن يجنى الكثير من وراء ذلك وإن كان قد

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٢ وللمزيد من التفاصيل عن هذه الواقعة انظر الفصل الثانى

(٢) Guillaum de Tyr, op cit., 996.

واجها بعض الصعـاب والعقبات أحيانا . فبالنسبة للصليبيين كانوا يشعرون أن وجود هذه الطائفـة على مسرح الاحداث إن لم يحقق لهم رجحان كفتهم على السنيين بتحالفهم معا ، فعلى الأقل سوف يعمل على إيجاد نوع من التوازن بينهم وبين السنيين . ثم أنهم سوف يأمنون غـدر خناجر الفداوية ذلك أنهم كانوا يعلمون جيدا مدى العداء الذى يكنه كل من الاسماعيلية والسنيين حيال الآخر ، وكانوا يدركون تماما مدى المنافسة بينهما من أجل نشر مذهب كل منهما وتقويتـه على حساب مذهب الطرف الآخر . ثم أنهم كانوا يعلمون أن فرص التقارب بين هاتين الجماعتين قليلة بل تكاد تكون بعيدة المنال. هذا فضلا عن أنه لو تم تقاربهما فلن يطول بل سرعان ما سيتحطم أمام ضخرة الرغبة فى وجـود أحـــد المذهبين فقط على حساب الآخر . ولذا حاول الصليبيون استغلال نقطة الضعف هذه وأخذوا يعملون على اكتساب صداقة الحشيشية والعمل فى نفس الوقت على تعميق هـوة الشقاق بين أصحاب المذهبين السنى والشيعى حتى يتمكنوا من خدمة مصالحهم . وبناء على ذلك استغل الصليبيين كافة الظروف المحيطـــة بهم إستغلالا كبيرا فمثلا أتاحت لهم فرصة قضاء السلطان صلاح الدين الأيوبى على الخلافة الفاطمية فى مصر إلى جانب العداء التقليدى بين الشيعة والسنة ، فرصة طيبـة لتحقيق أهدافهم ، فاتصلوا ببعض المتآمرين بمصر من أجل إعادة المذهب الشيعى مرة أخرى (١). وإلى جانب هـذا تمكن الصليبيين أيام حملة الملك لويس التاسع على بلاد الشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) من استغلال هذا

---

(١) اومبرتوريتزيتانو : صفحة من تاريخ العلاقات بين وليم الثانى النورمانى وصـلاح الدين انظر مجلة كليـة الآداب — جامعة الاسكندرية — المجلد الخامس (١٩٤٩) ص ٩٣.

الصراع التقليدى المستحكم بين المذهبين، والإفادة من النزاع القائم بين مسلمى الشام ومصر فى ذلك الوقت لتحقيق مصالحهم .

فقد وجدوا فيه فرصة طيبة لتبادل البعوث والرسل مع كل من مماليك مصر والايوبيين والحشيشية فى الشام وأخذوا يهددون أمراء مصر بالانضمام إلى خصومهم بنى أيوب فى الشام أن لم يسرعوا باجابتهم إلى مطالبهم. ثم يؤكدوا للأيوبيين انهم لن يترددوا فى مناصرتهم على اعدائهم بمصر أن أهمل المماليك مطالبهم ، فيبعثون الطمأنينة فى نفوسهم ومع ذلك لم يوصدوا الباب نهائيا فى وجه السنيين فى مصر والشام بل تركوه مفتوحا ليلجؤا منه فى أى وقت يشاءون ، وهم بعد ذلك كله يتركون الفريقين المتنافسين جانبا ويتجهون بابصارهم وثقلهم نحو اسماعيلية الشام فى محاولة هدفها اكتسابهم إلى جانبهم ضد كل المماليك فى مصر وبقايا الأيوبين فى الشام [1]. وفى هذا أثارة واضحة للخلاف المذهبى بين المماليك فى مصر وبقايا الأيوبيين فى الشام وهم من المسلمين السنيين وبين اسماعيلية الشام الذين يدينون بالمذهب الشيعى .

هذا بالنسبة للصليبيين ، أما بالنسبة للسنيين فمما لاشك فيه أنهم اكتسبوا من وراء وجود طائفة اسماعلية الشام فى المنطقة الشىء الكثير رغم أن هذا لم يكن بناء على تخطيط سابق متفق عليه من الطرفين . وإنما الظروف وحدها هى التى خدمتهم. فى ذلك المجال لأن مجرد وجود عداء بين الاسماعيلية والصليبيين كان ينجم عنه اغتيال الفداوية لكبار القادة الصليبيين وبذلك يؤدون أجل خدمة للسنيين الذين كانوا يهدفون فى المقام الأول إلى القضاء على الكيان الصليبى فى الأراضى المقدسة وقد اتضح ذلك فيما سبق ذكره عندما تعرضنا

---

(١) جوزيف نسيم . العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٥٠.

لموضوع إغتيال كل من الأمير ريموند الثانى صاحب طرابلس والمركيز كونراد دى مونتفرات صاحب صور وملك بيت المقدس (١)

ولقد نتج عن هذا وجود عداء خفى يكنه كل طرف من هذه الاطراف الثلاثة للآخر ، وبات كل من أمراء المسلمين السنيين والفرنج يحسبون حساب فداوية الشام . ويخشون بطشهم وسياستهم الارهابية القائمة على الاغتيالات المنظمة والفتك بكل من يقف عقبة أمام أطماعهم . وآية ذلك العطف والتأييد اللذان تمتعت بها الدعوة الاسماعيلية فى بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) عند بداية نشاطها بالشام وذلك من حكام المنطقة مثل رضوان صاحب حلب وابنة الب ارسلان (٢) ويتضح هذا بجلاء أيضاً فى زيارة الكونت هنرى صاحب شامبانى والملك الاسمى لبيت المقدس لمعاقل الاسماعيلية فى الشام . ورغم أن هذه الزيارة قد تمت بعد الحاج شيخ الجبل إلا أنه يبدو أن الصليبيين قد وافقوا على قبول الدعوة حتى يتجنبوا أى شرخ فى العلاقات قد يقع بينهم وبين الاسماعيلية نتيجة عن سوء الفهم الذى يمكن أن ينجم عن عدم إتمام هذه الزيارة أو عدم قبولها ، فضلا عن رغبة الصليبيين فى تدعيم علاقات الود والصداقة بينهم وبين الحشيشية تدعيما لكيانهم فى المنطقة بعد أن تبلورت حركة الافاقة الاسلامية وقتها بظهور شخصيات اسلامية بارزة أخذت على نفسها مهمة توحيد منطقة الشرق الادنى الاسلامى

---

(١) Gullaume de Tyr, op. cit., p. 797

Eracles, op cit, p. 192.

(٢) أوضح لنا دفريمرى مدى هذا التأييد أنظر :

Defrémry, op cit., p. 377.

توطئة لتوجيه ضربة قاصمة إلى بقية معاقل اللاتين في الشام . ولعل موقف شيخ الجبل من الزعيم الصليبي عندما جعله يرى بعينى رأسه كيف يطيعه فداويته طاعة عمياء حتى ولو كان في ذلك هلاكهم ونهايتهم — لعل في هذا الموقف ورد الفعل من قبل هنرى صاحب شامبانى ما يؤكد حقيقة مشاعر الصليبيين حيال الاسماعيلية ومدى المخاوف والهواجس التى كانت تنتابهم بمجرد رؤية أحد الفداوية وهو يلقى بنفسه من أعلى القلعة أو وهو يطعن نفسه بخنجره استجابة لأمر سيده .

وعلى اية حال ، إذا كنا قد اوضحنا ان كلا من الطرفين الصليبي والسنى كان متخوفا من تلك الفرقة الشيعية ، إلا ان هذا مرجعه ليس خناجر الفداوية فحسب ، بل لان السنيين كانوا يخشون ايضا تغلغل المذهب الشيعى وانتشاره بحيث يسود في يوم من الايام ويطغى على النفوذ السنى مما يؤدى إلى القضاء عليه وعلى اتباعه . كذلك كان العالم السنى يخشى قيام تحالف واتحاد يضم الصليبيين والحشيشية في جبهة واحدة مما يساعد على تشتيت الجبهة السنية وضعفها أمام القوتين المتحالفتين . وهذا هو نفس الوضع بالنسبة للصليبيين ، او كانوا يرون ان مجرد التقارب بين القوى السنية والاسماعيلية إنما يشكل خطرا داهما عليهم وعلى مصالحهم في المنطقة . ولذا كان عليهم ان يبذلوا جهدهم من اجل عدم اتاحة الفرصة لقيام اى نوع من الوحدة او التفاهم يمكن ان يجمع بينهما في صعيد واحد ونفس ما ذكرناه عن السنيين والصليبيين يمكن ان نقره بالنسبة للاسماعيلية فهم ايضا كانوا يتخوفون من اى تفاهم ولو كان وقتيا قد يتم بين اللاتين والمسلمين السنيين وهكذا كان المسيحيون الغربيون والمسلمون والسنيون يخشون فداوية الشام ، وكان الاسماعيلية ايضا يعملون بشتى السبل على الا يتم اى تفاهم بين الفريقين الآخرين .

واستكمالا لتقييم العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام فهناك عدة تساؤلات تطرح نفسها وتلح فى طلب الاجابة عنها ، وذلك حتى تكتمل الصورة من كافة جوانبها ولعل أول هذه التساؤلات هو ، هل كان ينتظر لاية اتصالات صليبية اسماعيلية أن تصل إلى نتائج حاسمة وقاطعة ؟ . مما لاشك فيه اننا إذا رجعنا قليلا الى الوراء وأمعنا النظر فى الانظمة الاسماعيلية لوجدنا ان هذه الطائفة التي اضحت قوة سياسية كبرى فى وقت من الأوقات ، والتى كان يخشاها الملوك والأمراء المسلمين والفرنج طوال مدة وجودها فى الشام ، أى منذ بداية القرن السادس حتى أواخر القرن السابع الهجرى (منذ بداية القرن الثانى عشر وحتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى) لم يكن لديها جيش قوى منظم مدرب أحسن تدريب ومزود بالاسلحة على غرار الجيش الصليبي أو الجيش السنى يمكن الاعتماد عليه فى صد الهجمات القوية ومواجهة الهزات العنيفة التى تعرضت لها طوال تاريخها ، والتى كان لها اكبر الاثر فى الحد من قوتها فى المنطقة فلم تكن أعمالها الحربية تخرج عن نطاق ما نسميه اليوم باسم العمليات الفداوية » . وهى عمليات ، مهما وسعت ، فهى محدودة ضيقة ونتائجها بالتالى غير حاسمة أو قاطعة . وبناء على ذلك لم يكن نفوذها راجع إلى وجود قوة عسكرية تحميها ، بل إلى نظام متقن يعتمد أساسا وقبل كل شىء على قوة العقيدة . فبدون هذه العقيدة القديمة التى كان يتمتع بها افراد اسماعيلية الشام والتى كانت تجعلهم جميعا يدينون بالتبعية والطاعة العمياء لشيخهم ، فلولا ذلك لقضى عليها بأكملها منذ نشأتها وظهورها على مسرح الاحداث. وبطبيعة الحال فانه لم يكن ينتظر أن يرجى أى فائدة إذا ما حدث تحالف بصورة جدية بين هذه الجماعة وبين الصليبيين فى المجال الحربى وقتذاك ، لسبب بسيط وواضح وهو ان العمليات العسكرية لا تعتمد على الاغتيالات الفردية فحسب

وهى التى يتقن تنفيذها فداوية الشام ، بقدر اعتمادها على حسن القيادة الحربية وحسن استعمال الاسلحة ووضع الخطط الحربية السليمة والقيام بهجوم او صد عدوان ، وكل هذا لم يكن اسماعيلية الشام يتمتعون به هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى لو فرض وحدث مثل هذا التحالف الصليبي الاسماعيلى فيبدوا انه ما كان ليكتب له الدوام والاستمرار لاختلاف كل منهما عن الاخر فى العقيدة والديانة والهدف فلم يكن يجمعها سوى عدو واحد مشترك متمثل في القوى السنيه الموجودة فى المنطقة . بمعنى انه لوزال هذا العدو بالنسبة الكليه لانعدمت حلقة الصلة التى تربط بين مصالح الصليبيين والاسماعيلية ولظهر الخلاف واضحا وساءوا بينهما . ورغم ذلك فقد حاول الصليبيون ، كما سبق ان اوضحنا ، اقامة اتصالات وعقد اتفاقات مع الحشيشية فى عهد راشد الدين سنان للوقوف معا فى مواجهة السلطان صلاح الدين الايوبى .

وجدير بالذكر فى هذا المقام ، أن الصليبيين إذا كانوا قد طلبوا محالفة الحشيشية ، فلم يكن ذلك بهدف الحصول على مساعدتهم فى حربهم ضد السنيين ، وإنما بهدف أن يأمنوا شرهم من جانب ، وأن يوهموا السنيين من جانب آخر بأنهم قد أضافوا على قوتهم قوة أخرى كان يخشاها كل من يسمع عنها ، الامر الذى يساعد على تحطيم الروح المعنوية والنفسية عند السنيين وادخال الرعب فى قلوبهم . وبناء على ذلك ، لم يكن يرتجى أية نتيجـــة حاسمة من وراء أى اتصال صليبى اسماعيلى ينتهي بالتحالف بينهما . والنتيجة الوحيدة التى يمكن الحصول عليها هى أن يأمنوا شرهم ويستفيدوا بطريق غير مباشر من عداء الحشيشية للسنيين ، وبذلك يحققوا غرضين فى وقت واحد

وإذا كنا قد أوضحنا مـدى افادة كل من الصليبيين والسنيين من وراء وجود طائفة اسماعيلية الشام سواء بطريق مباشر أم غير مباشر، والدور الذى قامت هذه به الطائفة على مسرح الأحداث، فما هو الموقف لو لم تظهر هـذه الطائفة بالشام وقتذاك ؟ مما لاشك فيه أن وجود الحشيشية في ذلك الوقت بالشام الذى كان فيه الصراع الصليبى السنى على أشده إنما كان يشكل خطرا كبيرا على المنطقه . هـذا ، رغم أن وجودهم قد أفاد كثيرا كلا الطرفين المتصارعين فى شتى المواقف والميادين ، وإن كانت تلك الفائدة فى بعض الأحيان غير مقصودة أو متعمدة وبدون تخطيط سابق لها ، ومن الطبيعى أنه لو لم يظهر اسماعيليه الشـام وقتذاك لتغير ميزان القوى فى المنطقة ، ولما غنم أحد الفريقين على حساب الآخر ، أو على الأقل لتغير مسار الأحـداث فى رقعة الشرق الأدنى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادين . ويحتمل بناء على ذلك أن عدم وجود للحشيشية فى منطقة كان سيشكل فائدة كبرى بالنسبة للسنيين ، لأنهم كانوا سيتمكنون من تجمع قواهم وتركيزها للقضاء على عدو واحد فقط هو الصليبيين دون أن يكون هناك أدنى خوف من غـدر الفداوية ومن خناجرهم المسمومة التى كانت تغمد فى صدور كبار قادتهم من وقت لآخر . ولربما أدى هذا إلى زيادة الانتصـارات التى حققوها على الصليبيين ، بل لربما أدى الأمر إلى سرعة استرداد بيت المقدس وغيرها من المعاقل والحصون التى وقعت فى أيدى العدو الغاشم فى وقت أقرب بكثير من الوقت الحقيقى الذى استغرق لتنفيذ هذا الهدف . فـكأن وجود الحشيشية كان بمثابة حجر عثرة فى وجه السنيين وأحد العوائق التى عرقلت الوحـدة الإسلامية التى طالما نادى بها كثير من قادتهم ، ثم تحققت أخيرا على يد السلطان صلاح الدين الايوبى فى أخريات القرن السادس الهجرى ، والأمثلة على ذلك

كثيرة تعرضنا لها على امتداد الكتاب فلولا فداوية الشام لما قتل كثير من القادة السنيين الذين بثوا الرهبة والخوف فى قلوب الصليبيين ، مثل الأمير جناح الدولة صاحب حمص وكل من مودود وآقسنقر البرسقى ، ولما تعرض السلطان صلاح الدين للمحاولتين الفاشلتين اللتين كادتا أن تطيحان بحياته وبمصير الأمة الإسلامية فى ذلك الوقت .

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من الطرفين المتصارعين فى المنطقة ونعنى به الصليبيين ، لوجدنا أنه لولا وجود اسماعيلية الشام بالمنطقه لما تمكنوا من تحقيق ماحققوه من بعض الانتصارات على السنيين خلال فترة وجودهم بالشام ، ولما تمكنوا أيضا من انتهاز الفرص التى أتيحت لهم نتيجة لعداء الحشيشية للسنين والتى استغلوها إلى أقصى حد أثناء العدوان الصليبى على الشرق الأدنى . والأمثلة على ذلك كثيرة تعرضنا لها بالتفصيل فى ثنايا الكتاب . فمثلا مقتل كل من مودود وآقسنقر البرسقى بأيدى فداوية الشام أدى إلى ارتباك كبير فى صفوف المسلمين والسنيين فى وقت كانوا يستعدون فيه لتكتيل أنفسهم وتوحيد جيوشهم ، مما شجع الصليبيين على إنتهاز الفرصة وتدعيم قواهم ومضاعفة استعداداتهم العسكرية تمهيدا لمواجهة السنيين . فكان هذا بمثابة خسارة كبيرة لقضية الجهاد الدينى واليقظة الإسلامية بقدرما هو كسب للصليبيين الدخلاء . وإلى جانب هذا يمكن القول بأنه لو قدر عدم ظهور جماعة الحشيشية فى ذلك الوقت لأفاد الصليبيين كثيرا من من وراء ذلك ، وحسبهم أنهم كانوا لن يتعرضوا للخسائر الجسيمة التى واجهوها بالفعل عقب اغتيال الكثير من كبار قادتهم من أمثال ريموند الثانى وكونراد دى مونتفرات وريموندين بوهيموند الرابع صاحب انطاكية

وطرابلس وفيليب دى مونفورت(١) إذ كان من نتائج فقدان المملكة الصليبية لهؤلاء القادة اللاتين أثرا كبيرا فى مجريات الأحـــداث ، لانه أتاح الفرصة للسنيين اللذين استغلوا الارتباك الذى حدث فى معسكر الصليبيين وتمكنوا من مضاعفة قواتهم وتدعيمها بالشكل الذى أدى إلى انتصارهم فى كثير من المعارك وبصفة خاصة أثناء الحملة الصليبية الثالثة التى كانت بقيادة الملك رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا والتى انتهى بها الأمر إلى الانسحاب والعودة إلى أوروبا مصحوبة بعار الهزيمة والفشل .

وغنى عن القول ، أن وجود اسماعيلية الشام أثنـــاء الصراع الصليبى الاسلامى كان له أثره الكبير بالنسبة للطرفين المتصارعين وتأثيره الخطير عليهما ، وإذ كنا قد توصلنا إلى نتائج هامة عند تعرضنا للموقف الذى ينتج عن عدم وجود الحشيشية فى المنطقة أثناء هذا الصراع ، فيحسن أن نلقى نظرة عريضة وشاملة للموقف الذى ينشأ إذا ظهرت تلك الطائفة فى المنطقة فى وقت لم يكن هناك فيه أى أثر للصراع القائم بين الصليبيين من جانب والسنيين من جانب آخر فمن الطبيعى انه كان لوجود الصليبيين على مسرح الأحداث أثر كبير وواضح على السياسة التى أنتهجها الحشيشية فى صراعهم ضد السنيين ، لأن مجرد أنشغال هذه القوى السنية فى توحيد الجبهة الأسلامية والتأهب لمحاربة أعدائها الصليبيين إنما يعد كسبا كبيراً لطائفة الاسماعيلية ، إذ يتيح لهـا فرصة أكبر للعمل على أضعاف المذهب السنى ومحاربته دون

---

(١) Eracles, op. cit., p 192, Chronique de Terre Sainte, Les Gestes de Chiprois, Cf R.H.C. — *Doc. Arm.*, t. II, p. 77.

وقد اشرنا الى ذلك فى الفصل الرابع

مقاومة جديه من جانبه . فضلا عن أن المعارك الحربية التى قد تنشأ بين الفريقين السنى والصليبي قد تبعد السنيين ولو قليلا عن مهاجمة الأسماعيلية أو التفكير فى القضاء عليهم وعلى قلاعهم الأمر الذى يساعدهم على مضاعفة قواهم وتغلغل نفوذهم . وبناء على ذلك فان أفتراض عدم وجود الصليبيين في المنطقة إنما يشكل خطراً كبيراً على الحشيشية خاصة وأنهم ظهروا في وقت كانت فيه الدولة الأيوبية فى عنفوانها وشبابها وعلى رأسها زعيم قوى وسياسى هو الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب . ولا شك ان تفرغ السلطان في حالة عدم وجود الصليبيين كان سيساعده كثيراً فى سرعة القضاء على هذه الطائفة حفاظا على استمرار تربع الخليفة العباسى السنى على عرش العالم الأسلامى وإقامة الخطبه له في شتى انحاء هذا العالم .

واستكمالا لسلسلة التساؤلات التى أوضحناها والتى يفرضها علينا هذا البحث من خلال تقييمنا وتحليلنا للعلاقات الصليبية الاسماعيلية ، نعود فنتساءل ماذا يعنى زوال طائفة اسماعيلية الشام فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أخريات القرن السابع الهجرى) بالنسبة للصراع الصليبى السنى القائم وقتها ؟ فاذا كان الصليبيون يشعرون بمرارة الموقف الذى ينشأ عن ابتعاد الاسماعيلية عنهم لفترة من الفترات وتفتقر بهم من السنيين خلال القرن الثانى عشر. وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى فانهم بذلك يخسرون هذه الورقة الرابحة التى يستخدمونها فى صراعهم ضد السنيين والتى يلوحون بها فى وجوههم . إلا أننا نرى أن هذا الشعور يبدو قد انتهى في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) عندما تم القضاء على اسماعيلية الشام على يد السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه فى الوقت الذى كان فيه اسماعيلية الشام يواجهون الضربات الأخيرة وفى الوقت الذى كانت فيه حصونهم وقلاعهم تتهاوى

وتتساقط الواحدة تلو الأخرى ، كان الصليبيون أيضا يعانون من الضعف والانحلال بعد أن اعتدل ميزان القوى بشكل نهائي وحاسم لصالح مصر والشرق الأدنى الإسلامى ، وأصبحوا ينتظرون الضربة الاخيرة التى تطيح بهم . وقد تم هــذا بالفعل عندما سقطت عكا فى أيدى المسلمين أيام السلطان الاشرف خليل ١٢٩١م/٦٩١ هـ ، وكانت آخر معاقل الصليبيين الحصينة التي يحتفظون بها فى بلاد الشام . ثم أن الصراع التقليدى الذى كان بين الفرنج والسنيين فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) لم يكن بذات القـوة والحماس اللذين لمسناهما فى صراع القرن الثـانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) . وأصبح الموقف لا يتطلب وجود الحشيشية على مسرح الأحداث لاثارة نوع من الصراع المذهبي التقليدي من جديد بين المسلمين فقـد كان النصر حليفا للسنيين بعد أن أصبح مركز الثقل يميل بقـوة ووضوح إلى جانبهم . ونخلص من ذلك أن وجود هذه الطائفة لم يكن ليؤثر تأثيرا جذريا فعالا على الجانب الصليبي أو يعمل على رجحان كفته .

نخلص مما سبق أن العلاقات التى كانت قائمة بين الصليبيين وإسماعيلية الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى وحتى نهاية وجودهم فى أواخر القرن الثالث عشر إنما كان أساس وجودها هو الصراع المذهبى بين الحشيشية والسنيين. وبدون وجود هذه القوى الثالثة لما قامت بطبيعة الحال أية إتصالات سلمية أو عدائية بين الطرفين الصليبي والاسماعيلي . وإلى جانب هذا فقد كشف البحث بكل وقائعه وتفاصيله أن سياسة اسماعيلية الشام تدل على المكر والدهاء والخديعـة واختيار التوقيت المناسب لضرب مصالح أعدائها كل منهم بالآخر حتى تتمكن فى النهاية من تحقيق ما تصبوا إليه . ولكن إذا كانت هذه الطائفـة قد نجحت فى الإيقاع بين أعدائها من صليبيين وسنيين ، وإذا كانت قـد افادته من

وراء ذلك إلى حد كبير ، فانها لا شك لم تنجح فى تحقيق هدفها الاساسى الذى من أجله عملت على تنمية نفوذها وقوتهـا فى المنطقة ، وهو القضاء على المذهب السنى وإحلال المذهب الشيعى محله . ولعل عدم تحقيق هذا كان لحكمة كبيرة خطها القدر ، إذ كان رحيما لم يرضى أن يكون لهذه الطائفة في يوم من الأيام شأن كبير في المنطقة ، لأنه من المحتمل إن كان قد تحقق هذا وانتصرت طائفة اسماعيلية الشام وقضت على المذهب السنى وأنصاره فى المنطقة لعملت على نشر مبادئها الهدامة ونظمها الفتاكة ولشهدت المنطقة عهدا جديداً لم تره من قبل يقوم على سياسة سفك الدماء والارهاب دون الالتزام بقواعد الدين الإسلامى على الوجه السليم ، الأمر الذى يؤدى إلى تغير مجرى الأحداث فى رقعة الشرق الأدنى خلال الفترة المتبقية من العصر الوسيط بل وحتى العصر الحـديث . ولو أنه من الإنصاف القـــول بأن تسلسل الأحداث وتتابعها ومنطق الأمور والأحوال يؤكدان بأنه لم يكن ينتظر لدعوة اسماعيلية الشام أن تحقق نصراً حاسماً على حساب العالم السنى . ويمكن إرجاع فشل الاسماعيلية فى تحقيق هذا الغرض إلى عدة عوامل أهمها أنها لم تـكن تستند إلى أسس وأركان الدولة المنظمة من حيث وجود حكومة شرعيـة وجيش قائم منظم واسطول مزود باسلحة البحار ومالية ثابتـــة يمكن الإنفاق منها على كافة مرافق الدولة . وكانت تفتقد العنصر الهـام والركن الجوهرى فى تكوين الدولة ، وهو وجود الأرض حتى تتخذ منها وطنا تمارس عليه شتى مظاهر الحياة التعاونيـة سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية وما إلى ذلك . فلم يكن مقرها إلا الحصون والمعاقل المبعثرة فوق الجبال داخل دائرة واحدة ضيقة . وبالاضافة إلى ذلك لم يكن معترفا بها بالنسبة للعالم الخارجى المعروف حينذاك . ولعل كل هذا قد أعاق قيـام تحالف قوى وفعال بينها وبين الصليبيين كثيرا فى

تثبيت أقدامهم في الأراضي المقدسة مستندين إلى إستمرار الصراع المذهبي بين الحشيشية والسنيين واشتداده من ناحية ، وإلى تأييد فعال من جانب هـذه الطائفة من ناحية أخرى .

وإلى جانب ما تقدم ، يوجد سبب آخر له أهمية كبرى بالنسبة لفشل الحشيشية في تحقيق أغراضها في ظل الصراع الصلبي الاسلامي ، وهو انهم لم يتخذوا خط سير واحد في سياستهم تجاه الطرف الصليبي . فتارة يبدون استعدادهم للتقـارب معه ، وتارة أخرى يظهرون تباعدهم ونفورهم عنه معلنين العداء بأقتراف فدايتهم عملياتهم الاغتيالية لواحد من كبار قادته . فـلو أنهم قد أظهروا تقاربهم الصادق للصليبيين لتغير الوضع بالنسبة لهم تجاه السنيين، ولربما أحرزوا بعض الأنتصارات عليهم ، ولو إنه لم يكن ينتظر أن تكون حاسمة أو قاطعة للأسباب التي أسلفناها . وفضلا عن هذا فقد كان لوجود قادة سنيين أكفاء أثره الكبير في ضعف شأن الحشيشية على مر الزمن ، وبخاصة أيام الناصر صلاح الدين الذي تمكن من أهباط عزيمتهم وعقد معـاهدة صلح معهم توقف بموجبها نشاطهم العـدائي تجاه الفريق السني . لكل هذه العوامل فشلت طائفة الاسماعيلية في تحقيق ما كانت تصبو اليه في علاقتها بكل الصليبين والسنيين في وقت كان فيه الشرق الأدنى الاسلامي يغلي كالمرجل وفوق أرضه تدور رحى حرب شرسة دامية بين عدو صلبي دخيل وبين أهل البلاد ، وفي وقت كانت فيه مفـاهيم العصور الوسطى المبكرة قد آذنت بالزوال معلنة عن بداية أوضاع جديدة ومفاهيم جديدة مغايرة .

والواقع أن تقييم العلاقات التي كانت قائمة بين الصليبيين وأسماعيلية الشام إنما ندين به لخلاصة قراءاتنا لمصادر البحث ومراجعة من عربية وأجنبية ، مخطوطة ومطبوعة، وما أكثر هذه المصادر والمنابع والأصول وما أكثر تعددهـا

وتنوعها بسبب تعدد وتنوع المشاكل والقضايا التى عالجناها . ومع ذلك فما أقل للمادة التى جاءت بهـا علينا فى موضوع كان أسهب ما كتب فيه لا يعدو بحثاً صغيراً أو دراسة مركزة أو فعالة فى بضع صفحات أو فصلا أو بعض فصل ومن هنا أيضاً تجىء أهمية هذه الدراسة التى قمنا بها . وعلى أية حال ، أن كان هناك كثير من المصادر قد كشفت بشكل ما عن حقيقة هذه العلاقات فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) ، إلا أن هناك منابع على جانب كبير من الأهمية ونعنى بها المنابع الأدبية وماتتضمنه من شعر ونثر وقد ساعدتنا كثيراً فى توضيح بعض النقاط التى تكشف عن حقيقة هذه العلاقات . فضلا عن أعتبارها جانبـاً هـاما من الجوانب التى خدمت هذه الدراسة . أما بالنسبة للشطر الأول من المصادر الأدبية وهو الشعر فقد عثرنا على بعض من الأبيات التى أرسلها راشد الدين سنان إلى صلاح الدين الأيوبى أثناء أشتداد الصراع بينهما . (١) ويتضح من هذه الأبيـات قوة الأسلوب الذى كان يتمتع به شيخ الجبل حينذاك ، فضلا عن أنهـا تكشف عن الثقة الكبيرة التى كان يتمتع بهـا هذا الزعيم الأسماعيلى والتى يمكن أن نردها إلى أحد عاملين أولهـما أعتماده على فداويته بوصفهم القوة التى يمكن أن تخيف السلطان وتجعله يعـدل عن سياسته العدائية تجاه الأسماعيلية ، وثانيهما أستناده على وجود تقارب بينه وبين الصليبيين يساعـده فى التغلب على السلطان السنى أن وصل الأمر إلى ثورته وغضبه من كلمات التهديد الموجهة اليه وإصراره على مهاجمة الحشيشية . أما بالنسبة للجانب الآخر من المصادر الأدبية وهو النثر ، فلدينا نموذجا هـاما كشف عن طبيعة

---

(١) مصطفى غالب : أعلام الاسماعيلية ص ٣٠٢ ، كما تعرضنا بالتفصيل لذكر هذه الأبيات فى الفصل الثالث

العـلاقات والاتصالات بين الصليبيين وأسماعيلية الشام ، فضلا عن أنه يوضح طبيعة أسلوب العصر فى ذلك الوقت وتمثل هـذا النموذج في خطـاب شيخ الجبل سنان الموجه إلى ملوك أوروبا والذى يثبت فيه براءة المـلك الأنجليزى رتشارد قلب الأسد من تهمة التحريض على مقتل المركيز اللاتيني كونراد دى مونتفرات . (١) ونستنتج من هذا الخطاب العديد من المسائل الهـامة فى خط سير العلاقات الصليبية الاسماعيلية خلال الفترة موضوع البحث . أولها أن الصلة التى كانت قائمة بين الطرفين تتسم بالأستقرار والصفاء ، لأنه لولا هـذا لمـا أرسل شيخ الجبل الخطاب المذكور يوجه فيه التهمة إلى نفسه إلى أتباعـه باعتبارهم الجنـاه الحقيقيين فى حادثة أغتيال المركيز وينفيها عن ملك إنجلترا . وثانى هذه المسائل ، أن الحشيشية فى ذلك الوقت كانوا يتمتعون بقوة إرهابية هائلة وذلك أعتباراً من بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) من ناحية ، وبثقة الصليبيين من ناحية آخرى . ولولا هـذا لمـا تجرأ شيخ الجبل من أن يعلن أمام كافة الدول الأوروبية عن مسئوليته فى مقتل الزعيم الصليبى دون أى رهبة من أنتقام الصليبيين وأهل الغرب . وجدير بالذكر ، إلى جانب ما تقدم ، أن الملك رتشارد عندما طلب من شيخ الجبل العمل على أثبـات براءته من التحريض على مقتل كونراد بالكتابة إلى جميع ملوك أوروبا ربما يكون قد وعد شيخ الجبل وأتباعه بحمايته من أية محـاولات أنتقامية قد يتعرض لهـا من قبل الصليبيين الغربيين عمومـاً و لدليل على ذلك أننا لم نسمع بالفعل عن ردود فعل لهـــذه الواقعة بالذات ، وذلك بعكس ما لقيه الحشيشية من أنتقام شديد عقب أغتيالهم الأمير ريمو ند الثانى .

(١) Roger of Wendover, op. cit., t. II, p. 29.

انظر أيضا فى شأن هذا الخطاب تفصيليا الفصل الرابع

وكيفما كان الأمر يمكن القول بأن الحشيشية كانوا قوة لهـا شأنهـا وخطرها وتأثيرها في المنطقة ، وقد تمكنت من بث الرعب في قلوب الأعـداء والأصدقاء على السواء ، ولم تخشى أيا من القوتين الآخرتين في المنطقة ونعنى بها الصليبيين والسنيين . فضلا عن أن وجودهـا على مسرح الأحداث قد ألقى مزيداً من الضوء والأهتمام الذى وجه لمجريات الأحداث التي كانت المنطقة مسرحا لها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (القرنيين السادس والسابع من الهجرة) ، الأمر الذى جعل كلا من طرفى الصراع الصليبي والسنى يتنافس من أجل التمتع بصداقة الاسماعيلية بالشام وكبيرهم حتى يأمنوا شرهم ، ويضمنوا حيادهم أثناء هذا الصراع الدامى العنيف الذى يعتبر من أبرز خصائص الحقبة الوسيطة من التـاريخ الوسيط ، بل ومن أبرز الظواهر الهـامة في التاريخ بصفة عامة .

الخاتمة

أهم الاستنتاجات التى أمكن التوصل اليها – أهم المشاكل والقضايا التى عولجت فى البحث – الجديد فى الموضوع – العلاقات الصليبية الاسماعيلية فى القـــرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) نهاية اسماعيلية الشام على يد الظاهر بيبرس وآثاره

تناولنا فى الفصول السابقة الأوضاع التي سادت بـلاد الشام طوال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) ، وكيف كان تاريخ الاسماعيلية مختلطا بتاريخ الصليبيين والسنيين بحيث اضحوا قوة سياسية لا يستهان بهـا وسلاحا فتاكا يرهب الاصدقاء والاعداء . فبات كل الأمراء الصليبين والمسلمين يخافون بطشهم ويحسبون حسابهم وذلك بسبب سياستهم التى تقوم على الفتك بمن يعترضوم فى سبيل تحقيق غاياتهـم الشخصية ومنافعهم الذاتيـة ، تلك التى راح ضحيتها كثير من الزعماء السنيين وكبار الفرنج على السواء .

ويتضح من دراساتنا السابقة أن تاريخ اسماعيلية الشام يعد جانبا هامـا من جوانب الصراع الطويل بين الشرق والغرب خلال الفترة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، وهى فى الواقع مرحلة كيانها ومقوماتها الخاصة لها . وأن الباحث المرقق فى تاريخ الطائفة الاسماعيلية يجـد أن جذورها تمتد إلى القرن الثانى الهجرى (القرن الثامن الميلادى) عندما انتسبت إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . ولكنها كانت فى بداية الأمـر عبارة عن حركة مذهبية دينية تهدف إلى نشر مبادئها فحسب بالشكل الذى يضمن للمذهب الشيعى الدوام والبقاء دون أن يكون لها أي أهداف سياسية ودون أن تتجه إلى تكوين دولة يصبح لهـا الشأن الكبير بالنسبة للعـالم الأسلامى المعروف وقتذاك ، مثلما حدث فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) على يـد شيخى الجبل الحسن بن الصباح فى فارس وراشد الدين سنان فى الشام كما سبق أن اوضحنا ويمكن القول أن تاريخ الحركة الاسماعيلية فى الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى هو امتداد لبداية تاريخ الطائفـة الاسماعيلية فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) ، ولـكن فى صورة جديدة وثوب مغاير إذ تستروا تحت اسم الدين والرغبة فى نشر مبادىء المذهب الشيعي لتحقيق غاياتهـم ، في وقت

كان فيه للدين مكانته التي لاتخفى على أحد .

على أية حال ، لقد أدى وجود طائفة اسماعيلية الشام إلى احتكاكها بالقوى التي كانت موجودة على مسرح الأحداث فى ذلك الحين ، ونعنى بها الصليبيين والمسلمين السنيين . وحدث اختلاط وتشابك بين هـذه الاطراف الثلاثـة ، بحيث لا يمكن للمتصدى لتاريخ الحركة الصليبية فصل أحد هـذه الاطراف الثلاثة عن الطرفين الآخرين أو غض الطرف عن أى منها وقـد اتضح أن العلاقات بين هذه الفرقـة الهدامة والطرفين الآخرين لم يكن يسودها التفاهم والود التأمين ، وانما كانت تارة تتخذ مع الصليبيين للوقوف معـا ضد هجمات السنيين بقصد اضعافهم واضعاف مذهبهم ، وتارة أخرى تؤازر المسلمين السنين ضد الفرنج فى المنطقة ، بمعنى انها كانت تتقلب فى خدمة الاصدقاء والاعداء حسبما تمليه عليها مصالحها الخاصة . ولكن مع ذلك لم تتمكن طائفة اسماعيلية الشام من تحقيق غرضها المنشود والذى طالما نادت به من أجل تحقيقه وهو نشر المذهب الشيعي والقضاء على المذهب السنى .

وقـــد واجهتنا أثنـاء دراستنا بعض المشاكل والقضايا التى تمس النظم الاسماعيلية والتى كان لهـا تأثير مباشر أو غـير مباشر على مجرى العـلاقات الصليبية الاسماعيلية من ناحية ، وعلى الاتصالات السنية الاسماعيلية من ناحيـة أخرى . وتوصلنا فيها إلى استنتاجات تسد فجوات وترد على التساؤلات التى قد تجول فى اذهان الباحثين . ومن أهم هـذه القضايا التى تصدينا لها أصل وجود جنة الحشيشية ومدى ارتباط وجود هـذه الجنة بالطاعة العمياء التى يقدمها الفداوية إلى شيخ الجبل . وانتهينا إلى أن هذه الجنة لم يكن لها وجود إلا فى خيال مؤسسها الحسن بن الصباح فقط ، وظل الفداوية بعـد وفاة ابن الصباح يتوارثون الخلف عن السلف خيال الجنة ووضعها وفكرة وجـودها

حسبما أوهمهم بها زعيمهم بحيث أصبحوا مقتنعين بوجودها ويعيشون على أمل دخولها إذا قدموا طاعتهم العمياء لشيخهم دون أدنى تردد أو تفكير ، بحيث أصبح أملهم في دخـــول الجنة وايمانهم بضرورة طاعة الزعيم تنفيذا للعقيدة الاسماعيلية هما الحافزين القويين لتقديم الطاعة العمياء لشيخ الجبـــل وتنفيذ أوامره دون أى تردد (١) .

كذلك ناقشنا مختلف الآراء التى ثارت حول تسمية طائفة اسماعيلية الشام « بالحشيشية » وخلصنا إلى استبعـاد تسميتهم بهـذه التسمية نسبة لتعاطيهم الحشيش ورأينا أن هذه التسمية ربما تكون قد أتت نتيجة لتعاطى أحـد زعماء الطائفة مادة الحشيش ولو علنا أمام اتباعه بوصفة الامام المعصوم من كل مايرتكبه . ونظرا لأن المتعاطى لهذه المادة يعرف باسم الحشاش فان الحشيشية تعنى اتباع الحشاش لا أكثر ولا أقل (٢) .

هذا بالاضافة إلى مسائل أخرى عديدة قمنا بمناقشتها عند عرضنا لموضوع البحث وعلى أية حال ، إذا كنا قد توصلنا إلى هذه النتائج والحقائق فـلم يكن هذا إلا بعد مجهود شاق وضخم بين ثنايا سطور المصادر الأجنبية القديمة المعاصرة للفترة موضوع البحث أو المتأخرة عنها زمنيا التى مازال بعضها بلغتـه الاصلية ولم يترجم بعد إلى اللغات الحديثه ، فضلا عـن المصادر والمخطوطات العربية والتى لم ير بعضها ضوء النشر والطباعة بعـــد . وذلك لأن موضوع البحث يكتنفه الكثير من الغموض لقلة المادة التاريخية التى كتبت عنـه وخـلو

---

(١) ناقشنا مختلف الاراء فى هذا الموضوع فى الفصل الأول

(٢) يمكن الرجوع الى الآراء التى قيلت فى شأن تعدد اسمائهم الى الفصل الأول

المكتبة العربية والأوربية على حد سواء من كتاب مستقل بذاته يضم حوادث العلاقات التى كانت تربط بين اسماعيلية الشام والصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) .

وأما عن العلاقات الصليبية الاسماعيلية نفسها ومدى ما حققته من نتائج خلال الفترة موضوع البحث ، فيمكن القول أنها لم تحقق الكثير ، أو بكلمة أخرى أدق وأوضح فى التعبير لم تحقق تطورا حاسما فى العلاقات بين الصليبيين الغربيين وبين اسماعيلية الشام ، وكل ماهنالك وفادات من الرسل والسفارات وتبادل المراسلات والمكاتبات فى بعض الأحيان ، والى جانب التهديد من قبل الحشيشية والتلويح باستخدام الخناجر المسمومة أحيانا أخرى ، إلى جانب الاجهاز على عدد من زعماء الفرنجة إذا كانت مصلحتهم تقتضى ذلك . ولكن هذه العلاقات على أية حال لم تسفر عن رابطة قوية بين الطرفين قد يمكن أن تؤثر تأثيرا فعالا على مجرى الامور فى منطقة الشرق الأدنى .

وثمة نتيجة أخرى هامة توصلنا اليها هى أنه لم تكن هناك أية علاقات ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية بين الصليبيين وبين الحشيشية فى الشام وكل ماهنالك تلك الاتصالات السياسية التى اسلفنا اليها .

ومهما يكن من أمر ، فقداستمرت طائفة الاسماعيلية بالشام تواصل نشاطها وسياستها التى خططتها لنفسها خلال القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) بنفس التخطيط الذى كانت تسير عليه فى القرن السادس الهجرى ، بحيث أصبحت عاملا مؤثرا فى حوادث العصر وتطوراته . وبناء على ذلك حاول الحشيشية أن يغتنموا فرصة وجود الملك الفرنسى لويس التاسع بالأراضى المقدسة وهو منهوك القوى بعد هزيمته فى مصر على يد المماليك البحرية يظهروا على مسرح السياسة من جديد ، وليحاولوا إرهابه حتى يخضع

لهم ويقوموا بنفس الدور الذى قاموا به فى مناسبات سابقة خلال الحروب الصليبية المتقدمة (١) إذ بادر شيخ الجبل بسورية بارسال سفارته إلى الملك لويس فى عكا ٦٤٧هـ/١٢٥٠م يطلب منه المبادرة بتقديم فروض الولاء والطاعة له. (٢) واستقبل الملك لويس هـــذه السفارة استقبالا حسنا، وأثناء اجتماعه بافرادها كان رئيس الوفد يجلس فى المقدمة ويرتدى زيا حسنا ودرعا كاملا ومن خلفه شاب آخر يمسك فى يده ثلاثة خناجر يتداخل بعضها فى بعض، ووقف خلفه شاب ثالث ومعه قطعة مـــن القماش لفها على زراعه وتدل على أنها كفن للملك إذا رفض مطالب شيخ الجبل أو فكر فى معاداته (٢). وبدأ رئيس الوفد اجتماعه مع الملك الفرنسى بأن سأله، عن لسان سيده، عما إذا كان يعرفه أم لا؟ فأجابه الملك بأنه سمع عنه والفرصة لم تتح له برؤيته. فأبدى الرسول الاسماعيلى دهشة كبيرة لعدم مبادرة الملك الفرنسى بارسال الهدايا الثمينه اليه لكسب صداقته طالما سمع بوجوده، وذلك كما فعل غيره من كبار رجال الغرب والشرق. ثم انهى حديثه قائلا للملك بأنه إذا لم يتمكن من فعل هذا فعليه اصدار أمره بأعفاء شيخ الجبل من الجزية السنوية المفروضة عليه من قبل جماعتى الداوية والاسبتارية. واستمع الملك الفرنسى إلى هـذه

---

(١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٢٨.

Rothelin, Dite du Manuscrit de Rothelin, Cf. R. H. C. H. Occ, t. II, 621, Cf also Grousset, op. cit., t. III, p. 516.

(٢) مذكرات جوانفيل – ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ٢٠٣ – ٢٠٤، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على الشام ص ٢٣١. أنظر أيضاً كتاب روتلان فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية.

Rothelin, Cf. R. H. C. H. Occ., t. II, p. 624.

ألهجة الغريبة دون غضب ، ولم يشأ أن يرد علـــى المندوب الاسماعيلى فيما طلبه إلا فى جلسة أخري حتى يتسنى له بحث الامرمع مقدمى هاتين الجماعتين الرهبانيتين . (١) وعبدما عقدت الجلسة الثانية التى حضرها مقدم الاسبتارية وليم دى شاتوف ومقـــدم الداوية رينو دى فيشيه نركانت فى مساء نفس اليـوم ، طلب الملك من الرسول الاسماعيلى إعادة مطالب سيده فلم يشأ ذلك ولكنه اضطر مكرها أن يكرر ماسبق أن طلب من الملك فى الجلسة السابقة تحت ضغط رئيسى الجماعتين . وعند ذاك طلب مقدما هاتين الجماعتين مقابلة هذا الرسول فى دير الاسبتارية بعكا صباح اليوم التالى لدراسة الامـر . (٢) وفى الموعد المحدد تمت المقابلة الثالثة دون وجود الملك الفرنسى . وفيها لاماه بعنف وتوبيخ وابديا دهشتهما على تجرأ شيخ الجبل فى توجيه مثل هـذه المطالب إلى الملك ومخاطبته بهذه الهجة العنيفة المهينة بكرامته ، وأخبراه بأنه لولا مراعتهما الملك الفرنسى لإغراقه هو ومن معه فى بحر عـكا دون مراعاة لشيخهم ، ثم أنهيـا الحديث بتكليفه بالذهاب إلى سيده فوراً على أن يعود خلال عشرة أيام محملا بالهدايا الثمينة فضلا عن خطابات الاعتذار والمودة إلى الملك الفرنسى حتى يتم الصفح عن الاسماعيلية ومقدمتهم (٣) .

---

(١) مذكرات جوانفيل ــ ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ٤ : راجع كذلك :
Michaud, op. cit., t. II, p. 467, Defrémery op. cit., p. 475.

(٢) مذكرات جوانفيل ــ ترجمة الدكتور حسن حبشى ــ ص ٢٠٥ ومن المراجع الاجنبية أنظر :

King, op. cit., P. 249.

(٣) Michaud, op. cit., t. II, p. 267. Defrémery.

أنظر كذلك جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٣٧ .

ولما علم الشيخ الاسماعيلي من رسله بما تم في هذه المحادثات قرر بعد تفكير عميق أرسال بعثة أخرى للملك تحمل له ما يسره وتجعله ينسى ما صدر منه . ولعل ما أراده شيخ الجبل من وراء ذلك هو السير على نفس سياسة أسلاف شيوخ القرن الثاني عشر الميلادي والتي تنحصر في الجرى وراء مصالحهم ومصالح أتباعهم فحسب ولو أدى ذلك إلى التحالف مع الاعـداء ، والتقلب بين مختلف القوى والأطراف المعينة في رقعة الشرق الادنى ولقد وجد مقدم الاسماعيلية حينذاك أن مصلحته في التفاهم مع الصليبيين في هذه الظروف التي كان يجتازها الشرق الادنى الاسلامى حيث كان السنيون في مصر والشام منقسمين على أنفسهم ، وكان الملك الفرنسي يسعى لإثارة حملة صليبية جديدة مستغلا هذا التفكك الاسلامي الأمر الذي يؤدى إلى أضعاف الجبهة الإسلامية والإبقاء على الكيان اللاتيني المتـداعي في الشرق وإيجـاد حالة من التوازن كان الفرنج بالشام في أمس الحاجة اليها . هذا ، ومن المحتمل أيضا أن يكون شيخ الجبل قد أضطر إلى طلب صداقة لويس التاسع لأن طائفة الاسماعيلية في هذا الوقت كانت قد أنهكت قواها ووصلت إلى طور الشيخوخة ، ووجدت من الضعف بديلا للقوة التي كانت تتمتع بهـا في القرن السابق والتي أتاحت لها القيام بدور فعال فوق رقعة الشرق الأدنى ، مستغلة الصراع الصليبي الاسلامى لتحقيق أطماعها وتنفيذ مآربها وغاياتها .

ومهما يكن من أمر ، فقد وصل رسل شيخ الجبل إلى الملك لويس في عكا وأحضروا معهم قميص زعيمهم هدية إلى المـلك قائلين نيابة عن شيخهم — انه لما كان القميص أقرب إلى الجسد من أى ثوب آخر فان هـذا يعنى أن شيخ الجبل أصبح بعد المـلك أقرب إلى نفسه من أى ملك آخر . وفضلا عن ذلك قدم الرسول الاسماعيلي للملك خاتم شيخ الجبل وهو من الذهب الخالص

ومنقوش عليه أسمه بالإضافة إلى كثير من التحف الثمينة (١) . وأستقبل الملك هذه السفارة بكل أرتياح ، وبادل زعيم الاسماعيلية بهدايا ممـــاثلة تعبيراً عن رضائه عنه ومودته له . ومن بين هذه الهدايا مجموعة من المجوهرات ، فضلا عن أقمشة قرمزية وحريرية و كؤوس فضيه وذهبية . وقد رافق هذه البعثة المرسلة من المـــلك الفرنسى للشيخ الاسماعيلى أحد الرهبان الدومنيكان ويدعى إيف لبرتون وكان يتقن اللسان العربى (٢) .

ولا يستبعد أن يكون الموقف الحرج الذى واجهه المـلك لويس من قبل السنيين فى مصر والشام هو الذى جعله ينظر بعين الود إلى الاسماعيلية ، ويعمل على محالفتهم مستغلا فى ذلك العداء المذهبى العتيق بينهم وبين أهل السنة ، خاصة وإنه كان يسعى لتأليف حملة صليبية جديدة فى الشام تعوض هزيمته التى منى بها فى مصر . ولقد اختلف المؤرخون المحدثون فى نتائج تبادل الرسل الهدايا بين الطرفين اللاتينى والاسماعيلى فمنهم من قال إنه يعتبر مظهراً من مظاهر التحالف الفعلى بينهما ، بينما راى البعض الاخر ان إيف ابرتون قد اخفق فى مهمته وعاد دون ادراك الهدف . ولكن طالمـا لا يوجد تحت إيدينا ما يفيد صراحة هذا الشأن ، فلا يمكن أن نحكم على ما تم حكماً نهائياً قاطعاً وأما بشأن تبادل الرسل بين الطرفين فلا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع التفاهم والسود بينهما . ولا يمكن ان نذهب إلى ابعد من ذلك حتى الآن عسى ان يكشف لنا الزمن عن نصوص

---

(١) مذكرات جوانفيل — ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ٢٠٦ ، ميشيل لبـاد : الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصياف ص ١١٠ أنظر أيضا :

Michaud, op. cit., t. II. p. 567; Daussaud. la Syrie, Planch 123 Conder . oh, cit, p. 360.

(٢) مذكرات جوانفيل — ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ٢٠٧.

ووثائق جديدة قد تأتي مزيداً من الضوء على هذه الفترة الغامضة في تاريخ العلاقات الصليبية الاسماعيلية . ثم انه لو كان قد تم إتفاق فعلى بين الطرفين لبادر المؤرخ جان دى جوانفيل بذكره في مذكراته عن لويس التاسع (١) ، خاصة وان جوانفيل كان ملازما الملك لويس طوال إقامته في مصر والشام التي دامت قرابة ست سنوات لا يكاد يفارقه لحظة واحدة .

على أية حال ، رغم هذا الود المتبادل بين الطرفين الذى فرضته احداث أواسط القرن الثالث عشر في منطقة الشرق الادنى إلا ان الصليبيين مضوافترة وجودهم في الشام وهم في حالة من الرعب والفزع من الفداوية وخناجرهم خاصة وان الملك لويس ربما يكون مازال عالقاً في ذهنه محاولة اغتياله في فرنسا على يد الفداوية ١٢٣٦ م / ٦٣٣ هـ . (٢) وتذكر المصادر انه في احد الايام أثناء أقامة الملك لويس في صيدا التي أمتدت من يوليو ١٢٥٣ إلى يوليو ١٢٥٤ م / (٦٥٠ — ٦٥١ هـ) لترميم أستحكاماتها خرج مع جوانفيل للتنزه فوق صهوة جواديهما ولكنهما صادفا في الطريق أحد القساوسة يعلوا القداس في إحدى الكنائس فأنتظرا ليسمعاه . وعندما بلغوا الجزء الذى يعرض فيه الصليب للتقبيل شك جوانفيل في الكاهن الذى يعلوا القداس واعتقد انه أحد فداوية شيخ الجبل ولذا لما جاء دور الملك لتقبيل الصليب أسرع وأخذه

(١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على الشام ص ٢٤٨ أنظر كذلك :
Campbell. op. cit p. 431.

(٢) A. O. L. , 626; Defrémery. op. cit., p. 42
أنظر أيضا فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ٢ ص ٢٤٧.

من الكاهن وحمله بنفسه إلى مليكه خوفا على حياته (١) . وان دل هذا على شيء فانما يدل على أرقى مراتب الوفاء والاخلاص من قبل جوانفيل لمليكه ، كما يدل على مدى تخوف اللاتين من شيخ الجبل وفداويته .

وجدير بالذكر في هذا المجال انه لم ترد اية اشارة سواء فى المصادر العربية المعاصرة أو المتأخرة زمنيا عن هذا السفارة . ولعل هذا راجعا إلى أحد أمرين : أما أن المؤرخين السنيين قد تجاهلوا عن عمد أمر هذه السفارة لما بينهم وبين الشيعة من عداء وتناحرا فضلا عن نظرتهم إلى هذه الطائفة نظرة رعب وتوجس . أو تكون هذه المحادثات قد تمت بطريقة شفهية على سريتها وحتى لا تقع في ايدي السنيين وينفضح أمرها . (٢) كما انه من الواضح انه لم يذكر اسم شيخ الجبل الذى ارسل سفارته إلى الملك الفرنسي في عكا والذى استقبل مبعوثه فيما بعد . ولكن بالبحث تمكن حصره في شخصين ، وذلك بناء على النقوش التى عثر عليها احد علماء الاثار واسمه فوسية Fossey في خريف ١٨٩٦ — اثناء جمعه لنصوص اليونانية الموجودة فى سورية ، حيث وجد نقشين هامين على الباب الجنوبي لمدينة مصياف يرجعان إلى ٦٤٦ ﻫ / ١٢٤٩ م ، وكل منهما مكمل للاخر . فقام بتصديرهما ووضعهما تحت تصرف الباحث المعروف ماكس فان برشيم Max Van Berchem الذى قام بدراستها(٣). والنقش الأول نصفه كالآتى : « أمر بعمارة سورمدينةمصياف وعمل هذا الباب المبارك الولى وصاحب تاج الدنيا والدين أبو الفتوح بن محمد أعز الله نصره » . أما النقش الثانى فينص على « بولاية أحد عبيد الدعوة

---

(١) جوزيف نسيم ' العدان الصليبى على الشام ص ٢٤٩ .

(٢) جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٢٢٩.

(٣) Berchem, op. cit., p. 54 , 496.

السادية عبد الله بن ابى فضل بنى عبد الله رحمة الله فى شهر ذى القعدة سته وأربعين وستمائة » .

وواضح ان هذين النقشين يرجعان إلى ذى القعدة سنة ٦٤٦ هـ أى فيما بين فبراير ومارس ١٢٤٩ م وفق ما أنتهت اليه الدراسات التى قام بهـا ماكس فان برشم ، بينما ترجع بعثة شيخ الجبل إلى لويس فى عكا فيما بين سبتمبر وديسمبر سنة ١٢٥٠ م / جمادى الأول وشعبان ٦٤٨ هـ .

ونظرا لأن أبا الفتوح بن محمد تولى منذ ٦٠٧ هـ / ١٢٢٩ م وحتى ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩ م وذلك طبقا لما أورده زامباور عند استعراضه لاسماء شيوخ الجبـل فى سورية فاننا نرى أنه من الطبيعى أن أبا الفتوح بن محمد ليس هو شيخ الجبل المقصود الذى تبادل السفارات مع الملك لويس فى الشام ، وإنما من خلفـه فى الرياسة . ولكن مما يؤسف له أنه توجد فجوة فى أسماء شيوخ الجبل فى سورية فيما يبين وفاة أبى الفتوح بنى محمد ١٢٤٩ م وتولية شيخ الجبل رضا الدين أبى المعالى ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م(٢) . أى أن هناك فجوة فى سلسلة شيوخ الجبل فى بلاد الشام تقدر بحوالى عشرة سنوات ، لا تسعفنا المصادر والوثائق والأصول والنقوش التى تحت أيدينا حتى الآن باسماء من قولوا الدعوة فيها من مقـدمى الاسماعيلية وسواء كان هذا أم ذاك ، فان لويس التاسع ضمن بصداقة شيـخ الجبل الاسماعيلى المجهول الاسم حتي الآن حيادة فى الصراع السيـاسى الدائر بينه وبين المسلمين السنيين فى مصر الشام فى ذلك الحين .

---

(١) زامباور : معجم الانساب حـ ٢ ص ٢٢٩ أنظر أيضا :
Berchem. op. cit.. p. 99.

وإذا كان الانصال بين الصليبيين والحشيشيه فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى(أواسط القرن السابع الهجرى) قد تم فى صـــورة تبادل الرسل والسفارات، فان المؤرخ فليكس فابرى Flix Fabri يذكر نوعا آخرا وغريبا من الاتصال بين شيخ الجبل والصليبيين إذ يوضح أن شيخ الجبل اتخذ من الحملات الصليبية فى أوائل هذا القرن وسيلة لتدعيم دعـوته وبث الدعاة من طريقها فى شتى الارجاء . وكان ذلك عندما تقرب زعيم الاسماعيليـة بالشام فى حوالى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١٢ م إلى اثنين من القساوسة المنشقين عن الكنيسة اللاتينية والبارعين فى تحضير الأرواح والتعميق فى العلم، ثم سجنهما وأعلن لهما بانه سيخلى سبيلهما إذا مابشرا بخروج حملة صليبية للاراضى المقدسة قـوامها كثير من أطفال ألمانيا وفرنسا بعد الايحاء لهم بان الله قد أوضح عدم إعاده الأراضى المقدسة الا على يد أطفـال أبرياء ومن هنا قامت الحملة المشهـورة فى التاريخ باسم حملة الأطفال ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م والتى كان مصيرها الفشل الذريع كما هو معروف فى التاريخ إذ غرق عدد منهم ومات البعض الآخر ، وتم بيع البعض الثالث فى أسواق الرقيق ، أما من تبقى فقد عادوا إلى ذويهم(١). وقبل أن هدف شخ الجبل من وراء هذه الحملة هو اعتماده على قـوادها وقساوستها المرافقين لها ليكونوا بمثابة مبعوثين له طوال حياتهم هذه (٢). ويجب تقبـل هذه الرواية بشيء من التحفظ والحذر ، خاصة وانه لم يرد ذكرها فى أى من المصادر الأخرى المعاصرة . ويبدو أن شيخ الجبل ـ أن صحت هذه الرواية ـ

---

(١) Fabri, The Book of the Wanderings, Of. Palestine Pilgrims, Text Socicty, t. II p. ؛51.

(٢) A.O.L., t, p. 6؛6

كان يهدف من وراء هذه الحملة إلى أمرين أولهما أن يعمل على تربية هؤلاء الأطفال وتدريبهم تدريبات شاقة ليكونوا أساسا لتدعيم جماعة الفداوية بهم . وثانيهما أن ينشغل المسلمون السنيون بمجيء هذه الحملة الأمر الذى يساعده على تحقيق مطامعه فى المنطقة على حساب الصراع الصليبي السنى الذى ينجم عن وصول هذه الحملة الى الأراضى المقدسة .

وهذه كلها مجرد فروض واحتمالات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث خاصة وان الحقائق الكاملة لم تنكشف حتى الان عن حقيقة حملة الاطفال وحقيقة أهدافها وأسبابها وكل مايعرف عنها بصفة قاطعة هى النتيجة التى وصلت اليها .

لم يقتصر اتصال الصليبيين بالحشيشية فى الشام فى هذا القرن على ماتقدم ذكره ، وإنما كان هناك لون آخر من الاتصالات بينهما يتمثل فى إغتيال الفداوية لكبار القادة الصليبيين من أمثال ريموند بن بوهيمند صاحب انطاكية وطرابلس وفيليب ذى مونفورت صاحب صور ومحاولة قتل الملك إدوارد الأول ملك انجلترا وذلك فى ضوء التفصيلات التى سردناها من قبل فى هذا الشأن [١] . ولقد استمر اسماعيلية الشام بعد هذا يواصلون سياستهم تجاه السنيين والصليبيين بنفس الأسلوب وعلى نفس المنهج إلى أن انتهى أمرهم على يد الظاهر بيبرس ١٢٧٣ م/ ٦٧١ هـ .

ورغم أن موضوع البحث يقتصر على اسماعيلية الشام ، إلا أننا نرى أنه من المناسب أن نشير فى عجالة إلى نهاية أمر الدولة الأم فى الموت على يد المغول، إذ أن نهاية الدولتين كانت فى وقت متقارب والاسباب متشابهة وفى ظروف

---

(١) أنظر ماسبق بالفصل الرابع

متقاربة لمن المعروف ان الاسماعيلية ظلوا طوال تاريخهم معتصمين فى قلاعهم منذ ٤٨٢ هـ / ١٠٩٠ م حتى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى) دون أن يتعرضوا لأى غزو خارجى عليهم أو يقضى على قلاعهم سواء كان فى الموت بفارس أو مصياف بسورية (١)، ولكن الوضع تبدل هنا بالنسبة للاسماعيلية فى فارس بظهور المغول فى آسيا . فلم يكن القائد المغولى هولاكو يحتمل الشكل الذى كانت عليه الطائفة الاسماعيلية من ناحية تهديدها للامراء والحكام والمجاورين وجمع الاتاوة منهم ، فضلا عن أن أملاك ركن الدين خورشاه شيخ الجبل كانت تقع ضمن مقاطعات المغول ولذا فكر فى الإغارة عليهم وتدميرهم (٢). هذا رغم ما قاله البعض ان سبب غزوة المغول للاسماعيلية هو تجرأهم على قتل ابن جنكيزخان المغولى (٣).

ومهما كان الأسباب التى ادت الى الاغارة عليهم ، فقد حاصرت جيوش المغول قلاع الاسماعيلية الموجودة فى فارس فى شعبان ٦٥٤هـ/سبتمبر ١٢٥٦م واستطاعت الاستيلاء على خمس قلاع منها ثم تخريبها ، فضلا عن أنهم قتلوا الكثير من سكانها . وارسل هولاكو إلى شيخ الجبل — يهدده بانه إذا لم يحضر بنفسه اليه خلال خمسة ايام فليستعد للحرب ، ويبدو أنه خاف على حياته فذهب اليه . فلما علم سكان قلعة الموت بذلك قاموا بتسليمها إلى المغول المحاصرين لهم ، وكان ذلك فى شوال ٦٥٤ هـ/ نوفمبر ١٢٥٦ م . وبعد

---

(١) Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, p. 284.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١١٤ أنظر أيضا :
Marco - polo, Traveles p. 77.

(٣) Treeece op. cit., p. 195.

ذلك سقطت جميع القلاع الباقية فى المنطقة فى ايدى المغول وقاموا بحرق المكتبة الكبرى للاسماعيلية الموجودة فى الموت والتى كانت تحتوى على عدد كبير من الوثائق والأعمال الفلسفية وكتب العقائد (١). ولم يكتف هولاكو بتشتيت شمل الاسماعيلية فى فارس ، بل ارسل الى ركن الدين خورشاه يطلب منه الكتابة إلى داعية بالشام وكان وقتذاك ابا المعالى رضا الدين بأمره بتسليم قلاع الدعوة الموجودة هناك الى المغول . ولكن ابا المعالى رفض الامتثال لذلك الامر واعلن المقاومة . فما كان من هولاكو الا أن شن هجوما عنيفا على هذه القلاع واستولى على بعضها ٦٥٨هـ/١٢٦١ م. ولكن شيخ الجبل تمكن من ان يسترد القلاع المغتصبة منه منتهزا فرصة تشتت شمل الجيش المغولى فى الشام اثر هزيمة بجتة امام الجيش المصرى فى موقعة عين جالوت (٢).

وإن دلت هذه الحوادث على شيء فانما تدل على مدى الضعف الذى وصل اليه الاسماعيلية فى فارس بعامة وشيخ الجبل هناك بصفة خاصة فى تلك الحقبة من الزمن . وتدل أيضا على قوة الشخصية التى كان يتمتع بها شيخ الجبل فى سورية حتى لقد بلغ به الأمر أنه أصبح يطرح أوامر السلطة العليا فى الموت جانبا دون أن يخشى الخطر المغولى الذى يهدد المنطقة .

---

(١) عارف تامر : خمسة رسائل اسماعيلية ص ١٩ — ٢٤ أنظر كذلك :

Hayton, la Flor das Estoire de la Terre d'Orient Cf. R.H.C.- Doc Arm., t. II. p. 168 ; Brocardus, Pirectorium Ad Passagium Faciendem, Cf. R.H.C. - Doc-Arm., t. II, p. 96, Treece, op. cit. Loc. cit.

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١١٧ أنظر أيضا :

Guyard, op. cit., p. 372 ; Berchem op. cit. p. 464.

على أية حال ، تمكن المغول من اغتيال شيخ الجبل ركن الدين خورشاه مع باقى أفراد اسرته ، ولكنه نجح فى تهريب ولده شمس الدين محمد الوريث الشرعى للامامة الاسماعيلية ، وكان عمره حينذاك سبع سنوات . (١) وجدير بالذكر أنه قيل بأن الاسماعيلية احسوا بالخطر قبل ذلك بعدة سنوات كما أحست به جميع دول أوروبا ، فأرسلوا الى انجلترا وفرنسا ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م يرجوهما العمل من أجل الوقوف فى وجه هذا الخطر ، ولكن طلبهم لم يلق آذانا صاغية . وقد شهد بذلك اسقف مدينة منشستر Manchester بانجلترا(٢).

ومهما كان من أمر ، فقد استقبل المسلمون نبأ القضاء على الدولة الاسماعيلية فى فارس بفرح شديد . وتمنوا لو امتد أثر هذا إلى الفرع الاسماعيلى فى الشام حتى تستقر أحوالهم واحوال الدول الاسلامية بوجه عام . ولكن يبدوا أن القدر قد أبطأ عجلة النهاية لهذا الفرع فترة قصيرة حتى جاءت نهايته على يد السلطان الظاهر بيبرس . إذ ادرك أنه من المستحيل السكوت على وضع هذه الطائفة واتباعها الذين كانوا فى نظر المماليك مجرد زنادقة ، فضلا عن موقفهم المائع بين الصليبيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى . لذلك بدأ بفرض ضرائب باهظة على سفنهم التى تمر عبر الاراضى المصرية وعلى الهدايا التى أعتاد

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٥ ، عارف تامر : خمس رسائل اسماعيلية ص ٢٣ — ٢٤ أنظر كذلك :

Defrémery, op. cit., pp. 48-49

(٢) أنظر حاشية الدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتاب السلوك لمعرفة الدول الملوك الملوك للمقريزى ج ٢ ص ٣٨٣ راجع أيضا :

Browne, op. cit, t. III p. 6

الصليبيون أرسالها إلى شيخهم فى الشام ، وذلك إفسادا لنواميس الاسماعيلية وتعجيزا لمن اكتفى شرهم بالهدايا . (١) وفضلا عن هـــذا فقد قام بيبرس بالهجوم على قلاعهم فى الشام فى عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥ — ١٢٦٦ م فلم يستطيعوا مقاومته واضطر زعيمهم نجم الدين أن يطلب من السلطان بيبرس اعتباره هو واتباعه ضمن رجاله (٢) . ولما أحس السلطان باستغلال جماعة الفرسان الاسبتارية فرصة ضعف الاسماعيلية واستمرار تحصيل الجزية منهم ، فقـــد أراد إعفاءهم منها . ولذا اشترط على جماعة الاسبتارية أثناء معاهدة الصلح التى عقدها معهم ١٢٦٧ م / ٦٦٥ هـ الامتناع عن أخذ الجزية التى كان الاسماعيلية بالشام يدفعونها لهم . (٣) وقد قيل أنه لما شعر الاسماعيلية بضعف موقفهم أمام الصليبيين كتبوا إلى السلطان بيبرس يتضرعون اليه بأنه إذا عقد صلحا مع الفرنجة لابد وأن يشير اليهم فيه حتى يفهم الفرنجة بأنهم مـن غلمانه (٤) . ولما وافق الاسبتارية على اعفاء الحشيشية من الجزية المفروضة عليهم حضر الى السلطان بمصر وفد من قبل الحشيشية فى جمادى الآخر ٦٦٥هـ/ أوائل مارس ١٢٦٧م من أجل تقديم الشكر له ويروى المقريزى فى هذا الشأن أن الوفد قال للسلطان « هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق على المجاهدين» ومن ثم أصبحت هذه الأموال بمثابة جزية

---

(١) سعيد عاشور : العصر المملوكى فى مصر والشام ص ٢١١.

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٠٧

(٣) A.O.L., t. II, p. 385 : King, op. cit., p. 262

أنظر كذلك محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص٩١ ، سعيـــد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٨٢ . وكان مقدار هذه الجزية ١٢٠٠ قطعة من الذهب فضلا عن مائة مقدار من القمح والشعير عن كل فرد .

(٤) Lewis, op. cit, p. 2[illegible]

تقدم إلى مصر كل عام (١) . ولكن يبدو أن اسماعيلية الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بقيود دفع هذه الجزية إلى مصر ، ففي ١٢٦٩م / ٦٦٧هـ أرسل شيخ الجبل نجم الدين مبعوثا من قبله إلى بيبرس يطلب منه إنقاص المال الذي يضعه الاسماعيلية كل عام في بيت المال . وكان بيبرس في ذلك الوقت مستاء منه لأنه لم يفد اليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية ولذا فقد أمر بعزله وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة بدلا منه ، على أن تكون مصياف وبلادها خاصة بالسلطان . (٢) وارسل معه جيشا بقيادة الامير عز الدين العديمي ، فامتنع أهلها عن تسليمها أول الأمر ولم يلبثوا بعد ذلك أن فتحوا أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان بيبرس . وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها . ولم يجد نجم الدين وولده شمس الدين بدا من الدخول في طاعة السلطان ، فطلبا منه في ابريل ١٢٧١م/ شعبان ٦٧٠هـ السماح لهما بالحضور بين يديه فاجابهما إلى سؤالهما أما بالنسبة لصارم الدين فقد تمكن من الاستئثار بحكم مصياف وطرد الأمير عز الدين من القلعة . فلما علم السلطان بيبرس بذلك قام بتولية نجم الدين أمر حصون الاسماعيلية بالاشتراك مع صارم الدين ، وفرض عليه جزية سنوية قدرها مائة وعشرون الف درهم . فلما علم صارم الدين بذلك فر إلى دمشق فما كان من بيبرس إلا أن كتب إلى صاحبها يطلب منه القبض عليه . وبالفعل تم القاء القبض عليه وأرسل إلى القاهرة

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٧ ومن المراجع الاجنبية راجع الآتى :

A.O.L., t. II. p. 87 : Defrémery. op. cit., p. 52.

(٢) Defrémery, op. cit. p. 53.

حيث حبسه السلطان فى أحد ابراج اسوارها . (١)

وما ذكرناه يدل على مدى الضعف والانحلال اللذين اعتريا الدعوة الاسماعيلية بالشام بحيث أصبح السلطان المملوكى فى مصر يهيمن على اتباعها ومقدميها ويتدخل فى عزل شيوخها واحلال آخرين بدلا منهم . ومن هنا نجد وجه الاختلاف الكبير وسعة الشقة بين حال الاسماعيلية فى ذلك الوقت وحالهم أيام مقدم مثل راشد الدين سنان إذ بلغ بهم الأمر أنهم فقدوا الثقة فى أنفسهم وفى قوتهم وشجاعتهم بل وفى رؤسائهم ، وكتبت عليهم فى الشام الذلة والعبودية والخضوع للظاهر بيبرس (٢) مثلما قدر للمغول القضاء على المركز الأم فى الموت بفارس قبل ذلك التاريخ بحوالى ربع قرن من الزمان .

ولا شك أن القضاء على طائفة الاسماعيلية بالشام على يد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس جاء صدمة كبيرة وخيبة أمل بالنسبة للصليبيين لأنهم كانوا يعتمدون فى صراعهم ضد المسلمين على وجود العداء المذهبى بين هذه الطائفة وبين القوى السنية فى المنطقة . ولكن مع ذلك فقد أراد الصليبيون انتهازهذه الفرصة بذبول دولة الاسماعيلية فى الشام وتداعيها وذلك العمل على ضم الحشيشية الى جانبهم . فأسرع بوهيموند السادس أمير طرابلس الى شيخ الجبل واتفق على تدبير مؤامرة لاغتيال بيبرس وأوهمه بالمصلحة الكبرى التى ستعم عليه وعلى

---

(١) اليونينى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٤٣١ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ص ١٥١ أنظر أيضا :

Chroniqne de Terre Sainte, Les Gestes de Chiprois Cf. R.H. C.-Doc. Arm., t. II p. 777.

(٢) Guyard, op. cit., p. 476.

أتباعه من وراء ذلك . ولكن محاولتهم قد باءت بالفشل حيث قبض على اثنين من الفداوية فى أوائل عام ١٢٧١م/٦٦٩ هـ وكان فى نيتهم الشروع فى اغتيال السلطان فأمر السلطان بقتلهما(١) .

وجدير بالذكر فى هذا المجال أن السلطان بيبرس كان يستخدم خناجر الفداويه فى القضاء على أعدائه الصليبيين وفرسان التيوتون الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا عليه . وكان الظاهر بيبرس إذا أراد التخلص من أحد أعدائه يكلف أحد الفداوية لتنفيذ هذه المهمة مقابل مبلغ من المـــال . فاذا عاد سالما كان له المال واذا مات يصبح المال من نصيب أولاده وورثته بعد ذلك(٢) .

وعلى أية حال ، كانت كل الظروف تؤذن بقرب زوال اسماعيلية الشام وقواهم ، وكان ذلك على يد الظاهر بيبرس ،الذى تمكن من الاستيلاء على قلاعهم فى الفترة الواقعة بين عامى ١٢٧١ و ١٢٧٣ م (٦٧١ ـ ٦٧٣هـ) ففى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م ارسل قواته للاستيلاء على قلاعهم العليقة والخوابى والرصافة ولم يبق خارجا عن مملكته من جميع حصونهم سوى قلاع الكهف والقدموس والمينقة ، وذلك لأن أهلها اعتصموا بها رافضـــين الاستسلام والتسليم للسلطان ، بل قدموا عليهم زعيما منهم أعانا فى التحدى(٣) . ولكـن فى يومى الثالث والثامن من ذى القعدة ٦٧١هـ/٢٠و٢٦ مايو ١٢٧١ م سقطت كل من المينقة والقدموس فى أيدى الظاهر بيبرس . أما الكهف فقد صمد أهلها أمام

(١) Setton, op. cit., t.I.p. 131 ; Defrémery, op.cit., 61.

(٢) Conder, op. cit., p. 391: Guyard, op. cit. p.377.

ويذكر القلقشندى بانهم سموا بالفداوية منذ ذلك الوقت لفادتهم بالمال عـلى من يقتلونه انظر : القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٤٧٣ .

(٣) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٠٣ .

الضربات الشديدة الموجهة اليها من قوات السلطان . ولم يستمر هذا الوضع طويلا ، إذ قدموا إلى السلطان مفاتيح الحصن فى يوليو ١٢٧٣ م / ٢٢ ذى الحجة ٦٧٣ هـ . وبسقوط هذا الحصن انتهت دولة الحشيشية بالشام وأصبح أفرادها خاضعين للسلطان بيبرس خضوعا تاما (١) . وتحولت هذه الطائفة الارهابية بعد ذلك إلى شراذم ليس لها أى نشاط عسكرى أو أية أهمية سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وأصبح الملوك يستخدمونهم فى التخلص من اعدائهم واشتهر اسمهم فى هذا الوقت بالفداوية دون أى اسم آخر ، وذلك لانهم كانوا يأخذون فدية أنفسهم على الاستماتة فى مقاصد من يستعملهم (٢) ويذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة أثناء زيارته لأماكن قلاع الدعوة بانهم كانوا سهام الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٨ هـ - ٧٤١ م) / (١٢٩٨ - ١٣٤٠ م) . فكان إذا أراد أن يبعث أحدهم لاغتيال أى من أعدائه يعطيه ديته فان سلم بعد انتهاء مهمته فهى له ، وأن أصيب فهى لاولاده (٣) .

وعلى هذه الصورة ينتهى تاريخ اسماعيلية الشام الحافل بالجرائم والمؤامرات والارهاب والجاسوسية ويتفرق شملهم منذ ذلك الحين ويتشتتوا فيما بين ما بين سورية وأواسط آسيا وباكستان وعلى وجه الخصوص فى الهند حيث يقيم فيها الآن حوالى مائة وخمسون الفا من الاسماعيلية يعرفون باسم الخوجات أو المولوية . وكان يتزعم هذه الطائفة منذ وقت قريب اغا خان - الذى توفى

---

(١) Setton, op. cit., t. I. p 131 : Previté - Orton The Story of Europe, t. III, p. 179.

(٢) Defrémery, op. cit., p. 70

(٣) مهذب رحلة ابن بطوطة جا ص ٦١ أنظر أيضا :
Defrémery, op. cit., p.74.

منذ عدة سنوات ـ حيث كان اتباعه يقدسونه إلى درجة تدفعه إلى منحه ما يساوى وزنه ذهبا كل عام . واتخذ بقاياهم بعد ذلك من التجارة والصناعة والزراعة حرفة لهم ، وظلوا يكتمون تعاليمهم ومبادئهم ويحرصون على اجراء شعائرهم فى الخفاء تمشيا على السرية التامة التى إتخذها أسلوبا لهم منذ البداية . ولم ينسب اليهم شىء من أعمال الاغتيال [١] ، وهكذا تحول تاريخهم إلى أسطورة تتردد فى أسماع قارئيها .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة محمد مبروك نافع جـ ٢ ص ٥٧٥ ، عبدالله عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٥٤ ، زكى عبد التواب : دولة الخناجر والحيش ص ٨٠
أنظر أيضا :

Ency. Brit., t. II. p. 621.

الملاحق

الملحق الأول : استيلاء اسماعيلية الشام على حصن أفامية ، ثم أخذ الفرنجة له

انظر العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٩٠ - ٥٩٢

الملحق الثانى : زيارة الملك الصليبى هنرى صاحب شامبانيا لأراضى الاسماعيلية فى الشام .

نقلا عن المؤرخ اللاتينى هرقل فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ج ١ ص ٢١٠ .

الملحق الثالث : بعثة شيخ الجبل الى الملك الصليبى عمورى الأول وتفاوضهما من أجل اعفاء اسماعيلية الشام من الجزية المفروضة عليهم لصالح فرسان المعبد .

نقلا عن المؤرخ اللاتينى وليم الصورى فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبيه ج ٢ ص ٩٩٥ - ٩٩٨ .

رأينا تذييل الكتاب بعدد من الملاحق الهامة التى ترتبط بموضوع البحث إرتباطا مباشرا ، وتلقى الضوء على بعض قضاياه ومشاكله الملحق الأول يتضمن نصا مقتبسا من مخطوطه « عقد الجمان » لبدر الدين العينى ، وهى لم تنشر بعد . وهو يعالج قصة استيلاء اسماعيلية الشام على حصن إقاميه فى ختام القرن الخامس الهجرى (ختام القرن الحادى عشر الميلادى) ، والظروف التى تم فيها الاستيلاء على الحصن ، ثم امتلاك الأفرنج له بعد ذلك . وهذا النص يكشف عن فترة غامضة فى العلاقات بين الصليبيين والمسلمين من شيعة وسنة. أما الملحق الثانى فهو يتناول زيارة الملك الصليبى هنرى صاحب شامبانيا لأراضى الاسماعيلية فى الشام سنة ١١٩٧م / ٥٩٣هـ والنص مدون أصلا باللغة الفرنسية الوسيطة ، ويوجد بكتاب المؤرخ هرقل فى « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية » ، ولم ينقل بعد إلى اللغات الحديثة . ورغم أن تاريخ هرقل يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، إلا أن النص المشار اليه يتميز بأهمية خاصة ، لما تضمنه من معلومات تاريخية قيمة ، اغفلتها ومرت عليها مر الكرام بقية المصادر والأصول القديمة المعاصرة للفترة موضوع البحث أو المتأخرة عنها زمنيا فهو يبين جانبا هاما من جوانب العلاقات الصليبية الاسماعيلية خلال القرن الثانى عشر (القرن السادس الهجرى) لكاتب يعتبر مصدر ثقة فيما يكتب . وقد نقلت النص المذكور من الفرنسية الوسيطة إلى اللغة العربية ، وحرصنا أن تكون الترجمة مطابقة للاصل قدر الاستطاعة. أما الملحق الثالث والاخير فهو عبارة عن نص لاحد المورخين اللاتين المعروفين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهو المؤرخ وليم الصورى . ويشير النص إلى بعثة شيخ الجبل فى بلاد الشام إلى الملك عمورى الاول ملك بيت المقدس اللاتينى ، ويتعرض لكثير من النقاط الهامة ، من بينها الاسماء والمسميات التى

كان اللاتين الغربيون يطلقونها على طائفة الاسماعيلية ومقدمها وهى إلى حـد بعيد مشابهة لما هو وارد في المصادر والأصول العربية . ويذكر الكاتب أيضاً معلومات كثيرة من شيخ الجبل واتباعه ، وهى وأن كانت أحيانا غير دقيقة ، الا أنها لاتخلو في كثير من طرافه . ويتناول النص موضوع سفـارة شيخ الجبل الى الملك الصليبي التي طلبت منه استغلال نفوذه لإعفاء الاسماعيليـة من الجزية التى يدفعونها لجماعة الفرسان الداويةوماتم بشأن هذه السفارة ويكشف النص ، فضلا عن ذلك ، عن التيارات الخفية وراء مـواقف كل من الصليبيين واسماعيلية الشام جبال الآخر فى القرن الثانى عشر . وهذا النص الأخير مدون باللاتينية ، وقد قمنا بنقله إلى العربية مراعين دقة الترجمة مع وضوح المعنى.

الملحق الاول

استيلاء اسماعيلية الشام على حصن أفامية ، ثم أخذ الفرنجة له

من مخطوطه « عقد الجمان فى تاريخ أهل . زمان » لبدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسى العينى (١)

وفي سنة تسع وتسعين واربعمائة (٢). ملك الأفرنج حصن افامية من بلاد الشام . وسبب ذلك أن خلف بن ملاعب الكالبي كان قد تغلب على حمص، وكان الضرر به عظيما ورجاله كانوا يقطعون الطريق . فكثر الحرامية عنده فأخذها منه تتش بن الب ارسلان وأبعده عنها ، وانقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر فلم يلتفت اليه من بها . كان المتولى بأمر افامية من جهة الملك رضوان أرسل إلى صاحب مصر وكان يميل إلى مذهبهم فاستدعى من يتسلم اليه الحصن منهم وهو من أمنع الحصون . فطلب ابن ملاعب أن يكون هو المقيم به ، وقال « انى أرغب فى قتال الفرنج ومؤثر الجهاد » ، فسلموه اليه . فلما ملكها خلع طاعتها وأرسلوا اليه يشهدونه بما فعلوا بولده الذى عندهم فأجاب «انى لا أزل مكانى وابعثوا إلى بأعضاء ولدى حتى أكله » . فأيسوا من رجوعه إلى الطاعة وأقام بافامية يقطع الطريق ويخيف السبيل فكثرت أمواله . ثم أن الافرنج ملكوا سرمين وهى من أعمال حلب . فلما ملكها الافرنج تفرق أهلها ، وتوجه القاضى إلى ابن ملاعب وأقام عنده فأكرمه وأحبه ووثق به .

---

(١) نسخة مصورة للمخطوطة تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ بدار الكتب المصرية . القسم الثالث من الجزء العشرين لوحه ٥٩٠ - ٥٩٢ .

(٢) تقابل سنة ١١٠٥ م .

فأعمل الحيلة اليه ، وكتب إلى ابى طاهر المعروف بالصائغ وهو من أعيان الملك رضوان ووجوه الباطنية ودعاهم بالفتك به وأن يسلم افاميـة إلى الملك رضوان . فذهب أولاد ابن ملاعب اليه وكانوا قد تسللوا من مصر وقالوا له قد بلغنا عن القاضى كذا وكذا والرأي أن تماجة وتحتاط لنفسك ، فان الأمر قد اشتهرت واحضره ابن ملاعب فأتاه وفى يـده مصحف لأنه راى أمارات الشر ، فحلفه له على الوفاء له والنصح وأخلى سبيله ، وأعاد القاضى مكاتبتـه إلى ابى طاهر الصائغ وأشار عليه أن يوقف ثلاثة مائةرجل من أهل سرمين، ويوفد معهم خيلا من خيول الافرنج ورؤس من رؤسهم ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون انهم غزاة يشكون من معاملةرضوان وأصحابهلهم وإنهم قدانقض عليهم طائفة من الافرنج ظفروا بهم وانقضوا على كل ما كانوا يحملونه اليه. ففعل الصائغ ذلك منهم ، ووصل القوم إلى افامية وقدموا إلى ابن مـلاعب ما معهم من الخيل فقبل ذلك منهم ، وأمرهم بالمقام عنده ، وأنزلهم فى ربـض افامية فلما كان فى بعض الليالى نام الحراس بالقلعة فقام القـاضى ومن بالقلعة من أهل سرمين . ودلوا الحبال واصعدوا اولئك القادمين ومعهـم جماعة إلى ابن ملاعب فأحس به فقال من « انت » فقـال « انا ملك الموت ، جئت لأقبض روحك » فقتله وقتل اصحابه وهرب ابناه . ولما سمع ابوطاهر الصائغ خبر افامية سار اليها وهو لايشك أنها له فقال لهالقاضى « ان وافقتنى واقمت معى فعلى الرحب والا فأرجع من حيث جئت » ، فأيس منه وكان احد اولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبانا ، فهـرب إلى الافرنج واستدعاهم إلى افامية وقال لهم ليس فيها قوت غير شهر واحد فأقاموا عليها وحاصروها فجاع اهلها الافرنج وقتلوا القاضى وابا طاهر الصائغ وهو الذى اظهر مذهب الباطنيه بالشام » .

الملحق الثانى

زيارة الملك الصليبى صاحب شامبانيا لاراضى الاسماعيلية فى الشام

نقلا عن المؤرخ اللاتينى هرقل فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية(١)

النص الاصلى باللغة الفرنسية الوسيطة

;; .... cont Henri vient jusques Tortosa, li Sires des Hassissins li manda par ses mess:ges, prsiantque il deust passer par sa Terre, car il aveit grant talent de lui veoir et de sei a ccointer de lui, et tenir le a seignor etamis. Icest mandement plot au cont Henri, Il i ala volontires. Enssi come li mut de Tortosa; le Sir de Hassissins vint a l' encontre de lui et le recut moult honorablement, et mena par sa Terre et li mostra ses Chastiaus. come il vindrent devant le Chasted que l' en elimele Rast, qui est plus fort de tos ses chastiaus, il demanda au Cont « Sont vos Homes enssi Obeissant a voc come les miens sont amei sort ameins ? » les Conte respondi Oiil. Le Seignor des Haississins « il ne feroient mie sitot vosire comandement come lemiene feroient lesmiens comandemens, et Je le vos feral veoir ? » il teneit une toaille en sa main. si lor fist mestre ; etc ciaus, qui estoient le Chastel, se comencierent a laisser choeir en contre val, et se briserent le cos. Quant le Cont Henri vit ce, il li preiaque il ne feist plus. Il lor fist Syne, et il se tindrent. puis entrerent ou Chastel dont ii avoit

---

(١) انظر Eracles. Cf. R.H.C. - H.Occ., t. II, p. 210.

وللتفاصيل عن تاريخ هرقل انظر المقدمه التحليليه للمصادر والمراجع

435

a l'entrér fer esmolu come un dart; il dist au Cont. « Encore vos mostreraige coment il font mon comandement. » il geta un drap que il teneit en sa main, dont il ot de ciaus homes, qui estoient devant la port, si ferirent trois ou quatre, et furent mors. Le Conte Henri li pria que il n'en feist plus.

La Conte Henri se Jorna leans. le Sir des Hassissins li dona de biaus Joyaus, et deriches, et sur tout ce; afia lui et tous ses homes, et afia tos les amis que il avoit de ca mer et de la la mer.

الترجمة العربية للنص

لما علم شيخ الجبل الاسماعيلي بخروج الكونت هنري صاحب شامبانيا واتجاهه نحو طرطوس، أرسل اليه يرجوه زيارة اراضى الإسماعيلية المجاورة لطرطوس. فاستجاب هنرى لذلك. ولمـــا وصل استقبله الزعيم الاسماعيلي استقبالا حسنا ومشرفا، وصحبه إلى قلاع الدعوة ليبهره بما فيها. وأمام أحد القلاع قال له: « هل رجالك يدينون لك بالطاعة بنفس الدرجة التي يدينون لي بها رجالي؟ فأجاب هنرى « نعم » فأشار شيخ الجبل بيده إلى أحد فداويته فسرعان ما القى بنفسه من أعلى برج القلعة فسقط أسفلها ميتا. فتأثر الكونت بهذا المنظر ورجاه عدم تكرار هذا مرة أخرى. وبعد ذلك دخلا إلى القلعة ليشاهدا مابداخلها. فوجه هذا الشيخ حديثه إلى الكونت هنرى مرة أخرى قائلا له: « سأريك إلى أي مدى ينفذ رجالي أوامرى ». فألقى بمنديله الذى كان ممسكا به فقام أحد فداويته الموجودين بالقلعة بطعن نفسه بخنجره المسموم فخر صريعا. فأعاد الكونت رجاءه للشيخ. وأخيرا، وبعد إنتهاء الزيارة أهدى إلى الملك الصليبي هدايا ثمينة، وكذلك أهـــدى رجاله المرافقين له. وبعد ذلك رحل هنرى إلى إنطاكية حيث استقبل بحفاوة.

الملحق الثالث

بعثة شيخ الجبل إلى الملك الصليبي عمورى الأول وتفاوضها من أجل إعفاء اسماعيلية الشام من الجـزية المفروضة عليهم لصالح فرسان المعبد.

نقلا عن المؤرخ اللاتيني ولـيم الصورى في مجـــوعة مؤرخي الحروب الصليبية (١).

النص الأصلي بلغته اللاتينية

Accidit eisdem diebus apud nos res periculosa nimis et detestabilis, regno et ecclesiae, usque in praesens tempus, fortasse in perpetuum lugenda. quod ut plenius innotescat, sumendum est altius narrations exordium. in provincia Tyrensi, quae phoenicis dicitur, circa episcopatum Antaradensem, est quidem populus, castella decem habens cum suburbanis suis; est quenmerus eorum, ut saepius audivimus, quasi ad sexaginta milla, vel amplior. Hic, non haereditaria successione sed meritorum praerogativa, magistrum solent sibi praeficere, et eligere praeceptorem, quem, spretis aliisdignitatum nominibus, senem vocant ; equitantae subjectionis et obedientiae vinculo, solent obligari, ut nihil sit tam durum, tam difficile, tamque periculosum, quod ad magistri imperium, ardentibus animis nonagggrediantur impleje. Nam inter caetera, si quos habent principes odiosos aut genti suae suspectos dataunl de suis, vel bluribus, non considerato rei exitu, utrumevadere possit, illuo contendit, cui mandatum est; et tam pro complendo auxius imperio

(١) Guillaume de Tyr; Cf. R.H.C. - H. Occ., t. II PP. 995 - 998

circuit et laborat, quousquè casu in junctum peragat officium, praeceptoris mandato satisfacien. Hos tam nostri, quem Sarraceni nescimus unde nomine deducto Assissinos vocant. Ii etiam annis puai quadringentis sarracenorum legem et eorum traditiones tanto zelo colnerunt, ut respectu eorum omnes alii quasi praevaricatores judicarentur, ipsi autem legem vidrentnr implere. contigit autom diebus nostris, quod magistrum sibi praefecerunt virum Facundiss-mus subtilem. et acris valde ingenii. Hic, braeter morem majorum suoum coepit habere penes se evangeliorum libros et codicem apostlicum; quipus continuato incombens studio miratulorum christi et praeceptoum seriem, sed et apostoli doctrinam, multo labore aliquartisper qssecutus, inde confe ens christi et suorum suavem et honestam, cum iis quae miser et seductor Mahemet complicbus suis et deceptis ab eo tradiderat, coepit sordere quicquid cum lacte biberat, et prae dicti sedctoris immunditias abominare Eodem quoque modo populum suum erudiens, ab observantia illins superstitsenis cessare Fecit, oratoria quibus antequsi Fuerant dejiciens, eorum jejunia solvens, vinum et suillas carnes suis indulgens. Tandem ad interiora legis dei volens procedere, virum prudentem, in consiliis providum elo quentem, et magistri sur doctrinam redolentem, nomine Boaldelle, ad dominvm regem dirigit, verba secreta deferentem quorum praecipuus et maximus reat articulus, quod si Fratres militiae Templi, qui castella regisni eorum habehant contermina, duo millia aureorum quae singulis annisde hominbus eorum quasi pro tributo solebant assumere eis vellent remittere, et Fraternam deincep observare capitatem, ipsi ad fidem christi et baptisma convolarent.

الترجمة العربية للنص

لقد حدث فى عام ١١٧٢م شيئا خطيرا جدا وكريه بالنسبة للكنيسة والملكية (١) معا سيظل موضع الأسف لفترات طويلة من الزمن . ولكى نقف على تفاصيل ما وقع لا بد وأن نرجع إلى الوراء .

كان يقطن فى مقاطعة صور فى ضواحى اقفية تسمى انتراد نسم نفر من الناس يمتلكون عشرة حصون فى بلاد الشام ، وكان عددهم يصل ستين الفا أو أكثر . ورغم أنه يطلق عليهم اسم « الحشيشية » إلا أننا لا نعرف مصدر هذه التسمية . وكان يطلق على زعيمهم « شيخ » ولم يكن منصبه عن طريق الأرث وإنما كان بالاختيار ، بحيث إذا لم يثبت كفاءته يتم عزله واختيار آخر بدلا منه . وكان اتباعه يدينون له بالطاعة العمياء فى كل ما يصدر اليهم من أوامر وفى مقابل هذا كان زعيمهم يتفانى فى العمل من أجل الوصول بجماعته إلى حد الكمال . ورغم أن هذا الزعيم كان يحتفظ بعقائده وعادات وتقاليد أسلافه العرب ، إلا أنه كان يدرس الكتب المسيحية المقدسة وتعاليم السيد المسيح بالإضافة إلى عقائد الديانة الإسلامية ، وبذلك يكون قد جمع بين العقيدة المسيحية وبين عقيدة الدين الاسلامى .

وفى أحد الأيام أرسل هذا الشيخ مبعوثا إلى الملك الصليبي يحمل رسالة سرية يقترح فيها طلب موافقة فرسان المعبد (٢) على أن يردوا له الألفين قطعة

---

(١) المقصود بذلك الجريمة التى اقترفها فرسان المعبد باغتيالهم رسل شيخ الجبل الموفدين الى الملك الصليبى قد أساءت الى الكنيسة والملكية معا على أساس أن الملك كان مسئولا عن سلامة وصول هؤلاء الرسل الى سيدهم .

(٢) المقصود بهم جماعة الفرسان الداوية .

الذهبيه التى أخذوها من أتباعه فى صورة جزية سنوية تفرض عليهم مقابل أن يبادر هو وأتباعه بالعميد والدخول فى زمرة المسيحيين . ولقـــد استقبل الملك هذا الرسول استقبالا حافلا وأبدي موافقته على دفع هذا المبلغ من دخله الخاص وبعد انتهاء مهمة الرسول توجه عائدا إلى بلاده . وقد أرسل الملك فى رفقته حارسين ليكونا معاونيه فى طريق عودته . وهنا حدثت الفاجعة الكبرى التى افقـدت ازدهار وتعاليم الكنيسة . إذ هجم عليه بعض من اتباع فرسان المعبد وذبحوه بسيوفهم .

المصادر والمراجع

- بيان بالمختصرات الوارد ذكرها فى حواشى الكتاب.
- مجموعة الحروب الصليبية .
- المخطوطات العربية .
- المصادر الاصلية الاوروبية .
- المصادر الاصلية العربية .
- المراجع الثانوية الاوروبية .
- المراجع الثانوية العربية والمعربة .
- دوائر المعارف .

بيان بالمختصرات الوارد ذكرها فى حواشى الرسالة

A. O. L.	— Les Archives de l'orient latin.
Cam. Med. Hist.	— Cambridge Medieval History.
Ency. Brit.	— Encyclopaedia Britannica.
Encyc. of Islam.	— Encyclopaedia of Islam.
J. A.	— Journal Asiatique.
R. H. C. – Doc. Arm.	— Recueil des Historiens des Croisades Documents Armeniens.
R. H. C. - H. occ.	— Recueil des Historiens des Croisades Historiens occidentaux.
R. O. L.	— Revue de l'orient Latin.

(١)

مجموعات الحروب الصليبية

Michaud, J., Bibliothèque des Croisades, 3 vols. London, 1852.

Recueil des Historiens des croisades, publié par les soin de l'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres. in 16 huge folio vols, paris, 1841 – 1906 :

I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844 - 1895),

II. Historiens orientaux (Arabes), 5 tomes (1872 - 1906).

III. Historiens Grecs, 2 tomes (1875 - 1881).

IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869 - 1906).

V. Lois, 2 tomes (1841 – 1843).

Les Archives de l'orient Latin, publiées par la société de l'orient latin, 2 vols - paris, 1881 et 1887. Textes inventaires et études originales.

Palestin Pilgrims, Text Society, 13 vols - and general Index. London, 1887 - 1897.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de M M. Le Marquis de Vogué et Ch. Schefer - paris, 1893-1911.

(٢)

المخطوطات العربية (١)

ابن ابى سرور (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) محمد بن ابى سرور زين الدين البكرى:

« عيون الاخبار ونزهة الابصار » - دار الكتب المصرية - رقم ٧٢ تاريخ .

ابن ايبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) أبو بكر بن عبد الله :

١ - كنز الدرر وجامع الغرر « ٩ ج - دار الكتب المصرية - رقم ٤٦٦٣ تاريخ « تصوير شمسى ».

٢ - در التيجان وغرر تواريخ الازمان « - دار الكتب المصرية برقم ٤٤٠٩ تاريخ .

ابن بهادر (عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) محمد بن محمد بن بهادر « فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » - دار الكتب المصرية - رقم ٢٣٩٩ تاريخ - تصوير شمسى - .

ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩) جمال الدين أبو المحسن يوسف :

« المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » - ٥ ج - دار الكتب المصرية - برقم ٢٣٥٥ تاريخ .

ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى : «الجوهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين» - دار الكتب المصرية - برقم ١٥٢٢ تاريخ .

---

(١) اشرنا فى حواشى الرسالة الى المخطوط بـ(ورقة) والمصور بـ (لوحة) والمطبوع بـ (صفحة) تيسيرا لسكل منهم.

ابن العديم (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧م) كمال الدين ابى حفص عمر بن أحمد بن هبة الله :

١ – زبدة الحلب فى تاريخ حلب » – دار الكتب المصرية – رقم ٩٦١٩ تصوير شمسى .

٢ – « بغية الطالب فى تاريخ حلب » – دار الكتب المصرية – رقم ١٥٦٦ ح تصوير شمسى .

ابن قاضى شهبة (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) بدر الدين ابى الفضل محمد بن أبو بكر:

« الدر الثمين فى سيرة نور الدين » دار الكتب المصرية لم رقم ٩٤٠٢ح تصوير شمسى .

الاصفهانى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :

١ – البستان الجامع لتواريخ أهل زمان » – جامعة الدول العربية – ميكروفيلم رقم ٢٨٧ تاريخ .

٢ – نصرة الفطرة وعصرة القطرة » تصوير شمسى .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى :

« عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان » – ٢٣ ج فى ٦٩ مجلد – دار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ تصوير شمسى .

النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد :

« نهاية الارب فى فنون الادب » – ٥٥ مجلد – دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة – تصوير شمسى .

الخزرجى : (غير معروف تاريخ وفاته) جمال الدين على بن الحسن الخزرجى:

« المسجد المسبوك فى سيرة الخلفاء والملوك » ٢ ج – دار الكتب المصرية برقم ٣٠٦٣ تاريخ .

مؤرخ مجهول : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب جامعة الدول العربية رقم ٢٩٤ تاريخ .

(٣)

المصادر الاصلية الاجنبية

Ambroise, The Crusades of Richard Lion — Heart — Translated from old French by M J. Hubert. Now-Yorw: 1047.

Annales de Terre Sainte 1095 - 1291, Publiées par R. Rohricht et G. Raynaud, in A.O.L., II. pp 4?? - 467.

Brocardus, Directorium ad passagium Faciendum Ed. R.H.C. - Doc. Arm. t.II, Paris, 1896 (pp 36?-516).

Burchurd of Mount Sionn, A Description of the Holy Land (A.d; 1?30), translated from the original Latin by A. Stewart. London, 1896. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, XII, pp. 1-136.

Eracles, L'Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d' Outremer. Ed. R.H.C. - H. Occ., t.II, Paris, 1859, pp. 1-481.

Fabri, F., The Wanderings of Brother Felix Fabri (circa 1480-1483 A.d), translated by A. Stewart, 2vols, London, 1893. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, IX, Loadon, 1897.

Guillaum de Tyr, Historia Reaum in Partibus transmarinis Gestarum. Ed. R.H.C. - H. Occ., t. I, Patis, 18?9, pp. 490 - 1130.

Hagenmayer, H. (Ed). Chronolgie de L'Histoire dep Royaume de Jerusalem Regne de Bouldouini (1101-1118). Cf. R.O.L, t. XI, Paris, 1980.

Hayton, La Flor des Estoires de. la Terre p'Orient. Ed. R.H.C. - Doc. Arm. t. II, Paris, 1896, pp. 5?-362.

Hethoum, Comt de Gorigos, Table Chronologique. Ed.R H. C.-Doc. Arm., t.I, Paris, 1869, pp. 471-490.

Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis

وقد رجعنا إلى الترجمة العربية للكتاب المذكور، وهو تحت اسم « مذكرات جوانفيل : القديس لويس ـ حياته وحملاته على مصر والشام ـ ترجمة الدكتور حسن حبشي ـ القاهرة ١٩٦٨ .

Mattew of Westminster, The F lowers of H istory, 2 Vols. London, 1835.

Matthieu d'Edesse. Extraits de La Chroniqne. Ed. R H.C.— Doc Arm. t.I., Paris, 1896, pp. 3-550.

Michel le Syrien. Extrait de la Chronique de Michel le Syrien. Ed. R.H.C.- Doc. Arm., T; I, Paris, 1869, pp. 309 - 409.

Polo, Marco, The Travels of Marco Polo the Vention. London, 1907.

Rappin de Thoyras, The History of England, translated from the old English by M.A Tindal. London, 17 3.

Roger of Wendover, Flowers of History, 2 Vols, London, 1849.

Rothelin, Continuation de Guillaum de Tyr dite du Manuscrit de Rothelin (1229-1261). Ed. R.H.C.-H. Occ., t. II, 18 9. pp. 489-63 .

Sanuto, Marino, Secrets for the Crusades to Help them to Recover the Holy Land, Written in A.D1 1. part XI of Book-III, translated by A. Stewart. London, 1896. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, v.II, pp. -7 .

Gesta Francorum et aliorum Jierosolimitanorum, translated in to English by Somerset de Chair. London; 1935.

Chronique de Terre Sainte, Les Gestes des Chiprois. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., t. II, Paris, 1869. pp. 65 -871.

(٤)

المصادر الاصلية العربية

ابن الاثير الجزرى (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٤م) أبو الحسن أبى الكرم . الملقب عز الدين :

١ – الكامل فى التاريخ – ١٢ج – القاهرة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م .

٢ – التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل – تحقيق عبدالقادر طليمات – القاهرة ١٩٦٣ .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار – ٢ ج – القاهرة (بولاق) ١٩٣٤ – ١٩٣٧ .

ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – ٩ ج – القاهرة ١٣٤٨ – ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ – ١٩٤٢م .

ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) أبو الحسن محمد بن أحمد الاندلسى :

رحلة ابن جبير – قام على نشره وليم رايت – الطبعة الثانية – ليدن (بريل) ١٩٠٧م .

ابن الجوزى « سبط » (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٠٧م) أبو المظفر شمس الدين يوسف ابن قزاوغلى :

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان – ج ٨ – حيدر اباد الدكنن – الهند ١٩٥١ .

ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٥٢م) جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن :

تلبيس ابليس – القاهرة ١٩٢٨ .

ابن حوقـــل (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أبى القاسم النفيسي :

صورة الارض - ليدن (بريل) ١٩٢٨م ٠

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م عبد الرحمن محمد :

العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر — ٧ ج — القاهرة (بولاق) ١٢٨٤ هـ ٠

ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم :

وفيات الأعيان وانباء ابناء زمان - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٩٩ هـ ٠

ابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م) أبو الفضل محمد بن الشحنه الحلبي :

الدر المنتخب فى تاريخ حلب — بيروت ١٩٠٩ ٠

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٦م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية بسيرة صلاح الدين. القاهرة ٣١٧ هـ .

ابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على :

تاريخ الدول والملوك تحقيق د. حسن محمد الشماع - ٣ ج — البصرة ١٩٦١ — ١٩٧٠ ٠

ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزه بن اسعد بن على بن محمود :

ذيل تاريخ دمشق — بيروت ١٩٠٨ ٠

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م) عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن عمرو القرشى :

البداية والنهاية فى التاريخ - ١٤ ج - القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م) مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد :

كتاب الاعتبار - اعتنى بتصحيحه هورتبرغ - ليون (بريل) ١٨٨٤م .

ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر :

تتمة المختصر فى اخبار البشر ، ويعرف بتاريخ ابن الوردى - ٢ ج - القاهرة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨م) .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٠٠م) جمال الدين محمد بن سالم :

مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - ٣ ج - القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ، جـ٤ ، جـ٥ نشر د. حسنين محمد ربيع القاهرة ١٩٧٢ - ١٩٧٧ .

أبو الشامة (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٩٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان شهاب الدين :

الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية - ج - القاهرة - ١٢٨٧ ١٢٨٨ م .

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن على :

١ - تقويم البلدان - باريس ١٨٩٠ .

٢ - المختصر فى اخبار البشر ويعرف بتاريخ أبو الفدا - ٤ ج - القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

البغدادي (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) عبد القادر بن طاهر بن محمد :

الفرق بين الفرق — تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة ٩١٠ .

البنداري (ت ٦٤٣ هـ /١٢٤٥م) الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني :

مختصر تواريخ آل سلجوق - تحقيق هوتسما - ليدن ١٨٨٩م .

أبو اليمن العليمي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد :

الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - ٢ ج القاهرة ١٢٨٣هـ .

الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) أبو عبد الله محمد بن احمد عثمان قايماز شمس الدين :

« العبر في اخبار من غبر» تحقيق صلاح الدين المنجد — ٥ ج — الكويت ١٩٦٣ .

السبكي (ت ٧٧١ هـ / ١٠٧٠ م) تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن الحسن:

« طبقات الشافعية الكبرى — ٦ ج - القاهرة ١٣٢٤ هـ .

الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣م) محمد بن عبد الكريم :

كتاب الملل والنحل - ٣ ج - القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٠م .

الصفدي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م) صلاح الدين أبو الصفا ، خليل بن الدين ايبك :

« الوافي بالوفيات - ج ٢ اسنتبول ١٩٣١م .

الاصطخري (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) أبو اسحق ابراهيم بن محمد :

« المسالك والممالك - ليدين ١٩٢٧م .

الاصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) عماد الدين بن محمد حامد :

١ - الفتح القسى فى الفتح القدسى تحقيق محمد محمود صبيح - القاهرة، ١٩٦٥م .

٢ - تاريخ دولة آل سلجوق - القاهرة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠م .

العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل الله :

مسالك الابصار فى ممالك الامصار - جـ١ - نشرة المرحوم احمد زكى - القاهرة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م .

العماد الحنبلى (ت ١٠٨٠ هـ - ١٧٨٣م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب - ٩ ج - القاهرة ٩٣١ :

القزوينى (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود :

١ - آثار البلاد واخبار العباد - نسخة فى مجلد طبسع جوتنجن ، لهـا مقدمة باللغة الألمانية للاستاذ وستنفلد غونا - جوتنجن ٨٤٨ م .

٢ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - نسخة فى مجلد طبسع جوتنجن لها مقدمة بالألمانية لذات الكتاب - جوتنجن ١٨٤٩م .

القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) احمد بن على بن احمد عبد الله :

صبح الاعشي فى صناعة الانشا - ١٤ ج القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠م / ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ .

الكتبي (ت ٧٦٤ هـ ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن احمد عبد الرحمن فخرى الدين :

فوات الوفيات - ٢ ج - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥١ .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين احمد بن على :

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الأول والثانى إلى عام ٧٤١ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ .

٢ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - الجزء الأول تحقيق المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧ .

٣ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - ٢ ج القاهرة ١٢٧٠ هـ .

المينقى (عاش فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) أبو فراس بن جوشن .

فصل من اللفظ الشريف لمناقب راشد الدين سنان - اعتنى بنشره المستشرق جويارد بالمجلة الاسوية ، العدد السابع من المسلسل السابع ١٨٧٧م .

الانصارى الدمشقى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢ م) شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب :

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر - ليبزج ١٩٢٣ م .

اليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) موسى بن محمد بن احمد قطب الدين :

ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - ٢ ج - الهند ١٩٥٥ .

تاج الدين شاهنشاه بن أيوب .

منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه : القاهرة ١٣١٧ هـ .

الحمادى (غير معروف تاريخ الوفاة) محمد بن مالك أبى الفضائل .

كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة - نشر عزت العطار .

ياقوت الحموى (ت ٦١٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :

معجم البلدان — ٤ ج وفهرس ـ ليبزج ١٨٦٦ — ١٨٧٠ م .

مؤرخ مجهول مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ـ ٦ج ـ قام بنشره ت. ج. جوينبولى T.G.J. Juynboll طبع بريل ١٨٦٤م .

(٥)

المراجـع الثانوية الاوربيـة

Adams, G. B.,

The History af England From the Norman Conquest to the Death of john (1066 — 1216) . London, 1905.

Al — Muscati, Jawad,

Hassan Bin Sabbah, translated to English by Abbas. H. Hamdahi. Pakistan, 1958.

Anthony, J. C. Keer,

The crusades. London, 1966.

Archer, T. A.,

The Crusades : The story of the Latin Kingdom of Jerusalem. U. S. A, 894.

Barraclough, G,

The Origins of Modern Germany. Oxford, 1947.

Bell, M. I.,

A short History of the papacy. London, 19 1.

Belloc, H.,

The Crusades, London, 1 42.

Berchem, Max Van,

Epigraphie des Assassins de Syrie., cf. J. A. 9 th seies, ix, 1897.

Besant, W. & palme, E.,

The History of Jerusalem. London, 1888.

Bréhier, L.,

L'Eglise et L'orient au Moyen âge. paris, 1907.

Brook, Z. N.,

Methuens History of Medieval and Modern Europe (From 9:1 to 1'98), 8 Vols London, 1918.

Browne, E.

A Literary History of Persia, 4 Vols. Cambridge, 1951.

Bryce J.,

The Holy Roman Empire, London, 1907.

Calthrop, M.,

The Crusades. London (N D.).

Campbell, G.,

The Crusades. London, 19 5.

Chalandon, F.,

Histoire de la premiére croisade. Paris, 1925.

Chapman, C. E.,

A History of Spain. Newyork, 193.

Conder, C. R.,

1 — The Latin Kingdom of Jerusalem. London, 1897.

2 — The City of Jerusalem. London, 19 9.

Davis, H. W.,

England Under the Normansand Angevins (16.—1279). London, 1928.

Defrémery, M. C.,

Nouvelles *Recherches* sur les *Ismaéliens* ou Bathiniens de syrie CF. J. A 5e serce, t. V, 1855, pp. 5 — 76.

Delaville Le Roulx , J.,

Les Hospitaliers en Terre Sainte et à chypre (1100 — 1307). Paris, 1904.

Dodu ; G .,

Histoire des Institutions Monarchiques dans Le Royaume Latin de Jerusalem (1099 — 1290). Paris, 1894.

Duruy, M. V ,

Histoire du moyen age. Paris , 1902 .

Dussaud , R .,

La Syrie Antique et Médiévale. paris , 1931.

Eyre , E .,

European Civilization , 3 Vols . London, 1935.

Funck — Brentano, F.,

1 — The Middle âges. London, 1922.

2 — Les Croisades . Paris, 1934.

Grousset , R .,

1 — Histoire des Coisades, 3 vols. Paris, 1948.

2 — L'Empire du levant . Paris , 1949.

Guyard , M. S .,

Un Grand Maitre des Assassins au temps de Saladin .

CF. J. A. 7e. Serie, t. IX, 1877, pp. 3.4 — 489.

Hallam, H.,

View of the state of Europe during the Middle ages. London, 1 71 .

Hardwick , C.,

A History of Christian Church : Middle age . London , 1881.

Hitti, P., and others,

The Arab Heritage. New Jersey, 1944.

Hollis, G.,

Between Two Crusades A Table of A. D. 1187, London (N. D.).

Iroga N.,

Histoire des Croisades. Paris, 1924.

Jenkins, C.

Mediaeval European History. London, 1924.

King, E. J.,

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

L' ABBé de Vertot,

Histoire de l'ordre des chevaliers, 2vols. Paris, 1691.

Lacroix, P.

1 — Vie Militaire et Religieuse ou Moyen ages. Paris, 1873.

2 — La Chevalerie et les Croisades. Paris, 1887.

Lamb, H.,

The Crusades. London, 1 31.

Landone, B,

The Middle ages, 3 Vols U. S. A, 19.4.

Lane - Poole, St.,

Saladin. New york, 1898.

Lewis, B.,

1 — Saladin and the Assassins, reprinted From the B. S. O. A. S. t. xv. London, 193.

2 — The Sources For the History of the Syrien Assass-ins, t. xxvll. London, 19ـ2.

3 — The Arabs in History London, 1966.

Lewis, T.,

A History of Cermany. New york, 1889.

Ludlow, J. M.,

The Age of the Crusades. London. 1839.

Maimbourg, p.,

Histoire des creisades, 4 vols — Paris, 1934 — 1935.

Maycock, A.,

The Papacy, London, 19ـ8.

Michaud, M.,

A History, of the orusades, tr. from the original by W. Robson, 3 vols. London, 1852.

Michelet, M;

History of France, tr. by Walter K. Kelly, 2 vols. London. 1844 - 6.

Michels, M.,

précis de l' Histoir du Moyen age. Paris, 836.

Oman, C.,

History of England. Oxford, 18ـ5.

Ostrogorsky, C.,

History of the Byzantine State. Oxford, 195

Painter, S.,

A History of the Middle Ages. New york, 1954

Peters, M. A.

A Short History of France London 1968.

Previté — Orton, C. W.,
The History of Europe From 1198 — 13/8, 3. vols. London, 19.7.

Robrichet, R.,
Geschiche des Konigreichs jerusalem (1100 – 1.91). Innsbruck, 1893.

Runciman, S.,
A History of the Crusades, 3 vols – London, 1957.

Schlumberger, G.,
Campagnes du Roi Amaury ler. de jérusalem en Egypte, au xlle. siécle. Paris, 1906.

Setton, K. M. (Ed.),
A History of the crusades, 2 vols. Philadelphia, 19?8.

Stephenson, C.,
Mediaeval History. New york, 1943.

Stevenson, W. B.,
The Crusades in the East. London, 1907.

Stubbs, W.,
Germany in the Early Middle Ages (476 — 1 50). New york, 1908.

Thatcher, J. and Schwill, F,
1 - Europe in the Middle Ages. London, 1907.

2 - A Source Book for Mediaeval History - New york, 1905.

Thompson, J. - W.,
History of the Middle Ages (300 – 1500). London, 1931.

Tout, T. F.,

1 — France and England: Their Relations in the Middle Ages and Now. Manchester, 1922.

2 — The Empire and the papacy (918 — 1.73). London, 1904.

Treece, H.;

The Crusades. New york, 1964.

Trevelyan, G. M.,

History of England. London, 1943.

Watson, C. M.,

The Story of jerusalem. London, 1912.

Woodhouse, F. C.,

Military Religious order of the Middle Ages. London, 1874.

Vasiliev, A. A.;

Histoire de l' Empire Byzantin, 2 vols. Paris, 1932.

— Cambridge Mediaeval History, 8 vels, Cambridge, 1911-1936.

— Encyclopaedia (A. N.) of World History, U. S. A., 1968.

— Encyclopaedia Britannica, 23 vols, London, 1968.

— Encyclo paedia international, 20 vols, Canada, 1970.

— Encyclo paedia of I slam, 5 vols, London, 1931 - 1965.

(٦)

المراجع الثانوية العربية والمصرية

احمد الهيلى (الدكتور) : حياة صلاح الدين الايوبى - القاهرة ١٩٢٦ .

احمد محمد مجاهد مصباح : محاضرات في تاريخ الفرق الاسلامية - القاهرة ١٩٥٢ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار - ٣ ج - القاهرة ١٩٧٣ .

او مبرتو : صفحة فى تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين - مجلة كلية الاداب باسكندرية - المجلد الخامس (١٩٤٩) .

باركر (ارنست) : الحروب الصليبية - ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى - القاهرة ١٩٦٠ .

بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى - ٥ ج - بيروت ١٩٤٩ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ العرب والروم واللاتين فى الحروب الصليبية الأولى - الاسكندرية ١٩٦٣ .

٢ العدوان الصليبى على بلاد الشام - الاسكندرية ١٩٧١ .

٣ علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية فى ضوء وثائق صبح الاعشى - مطبوعات جمعية الاثار بالاسكندرية - الاسكندرية ١٩٧١ .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :

١ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى - ٤ ج - القاهرة ١٩٦٥ .

٢ - تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب - القاهرة ١٩٥٨ .

حسن حبشى (الدكتور) :

١ – الحرب الصليبية الأولى – القاهرة ١٩٤٧ .

٢ – نور الدين والصليبيون – القاهرة ١٩٤٨ .

حمزة بن على : التاليد فى مذهب أهل التوحيد – القاهرة ١٩١٣ .

سترانج (لى) : فلسطين فى العهد الإسلامى – ترجمة محمود العمارى بيروت ١٩٧٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

١ – الحركة الصليبية – ٢ ج – القاهرة ١٩٦٣ .

٢ – أوروبا العصور الوسطى – ٢ ج – القاهرة ١٩٦٦ .

٣ – العصر المماليكى فى مصر والشام – القاهرة ١٩٦٥ .

٤ – الناصر صلاح الدين – القاهرة ١٩٦٥ .

٥ – الظاهر بيبرس – القاهرة ١٩٦٣ .

السيد الباز العرينى (الدكتور) : مصر فى عهد الايوبيين – القاهرة ١٩٦٠

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) .

١ – طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى – القاهرة ١٩٦٧ .

٢ – دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى بيروت ١٩٧٠ .

السيد محمد صادق محمد حسين الصدر . الشيعة – بغداد ١٩٣٢ .

السيد محمد العزاوى : فرقة النزارية – القاهرة ١٩٧٠ .

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) : مقدمة تحليلية لكتاب سياسة نامة لناصر خسرو – مجلة تراث الانسانية – المجلد التاسع – القاهرة ١٩٧١ .

سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى – القاهرة ١٩٣٨ .

سليم هشي: الاسماعيليون عبر التاريخ - بيروت ١٩٦٩ .

طـــه أحمد شرف : دولة النزارية - القاهرة ١٩٥٠ .

طـــه شرف وحسن ابراهيم حسن : عبيد الله المهدى - القاهرة ١٩٤٧ .

عادل العـــوا . منتخبات اسماعيلية - دمشق ١٩٥٨ .

عارف تامر :

١ — خمس رسائل اسماعيلية - سوريا ١٩٥٦ .

٢ — سنان وصلاح الدين - بيروت ١٩٥٦ .

عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون - القاهرة (بدون تاريخ) .

عبد الفتاح العريان : قرامطة العراق - القاهرة ١٩٧٠ .

عبد المنعم ماجد (الدكتور) : العلاقات بين الشرق والغرب - بيروت ١٩٦٦ .

على بيومى : قيام الدولة الايوبية فى مصر - القاهرة ١٩٥٢ .

على سامى النشار (الدكتور) : نشأة الفكر الفلسفى الإسلامى - الاسكندرية ١٩٦٦ .

عمر أبو النصر : قلعة الموت « الحسن بن الصباح » - بيروت ١٩٧٠ .

عمر كمال توفيق (الدكتور) :

١ — مملكة بيت المقدس الصليبية - القاهرة ١٩٥٨ .

٢ — المؤرخ وليم الصورى - مجـــلة كلية الاداب بالاسكندرية المجلد ٢١ لسنة ١٩٦٧ ص ١٨١ — ٢٠٠ .

زامبـــاور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى — تحقيق الدكتور محمد حسن ، حسن أحمد محمود - القاهرة ١٩٥٢ .

زكى عبد التواب : دولة الخناجر والحشيش - لبنان (بدون تاريخ) .

فيليب حتي : ١ — تاريخ سورية ولبنان فلسطين - ٢ ج - ترجمة الدكتور كمال اليازجي - بيروت ١٩٥٩ .

٢ تاريخ العرب - ٢ ج - ترجمة الدكتور محمد مبروك نافع القاهرة ١٩٥٢ .

فيليب حتي وآخرون : تاريخ العرب (مطول) - ٢ ج - بيروت ١٩٦٥ .

كامل مصطفى الشيبي (الدكتور) : الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري - بغداد ١٩٦٦ .

لويس (بير نارد) : أصول الاسماعيلية - ترجمة خليل جلو - جاسم الرجب - القاهرة (بدون تاريخ) .

لويس شيخو : جولة في الدولة العلوية - مجلة المشرق - العدد السابع - السنة ٢٢ - بيروت ١٩٢٤ .

محمد احمد عبد العال (الدكتور) : دولة بني أيوب في اليمن - رسالة ماجستير لم تطبع - الاسكندرية ١٩٦٨ .

محمد جمال الدين الشيال (الدكتور) :

١ — تاريخ مصر الإسلامية - ٢ ج الاسكندرية ١٩٦٧ .

٢ مجموعة الوثائق الفاطمية - القاهرة ٩٢٨ .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور) . دولة الظاهر بيبرس في مصر - القاهرة ١٩٦٠ .

محمد راغب محمد بن هشام الطباخ الحلبي : اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء - ٦ ج - حلب ١٩٢٣ .

محمد عبد الله عنان :

١ — تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة - القاهرة ١٩٢٦ .

٢ — تراجم اسلامية ـ القاهرة ٩٤٧ .

محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ـ القاهرة ١٩٥٩ .

محمد كرد علي : خطط الشام ـ ٠ ج ـ دمشق ١٩٢٥ .

محمد محمود مرسى الشيخ (الدكتور) : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ـ الاسكندرية ١٩٧٢ .

مصطفى غالب (الدكتور) :

١ — تاريخ الدعوة الاسماعيلية منذ أقـــدم العصور حتى وقتنا الحاضر ـ سوريا ١٩٥٣ .

- — اعلام الاسماعيلية ـ بيروت ١٩٦٤ .

ميشيل آمارى : المكتبة الصقلية ـ ٤ ج ـ ليبزج ١٨٧٥ .

ميشيل لباد : الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بصياف ـ بيروت ١٩٦٢ .

يحيى هاشم حسن فرغلى : نشأة الاراء والمذاهب والفروق الكلامية ـ القاهرة ١٩٧٢ .

يسرى الجوهرى (الدكتور) : الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيـة ـــ ١٩٧٠ .

دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ المجلد الثالث ج١٠ ٥ ج ٢٢ ، المجلد الرابع ج ٢٩ طبعة ١٩٧٢ .

رقم الايداع : ٨٠/٤٧٤٧

الترقيم الدولى : ٩ - ٩١٥ - ٢٠١ - ٩٧٧

ISBN

مطبعة مصنع الإسكندرية للكراس

محمد محمود محمد سعد

٥ شارع أديب إسحق . تليفون: ٨٠٥٨٤٧ - ٨٠٠٩١٠